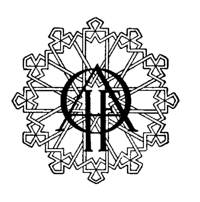
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري

٧٠١ - ٧٤٩ هـ
١٣٠١ - ١٣٤٩ م

ممالك مصر والشام والحجاز واليمن

حققها وكتب مقدمتها وحواشيها ووضع فهارسها
أيمن فؤاد سيد



المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري

ممالك مصر والشام والحجاز واليمن

فهرست الكتاب

* * *

النوع الثانى

صفحة

صفحة

صفحة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

ترجعُ صلتى بكتاب « مَسَالِكِ الأَبْصَار فى مَمَالِكِ الأَمْصَار » لابن فَضْل الله العُمَرى إلى ما قبل عشر سنوات عندما أُلْقَيْت ، فى مؤتمر المستشرقين التاسع والعشرين الذى عُقِد فى باريس فى صيف عام ١٩٧٣ ، بحثاً عن القسم الخاص بمملكة اليمن فى الكتاب ، ثم نَشَرْت هذا القسم فى القاهرة فى عام ١٩٧٤ [١] .

وكنت فى هذا الوقت مهتماً بتاريخ اليمن أَكْتُب كتاباً فى مصادره [٢] وأُعِدُّ رسالة عن مذاهبه الدينية [٣] . وفى أثناء ذلك توثَّقت صلتى بالمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، وعن طريق تعاونى مع الأستاذ تيارى بيانكى Thierry Bianquis ، عضو المعهد فى ذلك الوقت ، فى إخراج الجزء الأربعين من « أخبار مصر » للمُسَبِّحى ، حوَّلت اهتمامى إلى دراسة تاريخ مصر ، ولا سيما فى عصر الفاطميين فنَشَرْت عِدَّة نصوص خاصة بتاريخ الفاطميين فى مصر لابن مُيَسَّر وابن المأمون . وأثناء إعداد أطروحتى لنيل دكتوراه الدولة فى جامعة باريس عن « عاصمة مصر فى زمن الفاطميين » حاولت أن أجد فى كتاب العُمَرى مادة عن القاهرة والفُسْطاط فى العصر الفاطمى كتلك التى ضمَّنها معاصراه النُوَيْرى والقَلْقَشَنْدى موسوعتيهما « نِهاية الأَرَب » و « صُبْح الاعْشَى » ، إلَّا أنى لم أُفُز بطَلَبى ، ولكننى وجدت الكتاب غنياً بمادته مليئاً بالتفصيلات عن مصر فى زمن المماليك البحرية . فعاودت النظر فيه وراجعت ما كتبه الباحثون العرب والمستعربون عنه ، فوجدتهم قد اهتموا بنشر أقسام متفرِّقة من الكتاب كما فَعَلت عندما نشرت قسم اليمن منه . كما وجدت أن القسم الخاص بمصر والشام والحجاز ، والذى يُمَثِّل أهم

---

(١) انظر فيما يلى ص ١٤٩ هـ١ .

(٢) مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى (مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٧٤)

(٣) تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى (القاهرة ١٩٨٤) .

أجزاء الكتاب ، لم يُنْشر بعد ، كما أن الاستفادة منه كانت قليلة فيما أعلم من الباحثين العرب رغم أصالة الكتاب فى بابه ، بينما كانت نسخة مكتبة باريس ، التى تحوى هذا القسم ، دافعاً لعدد من المستشرقين الفرنسيين لدراسة الكتاب والاستفادة منه فى بحوثهم المختلفة ، وكان أسبقهم إلى ذلك كاترمير Quatremère ثم كازانوفا Casanova وجود فروى دى مومبين Gaudefroy Demombyne ، ثم المستشرق الانجليزى ماير Mayer وهو يُعِدُّ كتابه القيّم عن « الملابس المملوكية » .

ورغم أن هناك فكرة قديمة لنشر أجزاء هذه الموسوعة الهامة مجتمعة منذ نَشَرَ شيخ العروبة أحمد زكى باشا ، رحمه الله ، الجزء الأول منه سنة ١٩٢٤ – أى منذ ستين عاماً – فإلى الآن لم يتحقَّق هذا المشروع ، وأصبح إخراج الجزء الخاص بمصر والشام والحجاز ضرورة مُلِحَّة أمام سَيْل الدراسات الخاصة بالعصر المماليكى والتى لم تستفد استفادة ما من هذا الكتاب .

حقيقة أن القسم الأكبر من مادة كتاب العُمَرى ، الذى ننشره اليوم ، قد نَقَلَها القَلْقَشَنْدى والمَقْرِيزى والسُّيُوطى ، إلَّا أن الدراسة الجادة تستدعى التَعَرُّف على الأصول والأولويات بالنسبة للمصادر ، خاصة وأن موضوع هذا القسم الرئيسى هو النُّظُم والرُّسُوم ، وهى غير ثابتة وتتعرَّض للتبديل والتطوير بسرعة كبيرة بحيث أن ما يَصْدُق منها على فترة ما لا يَصْدُق بالتالى على فترة أخرى تليها أو تسبقها فى الدولة الواحدة .

فالعُمَرى هو أقدم مصدر وصل إلينا يصف نُظُم دولة المماليك فى المائة عام الأولى من عمرها ، كما أنه يُقَدِّم لنا أقدم وصف وصل إلينا لقَلْعَة الجبل ، وعلى ذلك فإن ما نقله عنه القلقشندى والمقريزى والسيوطى لا يُمَثِّل عصرهم تماماً وإنما هو وصفٌ لهذه النظم والتراتيب والمنشآت فى عصر الناصر محمد بن قلاوون بصفة خاصة .

* * *

المماليكُ ونظَام الحُكْم فى مصر

عرفت مصر طريقها إلى الاستقلال النهائى عن الخلافة العباسية فى منتصف القرن الرابع الهجرى عندما انتقلت إليها الخلافة الفاطمية من إفريقية ، فنشأ بها لأول مرة قَصْرٌ خلافى

وبلاطٌ للخلفاء لم يكتف فقط بمنافسة بلاط خلفاء بغداد ، بل تفوَّق عليه بمظاهر الترف والبذَخ والأُبَّهة التى استغلَّ الفاطميون فى إضفائها عليه كل إمكانيات مصر الحضارية ، وما تميَّز به مذهبهم العقائدى الخاص ، بحيث أن مصر لم تعرف منذ عهد الفراعنة والبطالمة بلاطاً يتميَّز بجدته وبَذَخه كالبلاط الفاطمى [(١)] .

وعندما خلفهم ، فى حكم مصر ، الأيوبيون السنيون ألْغَى صلاح الدين وخلفاؤه الكثير من مظاهر الترف والبَذَخ الذى أقامه الفاطميون ، فقد وجّه الأيوبيون اهتمامهم الأول ، خلال فترة حكمهم القصيرة التى لم تتجاوز الثمانين عاماً (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ) ، إلى النشاط الحربى ومواجهة الخطر الصليبى الذى كان يتهدَّد العالم الإسلامى فى ذلك الوقت . والواقع أن الأيوبيين قاموا بدور أساسى فى وضع حَدٍّ لهذا الخطر وفى تأمين سلامة الأراضى الإسلامية [(٢)] .

وعندما اعتلى مماليكهم كرسى الحكم فى مصر أكملوا جهادهم للقضاء على بقايا الوجود الصليبى فى مدن الشام الساحلية ، وفى صَدِّ الخطر المُغُولى بعد أن أسْقَط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ . وكان نظام حكمهم فى خطوطه العريضة امتداداً طبيعياً لحكم الأيوبيين فهم كما قال القلقشندى : « أصْلُ الدولة التركية » [(٣)] ، وعلى ذلك لم يُدْخل المماليك تغييراً كبيراً على أسلوب الحكم وجهاز الإدارة . غير أن مصر شهدت فى زمانهم بلاطاً متميزاً ورسوماً معقَّدَة أعادت إلى الأذهان ما كان عليه بلاط الفاطميين من قَبْل [(٤)] . ولعل ذلك راجع إلى أن أصول هؤلاء المماليك كانت غير عربية ، وأدَّى ازدهار التجارة الدولية فى زمانهم إلى ارتباطهم

---

(١) راجع دراسة الدكتور عبد المنعم ماجد : نُظُم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ١ - ٢ ، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٥ .

(٢) راجع دراسة أحمد فؤاد سيِّد : نظم الحكم والإدارة فى العصر الأيوبى بمصر ، رسالة ماجستير بجامعة عين شمس ١٩٨٣ ، El-Beheiry, S., Les institutions de l'Egypte au temps des Ayyubides, Thèse présentée à l'Université de Paris IV, 1971 (عن النظم الحربية بصفة خاصة) .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ٧ : ١١٩ .

(٤) راجع دراسة ماجد ، عبد المنعم : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، ١ - ٢ ، القاهرة ١٩٦٧ و ١٩٧٩ .

بدُوَل أوربا وأفريقيا والهند والشرق الأقصى بروابط سياسية واقتصادية وطيدة ، فأمَدُّوا البيئة العربية الإسلامية بالكثير من العادات والتقاليد والنُّظُم التى لم يأْلَفها المسلمون العرب من قبل .

الأثر المغولى فى دولة المماليك

وكان التأثير المغولى على نظام دولة المماليك عظيماً ، وأصبحت المؤثرات المغولية واضحة فى الكثير من نظم هذه الدولة ويأتى على رأسها نظام « اليَاسة » أو « السياسة » وهى شريعة جنكزخان [١] . فبعد هزيمة المغول فى عَيْن جالوت أُسِر منهم عددٌ كبير عُرِفوا « بالوَافِدِيَّة » انتشروا بأعداد كبيرة فى مصر والشام فنشروا عاداتهم وتقاليدهم بها [٢] ، ويبدو أنها أعجبت الظاهر بيبرس ، فتُجمع المصادر على أن الظاهر بيبرس لما تَسَلْطَن أراد « أن يَسْلُك فى مُلْكِه بالديار المصرية طريقة جنكزخان ... وأموره ، فَفَعل ما أمكنه ورَتَّب فى سَلْطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بديار مصر » [٣] ، فجدّد وظائف كثيرة فى مراتب الأمراء والجُنْد [٤] ، وإن كان بعضها قد وُجد قبل ذلك فلم تكن على الصيغة نفسها التى أوجدها الظاهر بيبرس .

واستدعت هذه التعديلات والوظائف الجديدة وضع توصيف وشرح لها . وقد قام بهذا العمل نَفَرٌ من كتَّاب الإنشاء والعاملين بدواوين الدولة المماليكية كان من أوائلهم محيى الدين بن عبد الظَّاهر وابن فَضْل الله العُمَرى .

---

(١) انظر دراسة بولياك Poliak, A.N., « The Influence of Chingiz- Khan's Yasa upon the general organisation of the Mamluk State», BSOAS X (1940-42), pp. 862-876 ودراسة آيالون Ayalon, D., «The great Yasa of Chingiz Khan, a reexamination SI 33 (1971), pp. 97-140; 34 (1971) pp. 150-180; 36 (1972), pp. 113-158; 38 (1973), pp.107-156 ، والمقريزى : الخطط ٢ : ٤٠ و ٢١٩ - ٢٢٢ ، أبا المحاسن : النجوم ٥ : ٣٦٥ - ٣٦٧ و ٦ : ٢٦٨ و ٧ : ١٨٢ - ١٨٣

(٢) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢١ ومقال آيالون Ayalon, D., «The Wafidiya ~~and~~ in the Mamluk kingdom», IC XXV (1951), pp. 89-104 .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦ : ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ٧ : ١٨٣ .

Morgan, D. O., The Great Yâsa of Chingiz Khân and Mongol Law in the Ilkhânate », BSOAS IXL (1986).

الكتاب ومؤلفه

١ – موضوع الكتاب
وما أُلِّف فيه من قبل

تَدْخُل الموسوعة التى ننشر منها هذا القسم اليوم فى نطاق كتب « المَسَالك والمَمَالِك » وهو نوعٌ من التأليف أقرب ما يكون إلى الجغرافيا الوصفية . وجَمَعت هذه الكتب بين ذكر الطرق والمسالك والمراحل ووصف البلدان والمُدُن ، إدارة وتاريخاً واقتصاداً ، فأمدَّتنا بمعارف خصبة عن البلاد الإسلامية فى القرون الماضية [١] .

وأدَّى اتساع الدولة الإسلامية فى أعقاب حركة الفتوحات الكبرى إلى تطَلُّب معرفة أحوال ولاياتها وأطرافها وكيفية دخولها فى الإسلام ، هل كان صُلْحاً أو عَنْوَة ؟ لتقدير قيمة ما يجب عليها من جِزْيَة وخَرَاج .

فقد كانت معظم الولايات الإسلامية تَعُدُّ الخليفة الأموى ثم العباسى رئيسها الدينى تؤدى إليه الأموال التى كانت تقوم بكثير من نفقات الخلافة . فكان من أوجب الأمور لمعرفة الجباية وجَمْع الأموال أن يعرف الحاكمون حال المسالك والممالك شعوبها وتقاليدها وعقائدها وطرقها وحاصلاتها وخراجها [٢] .

من أجل ذلك نشأت ضرورة التأليف فى « المسالك والممالك » وبَلَغ الأدب الجغرافى العربى أوجه فى القرن الثالث الهجرى بظهور ما يُطْلَق عليه « المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب »

---

[١] صلاح الدين المنجد : « وصف دمشق فى مسالك الأبصار » ، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤ (١٩٥٨) ٤٣ .

[٢] سامى الدهان : مقدمة « رسالة ابن فضلان » ، دمشق ١٩٥٩ ، ١٤ – ١٥ .

التى تميَّزت باهتمامها بوصف المسالك والممالك [١] . ويُعَدّ ابن خَرْدَاذَبَه المتوفى سنة ٢٨٠ هـ أوّل مؤلف يصل إلينا عنه مصنّف فى الجغرافيا الوصفية ، وإن وُجِدت مصنفات أخرى مماثلة ترجع إلى عصره أو قبله بقليل . فقد ذكر ابن النديم [٢] ، وكرَّر ياقوت مقولته [٣] ، أن أبا العباس جعفر بن أحمد المَرْوَزى المتوفى بالأهْوَاز نحو سنة ٢٧٤ هـ هو أوَّل من ألَّف فى المسالك والممالك كتاباً لم يُتمَّه ، أى عندما كان ابن خرداذبه قد فَرَغ من المسودة الأولى بل وربما الثانية لكتابه الذى يحمل نفس العنوان [٤] .

وفى خلال المائة عام الأخيرة نُشِرت معظم كتب المسالك والممالك التى وُضِعَت فى القرنين الثالث والرابع وهى مؤلفات : ابن خَرْدَاذَبه ، وقُدَامة بن جعفر ، واليَعْقُوبى ، وابن الفقيه الهمدانى ، وابن رُسْتَه ، والاصْطَخرى ، والمَسْعُودى ، وابن حَوْقَل ، والمَقْدسى ، وأقسام من كتاب « المسالك والممالك » الذى ألَّفه فى القرن الخامس الجغرافى الأندلسى أبو عُبَيْد البَكْرى المتوفى سنة ٤٩٠ هـ .

ورأى بعض هؤلاء المؤلفين بنفسه وشاهد وعاين الكثير مما سجّله ، فأمدونا بالكثير من الأخبار الدقيقة عن أحوال البلاد الإسلامية فى عصرهم ، غير أن هذه الكتب أوْجَزت حين رَسَمت أحوال الأمم والشعوب وتقاليدها ، ولعلها كانت تنظر قبل كل شئ إلى الخراج والمال وإلى صلة هذه الأصْقَاع بعاصمة الخلافة .

وحلَّت كتب الرحلات محلّ كتب المسالك فى الفترة التالية واهتمت فى المقام الأول بتسجيل أحوال الشعوب وتقاليدها كما هو واضح فى رحلات ناصر خُسْرو وابن جُبَيْر وعبد اللطيف البغدادى .

---

(١) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١ : ١٥٥ - ١٧٦ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ، طهران ١٩٧١ ، ١٦٧ .
(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ١٥١ .
(٤) كراتشكوفسكى : المرجع السابق ١ : ١٣١ .

عَصْر المَوْسُوعَات

ظَهَرت البدايات الأولى لنمط التأليف الموسوعى منذ القرن الثالث الهجرى بفضل التفوّق الثقافى الذى شهده العراق فى هذا الوقت على أيدى كبار العلماء المسلمين الذين شاركوا فى إذكاء هذا التيار ، ونتيجة لحركة الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية والسنسكريتية التى ازدهرت فى زمن خلافة المأمون العباسى .

وتُمَثِّل مؤلفات الجَاحِظ وابن قُتَيْبَة وأبى الفَرَج الأَصْفَهَانى نَمَط التأليف الموسوعى القديم ، ويبدو هذا النمط أكثر وضوحاً فى كتابى « الحَيَوان » للجَاحِظ ، و « عُيُون الأَخْبَار » لابن قُتَيْبة . كما أن مؤلفات مثل « الأَنْسَاب » للسَمْعَانى و « مُعْجَم البُلْدان » لياقوت الحموى تمثِّل مرحلةً تاليةً من هذا التأليف الموسوعى .

ومع قيام دولة المماليك فى مصر وسقوط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ ثم انتقالها إلى مصر [١] ، تحوّل الثقل السياسى والحضارى إلى القاهرة فانتقل إليها عددٌ غير قليل من علماء الشرق الإسلامى ساعد على ازدهار مناخ علمى أنتج العديد من المؤلفات فى فنون كثيرة .

والحقيقة أن العدد الأكبر من المصنفات التى كتبت فى هذا العصر كانت مؤلفات نقلية ، والقليل منها يمثل أصالةً فى موضوعه . واشتهر القرن الثامن بما أُلِّف فيه من موسوعات بدايةً بموسوعة ابن الوَطْوَاط الكُتُبى وانتهاء بموسوعة القَلْقَشَنْدى ، وتعتبر هذا المصنفات خَيْر ما أنتجه هذا العصر .

فقد أسفر النشاط الهائل لعلماء المسلمين على مدى عدة قرون عن تأليف عدد ضخم من الكتب فى كل حقل من حقول المعرفة . بحيث أن عمر العالم المختص لم يكن يكف لقراءة كل ما كُتِبَ فى ميدانه ، ناهيك عن دراسته . ومن هنا كانت الحاجة إلى طلب الكتب الموسوعية

---

(١) عن انتقال الخلافة العباسية إلى مصر راجع دراسة آيالون ، Ayalon, D., « Studies on the transfer of the 'Abbasid Caliphate from Bagdad to Cairo », Arabica VII (1960), pp. 41-59.

المختصرة [١] . وقد عارض ابن خلدون فى مقدمته هذه الظاهرة واعتبرها دليلاً على التدهور الذى وصلت إليه الحياة العلمية فى عصره [٢] .

وظَهَرت كل هذه الموسوعات فى مصر ، كتبها عمَّال وعلماء حكومة سلاطين المماليك بغَرَض خِدمة كَتَبَة الدواوين للاستفادة بها فى مجال عملهم ، ولكن واقع الأمر أنها أفادت جمهوراً أعظم من المثقفين لأنها عالجت مسائل أعمَّ وأكثر شمولاً فى جميع فروع العلم التى يريد المؤلف أن يُعَرِّف بها .

والظاهرة الملفتة للنظر أن مؤلفى هذه الموسوعات لم يروا فى أنفسهم علماء ، بل كانوا فى حقيقة الأمر كتاباً نابهى الشأن فى ديوان الإنشاء المماليكى واكتسبوا خبرة كبيرة فى هذا المجال . وأدَّت وحدة الوسط الذى نشأت فيه هذه الموسوعات إلى تشابهها فى الترتيب ، وهو ترتيب يعكس أحياناً وبوضوح تام أثر التدريب الصارم فى الشئون الديوانية [٣] . ويبدو هذا واضحاً أكثر ما يكون فى مؤلَّف القلقشندى « صبح الأعشى » .

« مَبَاهِجُ الفِكرَ » و « نِهَايَةُ الأَرَب »

أول موسوعات هذا العصر « مَبَاهِجُ الفِكرَ ومَنَاهِجُ العِبَر » ألَّفها جمال الدين محمد بن إبراهيم ابن يحيى الكُتُبى الورَّاق المعروف بالوَطْواط المتوفى سنة ٧١٨ هـ [٤] . ولم يكن الوَطْوَاط من عمَّال الحكومة الذين مارسوا العمل فى دواوينها ، بل كان ، كما يدل على ذلك لقبه ، من المشتغلين بتجارة الكتب ونسخها يقول الصَّفَدى : « له معرفة بالكتب وقيِّمها » [٥] ، « ومَلَكْت بخَطِّه تاريخ ابن الأثير المسمَّى بالكامل وقد ناقش المصنّف فى حواشيه وغلَّطه وواخذه » .

---

[١] روزنتال ، فرانز : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى (ترجمة أنيس فريحة ومراجعة وليد عرفات) ، بيروت ١٩٦١ ، ص ١٦٦ .

[٢] ابن خلدون : المقدمة (نشرة على عبد الواحد وافى د . ت) ٣ : ١٢٤٢ .

[٣] كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١ : ٤٠٥ .

[٤] انظر فى ترجمته ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٢ : ١٦ – ١٨ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٣ : ٣٨٥ – ٣٨٦ ، الزركلى : الأعلام ٥ : ٢٩٧ ، Brock, C., GAL II, 67; S II, 59 .

[٥] الصفدى : الوافى ٢ : ١٦ .

و « مَباهِجُ الفِكرَ » موسوعة فى العلوم الطبيعية والجغرافيا معروضة بأسلوب أدبى وموضَّحة بالشواهد من شعر ونثر . وتنقسم إلى أربعة فنون ، الأول : فى الفَلَك والأجرام السماوية ، والثانى : فى الجغرافيا والأجناس ، والثالث : فى الحَيَوان ، والرابع : فى النبات [١] .

والفن الثانى الذى خصَّصه الوَطْوَاط للجغرافيا هو أهم فنون هذا المصنَّف النقلى ، فقد أمدَّنا فيه بمعلومات ذات قيمة كبيرة عن نظام الزراعة وجغرافية القطر المصرى بصفة خاصة .

ولعب مصنف الوَطْوَاط دوراً كبيراً فى تطوير نَمَط التأليف الموسوعى ، فقد نقل عنه مراراً معاصره النُّوَيْرى واستعار منه طريقة التبويب إلى « فنون » محتفظاً أحياناً بمحتويات الكتاب نفسها وخاصة فى القسم الخاص بالنبات .

ولم يُطْبع هذا الكتاب إلى الآن ، بل إن مخطوطاته المختلفة لا تحتوى إلّا على أجزاء متفرِّقة ، والنسخة التامة الوحيدة المعروفة من هذا الكتاب موجودة – كما يذكر كراتشكوفسكى – فى المكتبة المارونية بحلب ووضع لها جرمان فرحات المتوفى سنة ١٧٣٢ م عناوين توضيحية شاملة فى سنة ١٧٢٧ م [٢] .

وفى سنة ١٩٤٧ نشر والدى رحمه الله مقالاً فى مجلة العالم العربى نبّه فيها إلى أهمية هذا الكتاب وضرورة العناية بنشره وإخراجه اعتماداً على نسخة دار الكتب المصرية رقم ٣٥٩ طبيعة المصورة عن مخطوطة حلب والمنسوخة بها تحت رقم ٣٢٣ ف ، ومن الكتاب أجزاء أخرى بالدار تحت رقم ٣٢٤ و ٤٢٠ طبيعة [٣].

---

(١) راجع مقال جرجس منش المارونى الحلبى : المناهج فى وصف المباهج ، مجلة المشرق ١٠ (١٩٠٧) ٧٢١ و ٧٧٤ ، ومقدمة عبد العال الشامى لكتاب صفحات من جغرافية مصر من مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط (الكويت ١٩٨١) .

(٢) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى ١ : ٤٠٧ .

وقد نال الأستاذ أحمد عبد الكريم سليمان رسالته للماجستير من آداب القاهرة على تحقيقه الفن الرابع الخاص بالنبات فى رسالة عنوانها : الحياة الزراعية فى مصر فى العصر المملوكى (١٩٧٢) ، كما نشر الدكتور عبد العال عبد المنعم الشامى أقساماً من الكتاب بعنوان « من مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط صفحات من جغرافية مصر » ، الكويت ١٩٨١ .

(٣) مجلة العالم العربى ١ (يوليو ١٩٤٧) ٧٣ .

كما توجد منه كذلك نسخة تحوى الفن الأول والفن الثانى كتبت سنة ٧٥٧ هـ فى المكتبة التيمورية (مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ٣ (١٩٢٣) ٣٤٤) ، ونسخة تحوى الحديث عن النبات فى مكتبة الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وقطعه قديمة فى مكتبة عيسى اسكندر المعلوف . (نفسه ٣ : (١٩٢٣) ٣٤٤) .

وللكتاب مختصر عنوانه « نُزْهة العيون فى أربعة فنون » [١] منه نسخة كتبت بخط نسخ جميل كتبها منصور بن محمد العبادى سنة ٩٨٧ هـ . ولا ندرى إن كان هو نفسه المُخْتَصر ، فالعنوان خلو من اسم مؤلفه ، محفوظة فى مكتبة أحمد الثالث برقم ٢٦١٠ ومنها مصورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٢٩ معارف عامة .

* * *

وموسوعة « نِهَايَةُ الأَرَب فى فُنون الأدب » أَلَّفها شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكرى النُّوَيرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ [٢] . ويُعَد النُّوَيرى خير ممثل للوسط الذى عُمِلَت فيه ومن أجله موسوعات عصر المماليك .

وكما قلت فقد استعار النُّوَيْرى من الوَطْواط تقسيم كتابه إلى أربعة فنون ، وأضاف إليها فناً خامساً هو « التاريخ » وعدّل كثيراً فى مادة الفن الثانى كما جاءت عند الوَطْواط .

وقد استغرق تأليف هذه الموسوعة نحو عشرين عاماً وجاءت فى واحد وثلاثين جزءاً كباراً . ويعتبر القسم التاريخى من هذه الموسوعة أكثر أقسام الكتاب قيمة سواء بالنسبة للفترة التى

---

[١] كامل الغزى : « كتاب نزهة العيون فى أربعة فنون » ، مجلة المجمع العلمى العربى ٩ (١٩٢٩) و ١٠ (١٩٣٠) .

[٢] راجع فى ترجمته : الأدفوى : الطالع السعيد ٩٦ - ٩٧ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٧ : ١٦٥ ، المقريزى : السلوك ٢ : ٣٦٣ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ١ : ٢٠٩ - ٢١٠ ، أبا المحاسن : النجوم ٩ : ٢٩٩ والمنهل الصافى ١ : ٣٦١ - ٣٦٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٥٥٦ ، كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى ١ : ٤٠٨ - ٤١٠ ، Little, D., Introduction to Mamluk Historiography, Wiesbaden 1970, pp. 24-32; Brock., C., GAL II 175 (139-140); S II, 173-174 ، أمينة محمد جمال الدين : النويرى وكتابه نهاية الأرب فى فنون الأدب ، القاهرة ١٩٨٤ ، ٢٧ - ٩٣ .

عاصرها ، أو للفترات السابقة فقد نَقَل النويرى نصوصاً كاملة عن مؤلفين ضاعت عنَّا مؤلفاتهم اليوم فحفظ لنا بذلك معلومات ما كان يمكننا الاطلاع عليها لو لم يدوِّنها النويرى . والواقع أن هذه قيمة كبيرة لمؤلفات عصر المماليك التاريخية فقد حفظ لنا مؤرخون من أمثال : ابن أَيْبَك وابن الفُرَات والمَقْرِيزى وأبو المحاسن نصوصاً كاملة من مؤلفات ضاعت عنَّا أصولها اليوم .

وفيما يتعلَّق بالفنون الأخرى غير التاريخ فإن أهميتها تختلف باختلاف نوع المادة التى يعالج الكلام عليها فى كل فن [١] .

وبفضل جهود أحمد زكى باشا ، رحمه الله ، اقتنت دار الكتب المصرية نسخة كاملة ولكنها مُلَفَّقة من « نهاية الأرب » [٢] ، وشَرَعت فى نشر أجزائها حيث صدر جزءها الأول فى سنة ١٩٢٣ واستمرت فى إصدار أجزائها تباعاً حتى أصدرت الجزء الثامن عشر سنة ١٩٥٥ . ولكن هذا العمل تعثَّر بعد ذلك حتى ظهرت منه فى العشر سنوات الأخيرة ستة أجزاء من التاسع عشر إلى الرابع والعشرين ، وكلنا أمل فى أن تُصْدر الهيئة العامة للكتاب ، التى أُوْكِل إليها إتمام اخراجه ، الأجزاء الباقية فى أقرب فرصة خاصة وأنها تامة التحقيق منذ زمن غير قصير .

ومنذ شهور صدرت دراسة طيِّبَة عن الكتاب وضعتها الدكتورة أمينة محمد جمال الدين اهتمت فيها فى المقام الأول بدراسة القيمة الأدبية لموسوعة النويرى [٣] .

* * *

مَسَالِكُ الأبصَار فى مَمَالكِ الأمْصَار

تُعَدُّ هذه الموسوعة التى كتبها ابن فَضْل الله العُمَرى فى النصف الأول من القرن الثامن

---

(١) كراتشكوفسكى : المرجع ١ : ٤٠٩ .

(٢) Zeky, A., Mémoire sur les moyens propres à determiner en Egypte,une renaissance de lettres Arabe, le Caire 1910, pp. 8-10 .

(٣) أمينة محمد جمال الدين : النويرى وكتابه نهاية الأرب فى فنون الأدب – مصادره الأدبية وآراؤه النقدية ، القاهرة – دار ثابت ١٩٨٤ .

الهجرى من أهم ما أنتجه عصر سلاطين المماليك ، رغم أنها لم تلْق ما يناسبها من الشهرة . ووصفها الصَّفَدى - معاصر العُمَرى - بأنها « كتابٌ حافلُ ما يَعْلم أن لأحدٍ مثله » [١] .

مَنْهجُ الكتاب

بيَّن العُمَرى فى مقدمته الخِطَّة التى اتبعها فى تأليف هذا الكتاب ، والغرض الذى أَلَّفه من أجله فقال إنه أراد بذلك :

« إثبات نُبْذة دالَّة على المقصود فى ذكر الأرض وما فيها ومن فيها ... وحالة كل مملكة ، وما هى عليه ، وأهلها فى وقتنا هذا ، مما ضَمَّه نطاقُ هذه المملكة ، واجتمع عليه طرفا تلك الدائرة . لأُقَرِّب إلى الأفهام البعيدة غالب ما هى عليه أُمَّ كل مملكة من المُصْطَلح والمعاملات ، وما يوجد فيها غالباً : ليُبْصر أهل كل قُطْر القُطْرَ الآخر ، وبيَّنته بالتصوير : ليُعْرَف كيف هو ، كأنه قُدَّام عيونهم بالمشاهدة والعِيَان مما اعتمدتُ فى ذلك على تحقيق معرفتى له ، فيما رأيته بالمشاهدة ، وفيما لم أره بالنَقْل مِمَّن يعرف أحوال المملكة المنقول عنه أخبارها ، مما رآه بعينه أو سمعه من الثقات بأُذُنه .

ولم أنقل إلاَّ عن أعيان الثقات ، ومن ذوى التدقيق فى النظر والتحقيق للرواية .

واستكثرت ما أمكننى من السؤال عن كل مملكة ، لِآمَنَ من تَغفُّل الغفلاء ، وتَخيُّل الجهالات الضالَّة ، وتحريف الأفهام الفاسدة [٢] .

فإن نَقَلت عن بعض الكتب المصنَّفة فى هذا الشأن ، فهو من الموثوق به فيما لابدّ منه : كتقسيم الأقاليم ، وما فيها من أقوال القدماء .... ولم أقتصر بذكر

---

[١] الصفدى : الوافى ٨ : ٢٥٥ .

[٢] اتّبع العمرى فى ذلك منهجاً علمياً بدائياً ذكره فى مقدمة النوع الثانى من القسم الأول (انظر فيما يلى ص ٦) .

الأقاليم ، عند ذكرى الممالك ، مقْصدَ الجغرافيا ، كالأول والثانى والثالث ، ولا بما نُطْلق عليه المسميات ، كالعِرَاق وخُرَاسان وأَذَرْبيجان ، بل أذكر ما اشتملت عليه مملكة كل سلطان ، جملة لا تفصيلاً ، على ما هى عليه المدينة التى هى قاعده الملك .... أو ما لابد من ذكره معها ، والغالب فى تلك المملكة من أوضاعها ، والأكثر من مصطلح أهلها .

....

ولم أقصد فى المعمورة سوى الممالك العظيمة ، ...... وقَنِعت بما بلغه ملك هذه الأمة ، وتمَّت بكلمة الإسلام على أهله النعمة . ولم أتجاوز حدّها ، ولا مشيت خطوة بعدها ..... وإن كان فى العُمْر فُسْحَة ، وفى الجسم صِحّة ... لأُذَيِّلَنَّ بممالك الكفَّار هذا التصنيف .... لكننى لم آت فى هذا الكتاب بذكر ممالكهم – على اتساع بلادها – إلاَّ عَرَضاً ، ولا سطَّرت من تفصيلها إلاَّ جُمَلاً : توفيراً للمادة ، وتيسيراً للجادّه .... على أننى ربما ذكرت فى مكانٍ ما قاربه من بلاد الكُفَّار ، وذكرته للمجاورة رجاءَ أن يؤخذ بشُفْعَة الجوار .

ولم أذكر عجيبة حتى فحصت عنها ، ولا غريبة حتى ذكرت الناقل ، لتكون عهدتها عليه ، وتبرأت منها .

....

وأوّل ما أبدأ بالمَشْرق ، لأن منه ينفتح نوَّار الأنوار ، وتجرى أنهار النهار . إلى أن أختمه بنهاية المغرب ، إلى البحر المحيط ، لأنه الغاية وإليه النهاية .

وقَطَعت فيه عمر الأيام والليالى ، وأثبتُّ فيه بالأقلام أخبار العوالى ، وشُغِلْت به الحين بعد الحين ، وآشتغلت ولم أسمع قول اللاَّحين ، وحرصت عليه حِرْص الضَّنين ، وخَلَصتُ إليه بعد أن أجريت ورائى السنين .

وشَرَعت فيه فى أيام من مَانَنَا بإحسانه ، وأمَّننا فى سلطانه : سيّدنا ومولانا ،

ومالك رقابنا ، السلطان آبن السلطان السيد الكبير الملك الناصر ، العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر ، المؤيَّد المُظَفَّر المنصور ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سيِّد الملوك والسلاطين ، وارث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ، نائب الله فى أرضه ، القائم بسُنَّته وفَرْضه ، ملك البحْرين ، خادم الحَرَمَيْن ، حامى القِبْلَتَيْن ، مبايع الخليفَتَيْن ، بهلوان جهان ، اسكندر الزمان ، ناشر عَلَم العدل والإحسان ، مُمَلِّك أصحاب المنابر والأسرَّة والتخوت والتيجان ، جامع ذيول الأقطار ، مبيد البُغَاة والطُّغاة والكفَّار ، هازم الرُّوم والفِرنْج والكُرْج والأرْمَن والتتار ، سلطان البسيطة ، مُثَبِّت أركان المحيطة ، إمام المتَّقين ، ولى أمور المؤمنين ، متعَهِّد حج بيت الله الحرام وزيارة سَيِّد المرسلين ، أبى المعالى محمد بن مولانا السلطان الكبير الشهيد أبى المُظَفَّر قلاوون سيِّد ملوك الأرض على الإجماع ، المخصوص بمُلْك أشْرَف البِقَاع ....

وسَمَّيته

مسَالِك الأبْصَار فى مَمَالِك الأمْصَار [1]

تقسيم الكتاب

قَسَّم العمرى كتابه إلى قسمين كبيرين جعل أحدهما : « فى ذكر الأرض وما آشتملت عليه برّاً وبحراً » ، والثانى : « فى سُكَّان الأرض من طوائف الأمم » . وكل من القسمين ينقسم بدوره إلى أقسام أطْلق عليها العُمَرى اصطلاحاً « النَوْع » .

فالقسم الأول الذى خَصّصه للأرض ينقسم إلى نوعين :

النوع الأول – فى ذكر المسالك .

النوع الثانى – فى ذكر الممالك .

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار ١ : ٢ – ٦ .

والنوع الأول المشتمل على « ذِكْر المَسَالِك » يقع فى خمسة أبواب . بينما يقع النوع الثانى المشتمل على « ذِكْر المَمَالِك » فى خمسة عشر باباً .

أما القسم الثانى من الكتاب الذى خصَّصه العُمَرى لسكان الأرض من مختلف الشعوب فينقسم بدوره إلى أربعة أنواع :

النوع الأول – فى الإنصاف بين المشرق والمغرب .

النوع الثانى – فى الكلام على الديانات : وهى ست نِحَلٍ ، وأربع مِلَل .

النوع الثالث – فى الكلام على طوائف المتدينين .

النوع الرابع – فى ذكر التاريخ .

وفيه بابان :

الباب الأول – فى ذكر الدول التى كانت قبل الإسلام .

الباب الثانى – فى ذكر الدول الكائنة فى الإسلام [١] .

مادة الكتاب

رغم أن مادة موسوعة العمرى تقتصر على الجغرافيا والتاريخ فقط – كما يدُلُّ على ذلك عنوانها – بعكس موسوعتى الوَطْوَاط والنُّوَيرى اللتين عالجتا فنوناً أخرى غير الجغرافيا والتاريخ ، فإن ثَقَافة العُمَرى تبدو أكثر وضوحاً فى موسوعته وفى كتابه « التعريف » عن الوَطْوَاط والنُّوَيرى اللذين يمثل مؤلفاهما مؤلَّفين نقليين بمعنى الكلمة . فمصنفا العُمَرى « المسالك » و « التعريف » يُعدَّا من أهم آثار عهده بالنسبة لنظم دولة سلاطين المماليك ورسومها واْعتمد عليهما كثيراً مؤرخو عصر سلاطين المماليك فى القرن التاسع كما يبدو واضحاً فى مؤلفات القلقشندى والمقريزى وابن شاهين والسيوطى .

---

[١] العمرى : مسالك الأبصار ١ : ٧ – ١٣ .

ومع أن مصنف العمرى يظفر بأهمية أكثر من مصنف معاصره النويرى ، إلّا أنه لم تبلغ سمعته فى الدوائر العلمية سمعة النويرى ، فموسوعة العمرى مصدرٌ من الدرجة الأولى لدراسة عصر المماليك وعلى الأخص المعلومات التى يوردها عن البلاد التى رَبَطَتْها صلات دبلوماسية منتظمة أو متقطّعة بدولة المماليك . فقد هيَّأ له عمله الحكومى الاطلاع على الوثائق ولقاء الكثير من الرجال والسفراء ، كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعدِّدة للغاية مما مكّنه من إخراج لوحة مفَصَّلة فى وصف العالم المعاصر له [١] .

أما القسم الثانى الذى خصصه العمرى للحديث عن سكان الأرض فيتمتع نوعه الأوّل الذى تحدّث فيه عن الإنصاف بين المشرق والمغرب ، ونوعه الرابع الخاص بالتاريخ بأهمية خاصة . فالبنسبة للنوع الأوّل فقد ضمنه العُمَرى تراجم على درجة كبيرة من الأهمية لطبقات : القُرَّاء ، وأهل الحديث الشريف ، والفقهاء ، وأهل اللغة ، وأهل النحو ، وأرباب المعانى والبيان ، وفقراء الصوفية ، والأطباء ، والحُكَماء ، والوزراء ، والشعراء ، والأذكياء ، وعقلاء المجانين ، والحمقى والمغفلين .

وترجع قيمة هذا القسم إلى أنه آنفرد فيه بالترجمة لنفر لا نجد لهم ذكراً فى غير ما أورده العمرى فى هذا القسم .

أما القسم التاريخى من الكتاب فلا يرقى بأى حال إلى قيمة القسم التاريخى فى موسوعة النويرى خاصة إذ وجدناه ينقل أحداث كتاب « دول الإسلام » للذهبى عن الفترة الواقعة بين سنة ٦٩٣ وسنة ٧٤٤ . فبذلك لم يضف إلى معلوماتنا التاريخية شيئاً جديداً .

القسم الذى ننشره وأهميته

يرْجَح عندى أن الباب السادس والباب السابع من النوع الثانى من القسم الأوّل من موسوعة العمرى والخاصين بمصر والشام والحجاز واليمن هما أهم أقسام قسم الممالك فالعُمَرى

---

[١] كراتشكوفسكى : المرجع السابق ١ : ٤١٠ ، ٤١٣ .

سليل أسرة خَدَمت فى دواوين سلاطين المماليك فى مصر والشام نحو قرن من الزمان مما أكسبه خبرة كبيرة فى هذا العمل [١] . فالمعلومات الهامة التى يذْخَر بها « الباب السادس » لا تستند فقط على الوثائق الرسمية التى اطّلع عليها المؤلف ، بل على معرفته المباشرة بمعظم ما سجله فى هذا الباب ، خاصة أنه كتبه فى سنة ٧٣٨ هـ بعد أن أصبح يتمتَّع بخبرة واسعة فى ديوان الإنشاء [٢] .

وينبغى أن نلاحظ دائماً أن الحديث عن الحجاز ينقص فى كل مخطوطات « المسالك » ، ولا يوجد فى هذا الباب إلَّا حديث عابر عن مكة والمدينة ، ويبدو أن العمرى لم يكتب هذا القسم على الإطلاق فلا يشير إليه القلقشندى فى الفصل الذى عقده للحديث عن الحجاز ويمكن الاستعاضة عن هذا القسم بما أورده القلقشندى فى صبح الأعشى [٣] .

والذين درسوا هذا الباب لاحظوا ما يتمتَّع به مؤلفه من أصالة ، فهو يقدِّم لنا أقدم وصف وصل إلينا لقلعة الجبل ويُمَثِّل الأصل الذى نقل عنه المقريزى وصف القلعة رغم أنه لم يُشر إليه إطلاقا فى ثنايا كتابه [٤] . وعلى وصف العمرى اعتمد كازانوفا وهو يكتب عن قلعة القاهرة زمن الناصر محمد بن قلاوون [٥] .

أما ماير فقد اعتمد اعتماداً كليا على نَصّ العمرى ، كما نقله عنه المقريزى فى الخِطَط ، وهو يكتب عن « ثياب التشريف فى عصر المماليك » ، وعلَّق على قيمة هذا النص قائلاً : « حتى إن الإنسان ليجد صعوبة كبرى إذا أراد أن يحاول محاولة أفضل وأدق ممَّا قدَّمه العُمَرى بأسلوبه الخاص » [٦] .

---

(١) راجع ، القلقشندى : صبح ١ : ٧ - ٨ و ٩٨ - ٩٩ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٥٦ - ٥٩ .

(٢) انظر فيما يلى النص ص ٦٧ .

(٣) القلقشندى : صبح ٤ : ٢٤٣ - ٣٠٤ .

(٤) قارن فيما يلى النص ص ٧٩ - ٨٤ والمقريزى ، الخطط ٢ : ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٥) Casanova, P., Histoire et description de la Citadelle du Caire, MMAF VI (1891), pp. 667-672 .

(٦) Mayer, L.A, Mamluk Costume, Genève 1952, pp. 50-60 .

ويعيب العُمَرى فى هذا المصنف الضحم عرْضَه مادة واسعة ولكن بشكل غير منتظم ، بعكس القلقشندى الذى يمتاز مصنفه بدقة التبويب ووضوح العرض ، ومع ذلك فإن مصنف العمرى يتميز بالإحاطة والشمول بالإضافة إلى الأصالة وأنه يمثل عصره بجلاء ، بعكس القلقشندى الذى اعتمد عليه وبذلك لا تمثل المادة التى يعرضها عصره تماماً .

* * *

وفيما يخص الباب السابع الخاص بمملكة اليمن فإن قيمته ترجع بالإضافة إلى أنه النص الوحيد الذى يقدّم لنا عرضاً لنظام دولة الرسوليين ودولة الأشراف فى اليمن ، إلى أنه اعتمد فيه على رواة ثقاة أقاموا فى اليمن فى عهد الملك المؤيد داود وابنه الملك المجاهد على الرسوليين . وأهم الذين نقل عنهم العمرى أخبار اليمن .

١ - أحمد بن محمد بن سلمان المَقْدِسى المعروف بابن غَانِم المتوفى بدمشق سنة ٧٣٧ هـ . وكان من كتاب الإنشاء بمصر وبدمشق ثم دخل اليمن وخدم بها صاحبها إذ ذاك الملك المؤيد داود بن عمر فى كتابة الإنشاء واختص به [١] .

٢ - تاج الدين أبو محمد عبد الباقى بن عبد المجيد بن عبد الله بن أبى المعالى مثنى بن أحمد بن محمد بن عيسى بن يوسف اليمنى المخزومى المكى [٢] .

---

[١] ترجمته عند ، الصفدى : الوافى ٨ : ١٩ - ٢٤ ، ابن شاكر : فوات ١ : ١٢٧ - ١٣٢ ، ابن حجر : الدرر ١ : ٢٨٢ - ٢٨٥ .

[٢] ترجمته عند العمرى : مسالك الأبصار - خ ٨ : ١٤٨ - ١٥٠ ، الصفدى : الوافى بالوفيات - ج ١٨ (٤ و - ٤ ظ) ، ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ٢ : ٢٤٦ ، النويرى : نهاية الأرب ١ : ١٢٤ - ١٢٩ ، الفاسى : العقد الثمين ٥ : ٣٢١ - ٣٢٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١٠ : ١٠٤ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ٢ : ٢٥١ - ٢٥٣ ، مصطفى حجازى : بهجة الزمن لابن عبد المجيد ١٤٦ - ١٦٩ ، ولمحمد أحمد عيسى العقيلى مقال عنه فى مجلة العرب ٥ (١٩٧١) ٧٠٧ - ٧٢٥ ، G. Wiet, les Biographies du Manhal Safi, n. 1345 .

وهو صاحب كتاب « بهجة الزمن فى تاريخ اليمن » الذى ألفه للنويرى . وحققه مصطفى حجازى ونشره فى القاهرة سنة ١٩٦٥ نشرة كانت تحتاج إلى مزيد عناية وتحقيق . اعتمد فيها على ما أورده النويرى فى الجزء ٣١ من نسخة دار الكتب من كتاب نهاية الأرب . ويوجد أصل كتاب ابن عبد المجيد فى المكتبة الأهلية بباريس برقم ٥٩٧٧ .

قال عنه العمرى : « أحد مشاهير الأدباء وأحد جماهير الأولياء » ، ولد بمكة لمضى اثنتى عشرة ليلة من رجب سنة ثمانين وستمائة ، وتوفى فى أواخر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة أو أوائل سنة أربع وأربعين بالديار المصرية . قدم مصر ثم الشام وأقام بدمشق مدة متصدرا بالجامع فى أيام الأمير سيف الدين تنكز مدة سبع سنين يقرىء الطلبة المقامات الحريرية والعروض وغير ذلك من علوم الأدب ، وقرر له على ذلك مائة درهم فى كل شهر على مال الجامع الأموى .

ثم عاد إلى وطنه واتصل بالملك المؤيد داود ، فعول عليه وقلده كتابة السر لديه ، وربما وزر له إلى أن مات سنة ٧٢١ هـ . فخلفه ابنه الملك المجاهد فاضطربت عليه الأمور ، فخلع وقبض عليه فانحاز ابن عبد المجيد إلى الملك الظاهر ابن عم الملك المجاهد فقربه قربا حقده عليه الملك المجاهد ، فلما استرد حكمه صادره وأخذ أمواله . ففر منه إلى مكة ومنها إلى مصر فوصلها سنة ثلاثين ، ففوض إليه تدريس المشهد النفيسى وشهادة البيمارستان المنصورى فما استقر ، فقصد دمشق حيث رآه الصفدى بها - فيما يظن - سنة إحدى وثلاثين ، ثم عاد إلى القاهرة ورآه الصفدى بها سنة اثنتين وثلاثين . ثم أتى القدس الشريف واستوطنه ورتب مصدرا بالحرم فى القدس فأقام بها مدة وتردد إلى دمشق وحلب وطرابلس وعمل له راتب بطرابلس ثم توجه إلى القاهرة وأباع وظائفه وبها توفى .

وذكر العمرى أن جملة ما ذكره عن اليمن عنهما ، وهو وصف قاعدتى ملك اليمن تعز وزبيد وخصائصهما وما يزرع فيها ... وأخبره ابن عبد المجيد بأحوال الأئمة الزيديين فى صنعاء ، كما وصف له ابن غانم بلاد الأشراف حيث كانت الطريق التى سلكها أثناء عوده من اليمن .

٣ - أبو الربيع سليمان بن محمد بن قاضى القضاة الصدر سليمان الحنفى الذى توجه إلى اليمن وخدم بديوان الجيش . فأمده بالأخبار المتعلقة بالجند وملابسهم ونظمهم .

٤ - الحكيم الفاضل صلاح الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بابن البُرْهَان الجرائحى [1] قال عنه العمرى : « ..... نظر فى علوم الأوائل ... وقرأ الطب على ابن النفيس

---

[1] ترجمته عند العمرى : مسالك الأبصار - خ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٢ : ٢٣ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٣ : ٢٨٨ المقريزى : السلوك ٢ : ٦٨٣ السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٣١٥ . أحمد عيسى : معجم الأطباء ٣٥٩ - ٣٦٣ .

وغيره ، وقرأ الحكمة ، وآخر ما قرأه كتاب الشفاء لابن سينا على شيخنا (شمس الدين) الأصفهانى » .... وكان طبيباً حكيماً فاضلا متفلسفاً قائلاً بالروحنيات له ميل إلى النجامة ومخاطبات الكواكب وتطلع إلى الكيمياء يتحدث فيها ويصحح قول المتقدمين فى صحتها ... وكان عارفاً بالطب عِلْماً لا عملاً ولا يحسن العلاج ولا يطوِّل روحه على العليل كثير النزاقة عديم التلطف كارهاً لأطباء زمانه لا يذكر أحداً منهم ولا يُذْكر له إلاَّ ذمَّه وأطلق لسانه فى معايبه ... وكان رحمه الله لنا صديقاً صدوقاً وصاحباً ملاطفاً ، وكان يحدثنى بدقيق أمره وجليله ... وكان دَخَل اليمن واتصل بصاحبها الملك المؤيد داود ، رحمه الله ، وخَدَمه مدة وحصَّل من جهته مالاً طائلاً ، كان منه أصل نعمته ورأس ماليته ، ثم فارقه وعاد إلى مصر ، وكانت كتبه لا تنقطع عنه وصلاته تصل إليه ، وكان يعرض الكتب التى ترد عليه على السلطان فيأمره بقضاء حوائجه . وكانت الكتب تتضمن طلب كتب طبية وعقاقير مصرية ومغربية .... [١] وكانت وفاته بالقاهرة فى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة .

وأقام ابن البرهان مدة بعَدَن ، فحدث العمرى عن بعض العادات الاجتماعية والمآكل ، وبعض أخبار التجار هناك وحل السفن ورحيلها بميناء عدن ، وأن بها سيادات محفوظة بين أبنائها .

٥ – وذكر العمرى بعض أخبار عن دولة الأشراف حدَّثه بها رجل قدم مصر من اليمن مرسلاً من جهة إمامها ، ولم يذكر إسمه [٢] .

ومن هذا نجد أن العمرى لم يدخل اليمن ، غير أن مصادره اتسمت بالدقة والوثوق والمعاصرة . أضاف إليها بعض ملاحظات هامة كذكره لطبيعة العلاقة بين صاحب اليمن وصاحب مصر ، وأن صاحب اليمن يهادن صاحب مصر تمكنه من التسلط عليه . كما أشار إلى طبيعة العلاقة بين الإمام الزيدى والسلطان الرسولى وأنه تارة يكون بينهما عهد وتارة يُنْبذ هذا العهد . ومن الملاحظات الدقيقة التى ذكرها العمرى ، أنه لو استقل مجموع اليمن لمَلِكٍ واحد ، لكبر عمله وعظم قدره فى الممالك [٣] .

---

[١] العمرى : مسالك الأبصار (مخطوطة دار الكتب رقم ٢٥٦٨ تاريخ) ٥ : ٢٦٣ .

[٢] انظر ص ١٦٥ .

[٣] انظر ص ١٥٦ .

وأضاف إلى كلام رواته بعض المعلومات المكملة مما رآه بنفسه . فيذكر فى موضع أنه « رأى علامة والد هذا السلطان القائم بها الآن على توقيع .... » [١] ويقول فى موضع آخر « ورأيت أنا السنجق اليمنى وقد رُفِعَ فى جبل عرفات سنة ٧٣٨ هـ » [٢] . وفى معرض الحديث على ملابس أهل اليمن يحدثنا العمرى عن وحشة وقعت بين الملك المجاهد وبعض أمرائه ، فجاء هذا الأمير إلى مصر وأقام بها وهو على زى أهل اليمن خلا الدلاكس ، حيث كان يشاهد فى تنقلاته فى هذا العصر [٣] .

* * *

وإذا كان العمرى والقلقشندى لم يدخلا اليمن بل اعتمدا على ما جاء به الرواة مع التثبت من صحة أخبارهم قدر الطاقة ، وهو العمل الذى قام به العمرى . فقد وَصَلت إلينا رواية معاصرة أخرى وصف لنا فيها صاحبها أحوال بلاد اليمن وما عليه سلطانها وخواصه من نظم وتراتيب . تلك هى رحلة الرحالة المغربى الشهير أبى عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطَنْجى المعروف بابن بَطُّوطة (٧٠٣ - ٧٧٩ هـ) وترجع أهمية المعلومات التى جاء بها ابن بطوطة إلى أنه لم يكن نقَّالة اعتمد على كتب الغير ، بل كان رحَّالة انتظم محيط أسفاره عدداً كبيرا من الأقطار .

وقد زار ابن بطوطة اليمن أثناء المرحلة الثالثة من رحلته التى حوت زيارته للبحر الأحمر وعدن وزَيْلَع ومقديشو وكلوا ثم عاد عن طريق عُمَان والخليج الفارسى وحج سنة ٧٣٢ هـ .

وكانت زيارته لليمن وعدن وظَفَار نحو سنة ٧٣١ هـ فى عهد الملك المجاهد على . وانفرد ابن بطوطة بوصف أشياء كثيرة عن طريق الملاحظة المباشرة ، لم ترد عند العمرى ، لذلك أرى ضرورة ذكرها لما فيها من نفع واستكمالا للموضوع .

---

[١] انظر ص ١٥٣ .

[٢] انظر ص ١٥٩ .

[٣] انظر ص ١٥٧ .

فيذكر ابن بطوطة أن السلطان يجلس لعامة الناس يوم الخميس [١] . وقد شرف هو بالمثول فى حضرته ، وأن كيفية السلام عليه « أن يمس الإنسان الأرض بسبابته ، ثم يرفعها إلى رأسه ويقول أدام الله عزك » [٢] . وترتيب قعود ملك اليمن « أنه يجلس فوق دكان مفروشة مزينة بثياب الحرير ، وعلى يمينه ويساره أهل السلاح ، ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ، ويليهم أصحاب القسى ، وبين يديه فى الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السر ، وأمير جاندار على رأسه ، والشاويشية – وهم من الجنادرة – وقوف على بعد . فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة : باسم الله . فإذا قام فعلوا مثل ذلك . فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده . فإذا استوى قاعداً دخل كل من عادته أن يُسَلِّم عليه ، فسلم ووقف حيث رُسِمَ له فى الميمنة أو الميسرة ، لا يتعدى أحد موضعه ، ولا يقعد إلَّا من أمر بالقعود ، يقول السلطان لأمير جاندار : مُرْ فلانا يقعد ، فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلا ، ويقعد على بساط هنالك بين أيدى القائمين فى الميمنة والميسرة . ثم يؤتى بالطعام ، وهو طعامان ، طعام العامة ، وطعام الخاصة . فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضى القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف .

وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد . ومجلس كل إنسان للطعام مُعَيَّن لا يتعداه ولا يزحم أحد منهم أحداً .

وعلى مثل هذا الترتيب سواء ، ترتيب ملك الهند فى طعامه ، فلا أعلم أسلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند ؟ وأقمت فى ضيافة سلطان اليمن أياماً وأحسن إلىَّ وأركبنى » [٣] .

ومن العادات الاجتماعية الطريفة التى ذكرها ابن بطوطة ، تعجبه من نساء مدينة زَبيد باليمن و « أن للغريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا (أى المغرب) . فإذا

---

[١] ابن بطوطة : الرحلة ١ : ١٩٣ .
[٢] نفس المصدر : ١٩٣ .
[٣] نفس المصدر ١ : ١٩٣ – ١٩٤ .

أراد السفر خرجت معه وودَّعته وإن كان بينهما ولد فهى تكفله ، وتقوم بما يجب له ، إلى أن يرجع أبوه . ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كُسْوة ولا سواها . وإذا كان مقيماً ، فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة . لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبداً . ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه ، على أن تخرج من بلدها لم تفعل » [١] .

* * *

القَلْقَشَنْدى ومَوْسُوعَة العُمَرى

يُعَدُّ القَلْقَشَنْدى ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على الفَزَارى المتوفى سنة ٨٢١ هـ مؤلِّف آخر موسوعة كبرى لعصر سلاطين المماليك [٢] . وكما يتَّضح من عنوان هذه الموسوعة « صُبْح الأعْشى فى صناعة الإنشا » ، فإن موضوعها الرئيسى هو الكتابة الديوانية . وبدأ القلقشندى تصنيف هذا الكتاب الضخم فور التحاقه بالعمل بديوان الإنشاء فى مصر سنة ٧٩١ هـ [٣] ، وانتهى من تأليفه فى شَوَّال سنة ٨١٤ هـ [٤] ، ولكنه ظلّ يزيد عليه إلى حين وفاته فى سنة ٨٢١ هـ .

وينقسم « صبح الأعشى » من حيث التبويب إلى مقدمة ، وعشر مقالات ، وخاتمة . حَلَّل القلقشندى فى المقدمة مهنة الكتابة وفضلها فى المجتمع البشرى . وفى المقالة الأُولى من الكتاب (الأجزاء من الأول إلى الثالث) عالج المؤلف الكلام فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من المعلومات المتعلقة بالخط واللغة والنحو والبلاغة ومختلف العلوم ذات الفائدة العلمية بالنسبة له . وأفرد المقالة

---

(١) نفس المصدر ١ : ١٩١ .

(٢) راجع فى ترجمته : أنباء الغمر بأنباء العمر ٣ : ١٧٨ - ١٧٩ ، السخاوى : الضوْ اللامع ٢ : ٨ ، عبد اللطيف حمزة : القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى - عرض وتحليل (مجموعة أعلام العرب ١٢) ، القاهرة ١٩٦٢ ، نخبة من الأساتذة : أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى ، القاهرة ١٩٧٣ ، كراتشكوفسكى : المرجع السابق ١ : ٤١٥ - ٤٢١ ، Brock., C., GAL II, 166 - 67; S II, 164 - 65; Bosworth, C.E., EI. art. « al - Kalkashandi », IV, pp. 581 - 33

(٣) القلقشندى : صبح ١ : ٨ .

(٤) نفسه ١٤ : ٤٠٤ .

الثانية (الأجزاء من الثالث إلى الخامس) للحديث عن الجغرافيا وتاريخ ممالك الإسلام وهى تمثل النوع الثانى الخاص بذكر الممالك من القسم الأول فى موسوعة العمرى « مَسَالك الأبصار » .
أما المقالة الثالثة (الجزآن الخامس والسادس) فتعالج المسائل العامة التى تشترك فيها كل المكاتبات والولايات فيعرض للناحية الشكلية المتعلقة بالورق والكتابة ويبحث فى الأسماء والكنى والألقاب ومواضع ذكرها واستعمال الصِّيغ المختلفة . وتناول فى المقالة الرابعة (الأجزاء من السادس إلى التاسع) المكاتبات وأنواعها ومصطلحها مع إيراد عدد كبير من الوثائق الرسمية برمتها ، وتمثل هذه الوثائق – سواء فى هذا القسم أو فى الأقسام الأخرى – عنصراً جوهرياً فى أهمية هذا المصنف . أما المقالة الخامسة (الأجزاء من التاسع إلى الثانى عشر) فتقدم لنا بعض المعلومات النظرية ونماذج للولايات والعهود والبعثات وطريقة تفويضها ، وتمثل هذه المقالة مكانة هامة فى هذا الكتاب وذلك لأنها تلقى ضوءاً على النظام الإدارى المُعَقّد الذى ساد فى عهد المماليك ، والنماذج التى يسوقها فى هذه المقالة حافلة بشكل غير معهود . أما بقية المقالات فإنها صغيرة الحجم بمقارنتها بالسابقات عليها فالمقالة السادسة (الجزء الثالث عشر) تقدّم صوراً من المكاتبات مما لا يخضع للتصنيف ، كما تحلّل المقالة السابعة (من نفس ذلك الجزء) الوثائق المتعلِّقة بالإقطاعات . أما المقالة الثامنة (فى نفس الجزء أيضاً) فتبحث فى الأَيْمَان وصُوَر الأقسام المختلفة واليمين ، بينما تتحدث التاسعة (الجزآن الثالث عشر والرابع عشر) عن عقود الهُدْنَة بين المسلمين والكفَّار ، وتتناول المقالة العاشرة والأخيرة (الجزء الرابع عشر) فنوناً من الكتابة تختلف باختلاف الظروف الداعية لها .

أما خاتمة الكتاب فتحتوى على أبواب تبحث أساساً فى وسائل النقل والمواصلات .

وكما ذكر كراتشكوفسكى فإنه ليس من العسير أن نُبْصر فى هذا التبويب اقتفاء القلقشندى لأثر كتاب « التعريف » للعُمَرى حتى إنه طبّق فى بعض الأحيان ترتيبه وتبويبه بحذافيره [1] .

---

[1] كراتشكوفسكى : المرجع السابق ١ : ٤١٧ – ٤١٨ .

* * *

وتعتمد موسوعة القلقشندى اعتماداً كبيراً على مُصَنَّفى العُمَرِى « التعريف بالمصطلح الشريف » و « مسالك الأبصار » . وإذا كان القلقشندى قد اقتفى أثر كتاب « التعريف » من حيث الترتيب والتوبيب فإن ذلك راجع للمكانة الكبيرة لهذا الكتاب عند القلقشندى فهو يصفه بأنه « الدستور » وبأنه « أَنْفَس الكتب المصَنَّفة فى هذا الباب عقداً » (١) ولكنه عاب عليه « أنه أهْمَل من مَقَاصِد المُصْطَلح أموراً لا يسوغ تركها .... كالبَطَائق والمُلَطَّفات والمُطْلَقات » (٢) .

أما بالنسبة لكتاب « المسالك » فقد تَمَيَّز صبح الأعشى عليه بدقة التبويب ووضوح العرض . ورغم اعتماد القلقشندى اعتماداً كلِّياً على « المسالك » فى المقالة الثانية حتى إنه يحتل المكانة الأولى لديه فإنه لم يعتمد على العمرى وحده فى جمع مادته الجغرافية ، بل نجده يرجع إلى الكثير من كتب الجغرافيا المتقدمة وخاصة مؤلفات : ابن خرداذبه وابن حوقل والمسعودى والبكرى وياقوت وابن سعيد والحِمْيَرى (٣) . وهو أمرٌ يفتقده مصنف العمرى .

ولأن مصنَّف القلقشندى يمثِّل مصنفاً نقلياً فقد ضَمّ بين دفّتيه مادة ضخمة جعلت منه مصنفاً فريداً فى نوعه ، خاصة بالنسبة للمقالة الرابعة التى اشتملت على نماذج للمكاتبات الدبلوماسية وقرارات تَعْيين الممثلين الرسميين ، ولم يكتف القلقشندى بإيرادها فى صِيَغها الكتابية الخاصة بل أورد نماذج من الوثائق الأصلية المحفوظة فى ديوان الإنشاء ، مما جعل كتابه مصدراً أساسياً بالنسبة للتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية للعالم الإسلامى والأقطار المتصلة به طوال أربعة قرون من القرن الخامس وحتى أوائل القرن التاسع للهجرة .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ١ : ٧ .

(٢) نفسه ١ : ٨ .

(٣) كراتشكوفسكى : المرجع السابق ١ : ٤٢٠ .

ويمتاز القلقشندى على العمرى ، على امتداد أجزاء كتابه ، بكثرة مصادره وتنوعها ، وباتباعه طريقة علمية بنسبة كل نقل يورده إلى مصدره .

وإذا كان العمرى قد حصر كتابه فى الحديث على العالم المعاصر له فقط ، فقد حرص القلقشندى على تناول تطور الكتابة الديوانية فى مصر الإسلامية ، لذلك فقد عرض لنا فى موسوعته تاريخاً يستند على المصادر الأساسية ومدعماً بالوثائق الرسمية لتاريخ مصر فى عصر الفاطميين والأيوبيين . فعن طريقه أمكن استكمال نقص مخطوطة « مَوَاد البيان » لعلى بن خَلَف الذى تناول فيها مؤلفها الكتابة الديوانية فى مصر فى العصر الفاطمى الأول [١] ، كما كتب المرحوم الدكتور جمال الدين الشيّال دراسته القَيِّمة عَن « مجموعة الوثائق الفاطمية » [٢] بالإضافة إلى الدراسات المتفرِّقة التى اعتمدت على صور الوثائق التى أوردها القلقشندى وخاصة تلك التى قام بها ماريوس كانار وصمويل شتيرن .

وأمام طول هذا الكتاب وغزارة المادة التى احتوى عليها فقد رأى القلقشندى أن يقوم بنفسه باختصار مُؤَلَّفه فى مجلد واحد سمَّاه « ضَوْء الصُّبْح المُسْفر وجَنْى الدَوح المُثْمر » طبع فى مصر سنة ١٩٠٦ .

* * *

كان نصيب موسوعة القلقشندى من الاهتمام أوفر وأحسن حالاً من موسوعات عصر المماليك الأخرى . فبفضل جهود أحمد زكى باشا أيضاً الذى وفّر نسخة كاملة من هذا الكتاب

---

(١) انظر ، Saleh, Abd al-Hamid, « Une source de Qalqashandi Mawad al-Bayan et son auteur ‘Ali b. Halaf», Arabica (1973) pp.192-200; Bonebakker, S.A., « A fatimid manual for secretaries», in Annali del Istituto Orientale de Napoli 37 (1977), pp. 295-337 .

(٢) جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية (مط . الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٨) .

لدار الكتب المصرية أُخرجت لنا ، فى باكورة منشوراتها ، نَشْرَة مضبوطة صحيحة لصبح الأعشى منذ نحو نصف قرن ، مما أتاح للعلماء والباحثين فرصة التوفر على دراستها والاستفادة منها . وظهرت أول دراسة جادة لهذا المصنّف الهام فى سنة ١٩٢٨ وهى دراسة المستشرق الألمانى بيوركمان التى عالج فيها تطور النثر الدواوينى فى مصر الإسلامية [١] .

وبمناسبة مرور ٥٥٠ عاماً على وفاة القلقشندى عقدت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ندوة علمية فى القاهرة نشرت أبحاثها فى مجلد بعنوان « أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى » ، القاهرة ١٩٧٣ .

كذلك قام الأستاذ محمد قنديل البَقْلى بوضع فهارس متنوعة للكتاب بأجزائه الأربع عشرة صدرت فى القاهرة سنة ١٩٧٢ ولكنها كانت فى حاجة إلى مزيد من العناية والتدقيق ، ثم أصدر فى عام ١٩٨٤ دراسة مفيدة عن « مصطلحات كتاب صبح الأعشى » .

* * *

ويرتبط بمُصَنَّفى العُمَرى والقلقشندى كتاب آخر ألّفه مؤلف معاصر للسلطان بَرْسِبَاى (٨٢٥ - ٨٤١ هـ) [٢] هو الخَالِدِى وعنوان مؤلفه المحفوظ فى المكتبة الأهلية فى باريس برقم Or. 1573 هو « المَقْصَد الرَّفيع المَنْشَا الهَادِى لِدِيَوان الإِنْشَا » وهو يتبع بدقة تبويب القلقشندى وخاصة فى المقالة الثانية التى اعتمد فيها بدوره على العُمَرى .

---

[١] Björkmann, W., Beiträge zur Geschichte der Staatskanzlei im islamischen Agypten, Hamburg 1928 (Abhandlungen aus dem Gebiete der Auslandskunde, 38) .

[٢] محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (القرن التاسع الهجرى) ، القاهرة ١٩٤٩ ، ٢٤ .

٢ - نُقُول المَتأخِّرين مِنَ الكِتَاب

مثَّل الباب السادس من النوع الثانى من القسم الأول من موسوعة العمرى « مَسَالِك الأَبْصَار » مصدراً كبير الأهمية للمؤرخين المصريين المتأخرين .

كان أول هؤلاء المؤرخين هو القلقشندى وقد عالجت منذ قليل الصلة بين كتابه « صبح الأعشى » ومصنف العُمَرى .

والمؤرخ الثانى هو المؤرخ المصرى الشهير تقى الدين أحمد بن على المَقْرِيزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، فكما سبق وأن أوضح كازانوفا ، فإن العُمَرى هو المؤرخ الثانى بعد ابن عبد الظاهر الذى نقل عنه المقريزى أكثر معلوماته عن عصور سلاطين المماليك السابقة لزمنه ، فهو الأصل الذى نقل عنه المقريزى أكثر عباراته وضوحاً فى وصف القلعة [1] . ونقل عنه كذلك أكثر معلوماته عن خِلَع المماليك وأزيائهم حتى عصر الناصر محمد بن قلاوون . وكما فعل المقريزى فى مواضع كثيرة من كتابه ، وكما أشرت أنا فى أكثر من موضع فيما كتبته عن مصادر المقريزى ، فلم يُشر المقريزى البتة إلى العمرى فى صفحات كتابه « الخِطَط » رغم أنه لم يتورَّع أن ينسخ وصفه للقلعة وللخِلَع كلمة كلمة . فقارن ذلك بما فعله القلقشندى الذى تميَّز كتابه بالأمانة فى النقل عن العُمَرى بحيث أمكن لنا التعرف على ما ذكره العمرى وما أضافه القلقشندى إلى ما نقله نتيجة المشاهدة وما أضيف بالفعل من عمائر أو تغيَّر من رسوم منذ عصر الناصر محمد بن قلاوون الذى دَوَّن فيه العمرى وَصْفَه .

أما المؤرخ الثالث فهو الحافظ المؤرخ جلال الدين السُّيُوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ . الذى اعتمد على كتاب « المسالك » للعمرى كثيراً فى كتابه « حُسْن المُحَاضَرَة فى تاريخ مِصْر

---

[1] Casanova, P., Histoire et description de la Citadelle du Caire, MMAF VI (1891), p. 667 .

والقَاهِرة » ونقل عنه كل معلوماته عن مملكة مصر فى زمن المماليك [١] وأسند كل خبر أخذه عن العمرى إليه ، والغريب أن السيوطى وهو يكتب فى أواخر القرن التاسع الهجرى لا يشير فى كتابه إلى مصنف القلقشندى « صبح الأعشى » وهو الشئ نفسه عند المقريزى فى « الخِطَط » .

وسيتضح للقارئ الكريم من الهوامش حجم استفادة كل من القلقشندى والمقريزى والسيوطى من مُصنَّف العمرى .

* * *

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٣ .

٣ – مؤلِّف الكِتَاب

مؤلِّف هذا الكتاب هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فَضْل الله بن المُجَلّى بن دَعْجان القُرَشى العَدَوى الدِّمَشْقى العُمَرى نسبة إلى عُمَر بن الخطّاب [١] .

حياته

ولد العُمَرى بدمشق ثالث شوّال سنة سبعمائة هجرية لأسرة تولّت رئاسة ديوان الإنشاء بمصر والشام مدة قرن من الزمان تقريباً . وقد استقر أجدادُه الأقربون فى البُرُلُّس بمصر السُّفْلى ، ولكنهم كانوا يشعرون على الدوام بأنهم أكثر ارتباطاً بدمشق منهم بمصر فاحتفظوا باسم الدمشقى كنسبة أساسية لهم .

ورغم أن العُمَرى ولد بدمشق إلّا أنه شبَّ وتعلّم بمصر ، وربطته تقاليد أسرته بعمل الدواوين . فعندما ولى والده كتابة السر بدمشق كان أحمد أحد موظفى ديوان الإنشاء ، ولما آنتقل والده لكتابة السر بمصر صار أحمد هو الذى يقرأ البريد على الملك الناصر محمد بن قلاوون [٢] .

---

[١] انظر فى ترجمته ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٨ : ٢٥٢ – ٢٧٠ (وهذه الترجمة هى التى اعتمد عليها المؤرخون المتأخرون) ، ابن شاكر : فوات الوفيات ١ : ١٥٧ – ١٦١ ، الذهبى والحسينى : ذيول العبر ٢٧٥ ، المقريزى : السلوك ٣/٢ : ٤٦٤ – ٤٦٦ و ٤٨٧ و ٧٨٧ و ٧٩٢ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ١ : ٣٥٢ – ٣٥٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١٠ : ٢٣٤ – ٢٣٥ والمنهل الصافى ٢ : ٢٦١ – ٢٦٦ والدليل الشافى ١ : ٩٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٦ : ١٦٠ ، اللكنوى : الفوائد البهية ١٨ ، الزركلى : الأعلام ١ : ٢٦٨ ، كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١ : ٤١٠ – ٤١٥ ، Brock., C., GAL II, 177-178 .

وراجع أيضا ، Hartmann, R., « Politische Geographie des Mamlukenreichs », ZDMG 70 (1916), pp. 1-4; Salibi, K.S., EI., art. « Ibn Fadlillah al-‘ Umari », III, pp. 781-782; Little, D., An Introduction to Mamluk historiography, Wiesbaden 1970, p. 40; Blachère, R., « Quelques reflexions sur les formes de l’Encyclopédisme en Egypte et en Syrie du VIII /XIV siècle à la fin du IX/XV siècle », BEO XXIII (1970), pp. 14-17 .

[٢] أبو المحاسن : المنهل الصافى ٢ : ٢٦٤ والنجوم ١٠ : ٢٣٥ .

وتتَلْمَذ العُمَرى لمشيخة فاضلة من علماء عصره ، فقرأ العربية أولاً على الشيخ كمال الدين بن قاضى شُهْبَة ، ثم على قاضى القُضَاة شمس الدين محمد بن مُسْلم المِزِّى . وأخذ الفقه عن قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن المَجْد عبد الله ، وعن الشيخ برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمٰن الفَزَارى المعروف بابن الفِرْكاح . وقرأ الأحكام الصغرى على الشيخ تقى الدين أحمد ابن عبد الحليم بن تيمية ، والعَرُوض على الشيخ شمس الدين بن الصَّائغ وعلى الشيخ كمال الدين ابن الزَّمْلَكانى ، وتدرَّب فى النظم على الشيخ علاء الدين الوَدَاعى وقرأ عليه جُمْلة من دواوين العرب ، وأخذ المَعَانى والبيان عن الشيخ شهاب الدين أبى الثناء محمود . وسمع الحديث عن جماعة كست الوزراء والحجّار وابن أبى الفتح . أما اللغة فأخذها عن الشيخ أثير الدين بن حيّان سمع عليه « فَصيح ثعلب » و « الأشعار الستة » و « مَقْصورة ابن دُرَيْد » [1] .

وأصدق شىء يدل على مكانة العمرى وسَبْقه فى ميدان الكتابة الديوانية أن نورد شهادة بعض معاصريه عنه . فمن ذلك ما قاله الصَّفَدِىُّ « .... لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يُطْلَق على سِوَاه .... ولا أعتقد أن بينه وبين القاضى الفاضل من جاء مثله .... رَزَقه الله أربعة أشياء لم أرها اجتمعت فى غيره وهى : « الحَافِظَة » طالما طالع شيئاً إلَّا وكان مستحضراً لأكثره ، و « الذَّاكِرَة » التى إذا أراد ذكرى شىء من زمن متقدم كان ذلك حاضراً كأنه إنما مرّ به بالأمس ، و « الذَّكاء » الذى تسلَّط به على ما أراد ، و « حُسْن القَرِيحة » فى النظم والنثر .... وهو أحد الأدباء الكَمَلَة الذين رأيتهم ، وأعنى بالكَمَلَة الذين يقومون بالأدب علماً وعملاً فى النَّظْم والنَثْر ، ومعرفة بتراجم أهل عصره ومن تقدَّمهم على اختلاف طبقات الناس ، وبخطوط الأفاضل وأشياخ الكتابة .... ولم أر من يعرف تواريخ ملوك المغول من لدن جنكزخان وهَلُم جرّا معرفته ، وكذلك ملوك الهند والأتراك . وأما معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم ومواقع البلدان وخواصها فإنه فيها إمام وقته ، وكذلك معرفة الاسطرلاب وحل التقويم وصور الكواكب .

---

[1] الصفدى : الوافى ٨ : ٢٥٤ - ٢٥٥ ، ابن شاكر : فوات ١ : ١٥٩ - ١٦٠ ، ابن حجر : الدرر ١ : ٣٥٢ ، أبو المحاسن : المنهل ٢ : ٢٦٤ .

وقد أذن له العلامة الشيخ شمس الدين الأصبهانى فى الإفتاء على مذهب الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، فهو حينئذ أكمل الكملة الذين رأيتهم » [١] .

وقال عنه القلقشندى : « الفاضل الألمعى ، والمِصْقَع اللوزعى ، ملك الكتابة وإمامها ، وسلطان البلاغة ومالك زمامها » [٢] .

وتقلَّد العُمَرى جملة وظائف هامة ، فشَغَل لفترة قصيرة وظيفة قاض بمصر ، ثم كتب فى الإنشاء عندما ولى والده القاضى محيى الدين كتابة سر دمشق سنة ٧٢٧ هـ ثم فى سنة ٧٣٣ هـ ، ثم ساءت علاقة القاضى محيى الدين بالملك الناصر محمد بن قلاوون فعَزَله وألزمه داره إلى أن شَفَع له وولاّه كتابة سر مصر عِوَضا عن علاء الدين ابن الأثير ، فلما ولى كتابة السر صار ولده أحمد هو الذى يقرأ البريد على الملك الناصر وينفذ المهمات [٣] .

بيد أن العمرى كان رجلاً عنيداً مكابراً الأمر الذى جرّ عليه مصائب عديدة منها غَضَب السلطان عليه فبعد أن ولى كتابة سر دمشق فى المحرم سنة ٧٤١ هـ عزله السلطان لأمور بَدَرت منه فى ثالث صفر سنة ٧٤٣ ورَسَم عليه [٤] أربعة أشهر وأمر بإحضاره إلى مصر لكثرة الشكايات منه ، ولكن السلطان وافق على إعادته إلى دمشق بعد شفاعة أخيه علاء الدين له [٥] .

وهكذا أمضى ابن فضل الله العمرى الأعوام الأخيرة من حياته بدمشق بدون عمل أشبه بالمغضوب عليه . وفى السنة التى توفى فيها فكّر فى أداء فريضة الحج فخرج من دمشق مع زوجته متوجهاً إلى القُدْس فى طريقه إلى مكة ، فماتت زوجته هناك فدفنها [٦] ورجع إلى دمشق

---

(١) الصفدى : الوافى ٨ : ٢٥٣ - ٢٥٤ وعنه ابن شاكر : الفوات ١ : ١٥٨ - ١٥٩ .

(٢) القلقشندى : صبح ١ : ٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ١٠ : ٢٣٥ والمنهل ٢ : ٢٦٤ .

(٤) أى حَدَّد إقامته .

(٥) المقريزى : السلوك ٢ : ٤٦٤ - ٤٦٦ و ٤٨٧ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ١ : ٣٥٢ - ٣٥٤ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٤٨٧ - ٤٨٨ و الشجاعى : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى [illegible]

(٦) الصفدى : الوافى ٨ : ٢٦٨ ، ابن حجر : الدرر ١ : ٣٥٤ .

حيث أصابته حُمَّى رِبْع فتوفى يوم عَرَفة سنة ٧٤٩ هـ [١] متأثراً بالفناء الكبير الذى ذهب فيه عدد كبير من أهل حَوْض البحر المتوسط [٢] .

مُؤَلَّفاته

وضع العُمَرى فى حياته القصيرة (٧٠٠ - ٧٤٩ هـ) عدداً من الكتب تفاوتت فى الحجم والموضوع .

١ - ويأتى فى مقدمة مؤلفاته موسوعته الضخمة « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ، التى تحدَّثت عنها منذ قليل .

٢ - ووضع العمرى كتاباً آخر صغير الحجم بالنسبة لموسوعته الكبيرة عنوانه « التَّعْريف بالمُصْطَلح الشَّريف » أراد أن يعرض فيه كل ما يُحْتَاج إليه فى عمل الدواوين . وألَّفه فى الفترة التالية لعام ٧٤١ هـ - أى بعد أن أنهى كتابة الباب الخاص بمصر والشام والحجاز فى موسوعته الكبيرة ، وبعد أن تمتع بخبرة واسعة فى ديوان الإنشاء .

وقد اكتسب هذا الكتاب مكانة خاصة لدى العاملين بديوان الإنشاء المملوكى فأطلق عليه القلقشندى « الدستور » ووصفه بأنه « أَنْفَس الكتب المُصَنَّفة فى هذا الباب » [٣] .

وطُبع هذا الكتاب فى القاهرة سنة ١٣١٢ هـ طبعة سقيمة ، نفدت منذ زمن وأصبحت الحاجة ماسة إلى إعادة نشره اعتماداً على مخطوطات جديدة ومقابلاً على « صبح الأعشى »

---

(١) نفسه ٨ : ٢٦٨ ، المقريزى : السلوك ٢ : ٧٩٢ ، ابن حجر : الدرر ١ : ٣٥٤ .

(٢) أقام هذا الوباء يدور على أهل الأرض - كما يقول المقريزى - مدة خمس عشرة سنة (السلوك ٢ : ٧٨٧) وقد أطلق عليه « الفناء العظيم » أو « الوباء الأسود » . (المقريزى : السلوك ٢ : ٧٥٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ و ٧٧٦ و ٧٧٨ و ٧٧٩ و ٧٨٠ والخطط ١ : ٣٦١ و ٣٦٥ - وانظر مقال فييت Wiet, G., « La grande peste noire en Syrie et en Egypte », dans Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal, Paris 1962, I, pp. 367-384 وهو ترجمة لما جاء بخصوص هذا الوباء من نصوص عند المقريزى : السلوك ٢ : ٧٧٢ - ٧٧٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٤ : ٢٢٥ - ٢٣٠ ، أبو المحاسن : النجوم ١٠ : ١٩٥ - ٢١١ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٥٢٧ - ٥٣٣ .

(٣) القلقشندى : صبح ١ : ٧ .

Michael Dols, The Black Death in the Middle East, [illegible] 1977.

و « المقصد الرفيع المنشا » اللذين اعتمدا عليه اعتماداً كلّياً ، خاصة بعد أن توفّر على درسه المستشرق الألمانى هارتمان [١] والمستشرق الفرنسى جودفرى دى مومبين [٢] .

وتوجد مخطوطات هذا الكتاب فى المكتبات الآتية :

دار الكتب المصرية برقم ٥٧ أدب خ . ٧٦٤ هـ ، و ٢١٣٤ أدب خ . ٧٩٣ هـ ، Leiden Or. 352 خ . ٨٣٧ هـ (مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ١٠٠١ تاريخ) ، آيا صوفيا ٣٨٢٣ ، Leipzig 659 ، Berlin 8639 ، Esc. 1639 نسخة خزائنية من القرن التاسع ، Esc_2. 1640 خ ٨٦٩ هـ (والنسختان مصورتان فى معهد المخطوطات بالقاهرة فيما لم يفهرس) ، Gotha 1657 .

وقام بتنقيح هذا الكتاب والزيادة عليه أحد أفراد أسرة المُحِبِّى يُعرف بالمقر التَقَوى بن نَاظِر الجيش وسمّى كتابه « تثْقيف التعريف بالمُصْطَلح الشريف » قال القلقشندى : أنه أورد فيه ما أهمله العمرى فى التعريف ، وذكر ما فاته من مصطلح ما يكتب أو حَدَث بعد تأليفه ، ومع ذلك فقد ترك مما تضمنه التعريف مقاصد لا غنى للكاتب عنها حتى أصبح لا يستغنى بأحدهما عن الآخر [٣] .

وتوجد مخطوطات هذا الكتاب فى المكتبات الآتية :

Golha 2126 ، Ambro 161 ، Bodl.(2) 363 ، Esc_2. 550 (مصورة بمعهد المخطوطات فى القاهرة فيما لم يفهرس) .

وحقّق هذا الكتاب الأستاذ عبد الرحمن أمين صادق وحصل به على درجة الماجستير من جامعة الأزهر سنة ١٩٧٩ ، كما حقّقه المستشرق البولندى رودلف فَسَلى وهو الآن تحت الطبع لدى المعهد الفرنسى بالقاهرة .

---

[١] Hartmann, R., « Politische Geographie des Mamlukenreichs », ZDMG 70 (1916), pp. 1-40; 477-514
وهو تحليل للمقالتين الخامسة والسادسة من الكتاب .

[٢] Demombynes, G., la Syrie à l'époque des Mamelouks, Paris 1923 .

[٣] القلقشندى : صبح ١ : ٨ .

٣ – النُزْهَة الكافية فى معرفة الكتابة والقافية :

منه نسخة فى Leipzig 493 .

٤ – دَمْعة الباكى ويقْظة الشاكى . (الوافى ٨ : ٢٥٥ ، الفوات ١ : ١٦٠ ، المنهل الصافى ٢ : ٢٦٥ ، النجوم الزاهرة ١٠ : ٢٣٥) .

منه نسخة فى مكتبة تشستربتى فى إيرلندا بخط العُمَرى جاء فى آخرها « سمعه من لفظى المولى الشيخ الحافظ .... أبو الخير سعيد بن عبد الله الدهلى الحنبلى أطال الله بقاءه ، والشيخ الصالح برهان الدين إبراهيم بن كمال الدين محمد بن نصر الأنصارى بدارى بسفح قاسيون فى يوم السبت سابع صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة .... وكتبها أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى عفا الله عنه » .

(راجع ، Rice, D.S., « A miniature in an autograph of Shihab al-Din ibn Fadlallah al-'Umari », BSOAS XIII (1949-50), pp. 856-867) .

٥ – ذَهَبِيَّة العَصْر .

ذكر فيه شعراء المشرق والمغرب الإسلامى من أهل المئة الثامنة على نهج يتيمة الدهر للثعالبى .

منه نسخة بخط قديم جَيّد فى ملك السيد على العَسَلى صاحب المكتبة العتيقة بتونس . آرانيها .

٦ – صَبَابة المُشْتَاق . (الوافى ٨ : ٢٥٥ ، الفوات ١ : ١٦٠ ، المنهل ٢ : ٢٦٥ ، النجوم ١٠ : ٢٣٥) .

مجلد فى المدائح النبوية .

٧ – الشتويات .

مجموعة رسائل إخوانية . منها نسخة فى ليدن برقم Leiden Or. 351 ، ومكتبة جامعة استامبول برقم ١١٤٤ (مصورة بمعهدة المخطوطات العربية برقم ٤٩٨ أدب) .

٨ – الدَّعوة المستجابة .

٩ - نَفْحَة الروض .

١٠ - سَفْرة السفرة .

(الوافى ٨ : ٢٥٥ ، الفوات ١ : ١٦٠ ، المنهل ٢ : ٢٦٥ ، النجوم ١٠ : ٢٣٥) .

١١ - ودَفَعه أصل نسبته إلى عمر بن الخطَّاب إلى تصنيف كتابه « فَوَاضل السمر فى فضائل آل عُمَر » فى أربع مجلدات .

(الوافى ٨ : ٢٥٥ ، الفوات ١ : ٢٦٠ ، الدرر الكامنة ١ : ٣٥٤ ، المنهل ٢ : ٢٦٥ ، النجوم ١٠ : ٢٣٥) .

١٢ - مختصر قلائد العِقْيان لابن خاقان .

منه نسخة فى المكتب التيمورية (مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ٣ (١٩٢٣) ٣٤٣) .

مخطوطة الكتاب ومنهج التحقيق

فى مقدمته التى صَدَّر بها ترجمته للأبواب السبعة الأخيرة من القسم الخاص بالممالك من موسوعة العُمَرى ، أشار جودفرى دى مومبين إلى تاريخ الاهتمام بهذا الكتاب [١] . فذكر أن أول من أشار إليه كان العالم Deguignes فى سنة ١٧٥٨ م [٢] ، ثم ترجم كاترمير فى سنة ١٨٣٨ الأبواب المتعلِّقة بآسيا من قسم الممالك وهى الأبواب من الأول إلى أثناء الخامس [٣] ، ثم استعان كاترمير بما جاء فى الباب السادس فى تعليقاته الغنية على الأجزاء الأولى من كتاب « السلوك » للمقريزى [٤] .

كما روجعت مخطوطات المسالك بفائدة كبيرة من جانب عدد كبير من العلماء وعلى الأخص آمارى وفان برشم .

والمخطوطات التى وصلت إلينا من هذا الكتاب ليست كثيرة وقد أحصاها هوروفيتس فى سنة ١٩٠٧ وقدم عرضاً تحليليا لمخطوطة آيا صوفيا [٥] .

ويكفى ، كما يقول دى مومبين ، أن نستكمل العرض الذى قدمه هوروفيتس بما عند بروكلمان [٦] مع إضافة نسخة المكتبة الصادقية فى تونس ومخطوطة أحمد الثالث التى اكتشفها أحمد زكى باشا وأهدى منها مصورة إلى دار الكتب المصرية .

---

(١) Gaudefroy- Demombynes, L'Afrique moins l'Egypte, I-Masalik al-absar fi mamalik al-amsar par Ibn Fadl Allah al-Omari, BGA II, Paris 1927, pp. I-VI .

(٢) Deguignes dans Journal des savants (1758) .

(٣) Quatremère, M., «Notice de l'ouvrage qui a pour titre Mesalek al-Absar fi Memalek al-Amsars Manuscrit n° (583) 2325 » dans Notices et Extraits des manuscrits de la Bibliothèque du Roi et autres Bibliothèques 13 (1838) pp. 151-384 .

(٤) Quatremère, M., Histoire des Sultans Mamluks d'Egypte, (trad. par), 1-3, Paris 1837-1842 .

(٥) Horowitz, J., MSOS 10 (Berlin 1907), 2 partie, p. 43 et s. .

(٦) Brock., C., GAL II, 177-178; S II, 175 .

المَخْطُوطات

نبدأ أولاً بذكر نسخ الكتاب الموجودة فى مكتبات تركيا ففى مكتبة آيا صوفيا باستامبول نسخة فى ٢٤ مجلداً تحمل الأرقام من ٣٤١٥ إلى ٣٤٣٩ وهى نسخة ملفَّقة من نسختين مختلفتين تنقص الجزء الأول . وهذه النسخة هى التى عرضها هوروفيتس فى مقاله السابق الإشارة إليه .

وفى سنة ١٩١٠ قادت الصدفة أحمد زكى باشا ، رحمه الله ، إلى العثور على نسخة من الكتاب فى مكتبة أحمد الثالث طوب قبو سراى باستامبول حَمَلت بعد ذلك الرقم ٢٧٩٧ وهى نسخة خزائنية كتبت برسم خزانة السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى ، وقد أهدى أحمد زكى باشا صورة من هذه النسخة إلى دار الكتب المصرية كانت وما تزال النسخة الكاملة الوحيدة لهذا الكتاب .

وتوجد أجزاء متفرِّقة من الكتاب فى مكتبات استامبول الأخرى فهناك جزء يحمل الرقم ٢٠٣٧ بمكتبه لاله لى . وجزء فيه الكلام على الحيوان والمعادن والنبات كتب بخط نسخ جميل وموضَّحة برسوم وصور متقنة للحيوانات والأشخاص والنبات فى مكتبة روان كشك تحمل الرقم ١٦٦٨ (مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٢٥ معارف عامة) .

وفى باريس يوجد مجلد يحوى وصف أقاليم آسيا ومصر والشام يبدو أنه نقل عن نسخة آيا صوفيا ويحمل الرقم ٢٣٢٥ ، وجزء آخر به الحوليات من سنة ٥٤١ - ٧٤٤ هـ وهى آخر القسم التاريخى برقم ٢٣٢٨ . وبالمكتبة الأهلية بباريس قِطَع أخرى تحمل الأرقام ٢٣٢٦ و ٢٣٢٩ و ٤٩٦٢ و ٥٨٧٠ (وفيه تراجم الموسيقيين) و ٥٨٦٧ و ٥٨٦٨ [١] .

وفى المتحف البريطانى جزء من القسم التاريخى ينتهى بنهاية الكتاب برقم ٣٧٣ وجزء آخر برقم ١٢٩٣ . وجزء بمكتبة مانشستر برقم ٣٤٤ .

---

(١) Sezgin, F., GAS II, 97 .

وفى مكتبة الاسكوريال قطعة برقم ٢٨٧ (مصورة بمعهد المخطوطات العربية فيما لم يفهرس) .

وفى المغرب نسخة فى مكتبة القرويين بفاس برقم ١٣٢٤ ، وأخرى تحوى القسم الخاص بالممالك محفوظة فى مكتبة العلامة محمد المنونى بالرباط برقم ٤٨٦ (مصورة بمعهد المخطوطات العربية فيما لم يفهرس) .

أما فى مصر فتملك دار الكتب المصرية نسخاً من هذا الكتاب الهام أهمها مصورة مخطوطة أحمد الثالث وهى محفوظة بالدار تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة [1] ، ومصورة مخطوطة آيا صوفيا وهى محفوظة بالدار تحت رقم ٥٦٠ معارف عامة ، ومصورة الجزء المحفوظ فى مكتبة البودليان بأكسفورد وهى تحت رقم ٥٦٢ معارف عامة ، ونسخة حديثة تحوى القسم الخاص بالممالك وتحمل الرقم ٨ م معارف عامة بالإضافة إلى قطع أخرى متفرقة تحمل الأرقام ٥٥٦ و ٥٥٧ و ٥٦١ معارف عامة .

وفى الخزانة التيمورية المضافة إلى الدار قطعة تحوى الباب السادس الذى ننشره اليوم وهى برقم ٥٣٥ تاريخ تيمور ويبدو أنها منقولة عن النسخة رقم ٨ م معارف عامة أو أن الاثنين نقلا عن أصل واحد . وبالخزانة نفسها جزء يحوى النوع الأول من القسم الثانى الخاص بسكان الأرض فيه تراجم فقراء الصوفية والزهّاد ، ثم تراجم الحكماء والمتكلمين والأطباء ، ثم تراجم أهل الموسيقى وأعيان الوزراء والكتاب وينتهى بترجمة خالد بن بَرْمك وابنه يحيى وهى محفوظة برقم ١٢٧٧ تاريخ تيمور (ومنها مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٢٦ معارف عامة) .

وفى مكتبة بلدية الإسكندرية قطعة تحمل الرقم ن ٣٣٥٥ - ج بها جميع أشكال النبات مصورة بالألوان .

وفى مكتبة سوهاج قطعة تبدأ بتراجم الوزراء والكتاب تحمل رقم ١٨٥ تاريخ (مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٤٧٣ تاريخ) .

---

(١) وعن هذه المصورة توجد صورة أخرى بمعهد المخطوطات العربية تحمل الأرقام من ١٣ - ٢٤ معارف عامة .

ونشر حسنى حسنى باشا عبد الوهاب ، رحمه الله ، وصف إفريقية والأندلس اعتماداً على نسخة تحوى ذكر الممالك كانت فى خزانة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فى تونس وهى غير نسخة المكتبة الصادقية رقم ١٢١ .

هذا عرض لأهم مخطوطات كتاب « مسالك الأبصار » وهناك مخطوطات أخرى حديثة العهد وخاصة فى مكتبات العراق يغلب على ظنى أنها نقلت من النسخ التى ذكرتها آنفاً .

النُسَخ التى اعتمدت عليها

اعتمدت فى تحقيق ونشر الجزء الذى بين يدى القارىء الكريم على خمس نسخ هى نسخة أحمد الثالث ونسخة المكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٣٢٥ ونسخة دار الكتب رقم ٨ م معارف عامة ونسخة المكتبة التيمورية رقم ٥٣٨ تاريخ ، ونسخة السيد محمد المنونى بالرباط .

واتخذت نسخة أحمد الثالث أصلاً وأثبت أرقام صفحاتها بين معقوفتين [ ] وقابلتها فى الأساس على نسخة باريس . أما النسخ الثلاث الأخرى فقد استأنست بها فى توضيح ما التبس علىّ قراءته فى نُسْخَتَىّ أحمد الثالث وباريس ورمزت لنسخة أحمد الثالث بالحرف : ث ولنسخة باريس بالحرف : ب ونسخة دار الكتب بالحرف : م والنسخة التيمورية بالحرف : ت ونسخة الرباط بالحرف : ك .

ونسخة أحمد الثالث نسخة خزائنية كتبت برسم خزانة الملك المؤيد شيخ المحمودى (٨١٥ – ٨٢٤ هـ) بقلم جيد ومسطرتها ٢٣ سطراً ويقع الباب السادس والسابع فيها من ورقة ٣٧٤ إلى ورقة ٤٧٦ .

أما نسخة باريس فيرقى خطها إلى القرن التاسع أو العاشر ومسطرتها ١٧ سطراً ، كتبها شخص يدعى محمد السعودى وهى تبدو مقروءة ولكن تتخللها أخطأ كثيرة وهى غير منقوطة فى أغلب الأحيان مما يوجد صعوبات بالغة فى قراءة أسماء الأعلام والمواضع والكلمات الاصطلاحية الغريبة . وتنتهى هذه النسخة بنهاية الباب السادس ولا تحوى الباب السابع الخاص باليمن الذى اعتمدت فى تحقيقه على نسختى أحمد الثالث ومحمد المنونى فقط .

أما النسخ الثلاث الأخرى فنُسَخ حديثة لم تحلّ الكثير من المشكلات التى واجهتنى فى فهم النص .

وقد استعنت على توضيح بعض الكلمات التى تعذَّر علىَّ فهمها بمقارنة نَصِّ العُمَرى مع النقول التى نقلها عنه القلقشندى والمقريزى والسيوطى .

ما نُشِر من الكتاب

لم يُنْشر من أصل الكتاب العربى إلّا قسماً صغيراً لا يتعدى عُشْر الكتاب ، أما فيما عدا ذلك فقد كان نصيبُ النَّوْع الثانى من القسم الأوّل الخاص « بذكر الممالك » وافراً نسبياً حيث نُقِل إلى اللغة الفرنسية بوجه خاص قسمٌ كبير منه .

فأول شىء ترجم كاترمير الفصول المتعلقة بآسيا فى مخطوطة باريس رقم ٢٣٢٥ مع مقتبسات طويلة من المخطوط ونشر ذلك سنة ١٨٣٨ .

Quatremère, M., «Notice de L'ouvrage qu'a pour titre Mesalek al-Absar fi Memalek al- Amsar», dans Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque du Roi et autres Bibliothèques 13 (1838), pp.151-384 .

ثم نشر ميخائيل آمارى فصلاً من الكتاب عنوانه « ممالك عبَّاد الصليب » [(١)] مع ترجمة إيطالية ، وهو يمثل الفصل الثانى من الباب الثانى من النوع الأول من القسم الأول من الكتاب .

Amari, M., «Al-Umari, Condizioni dei Cristiani dell'Occidente secondo una relazione di Domenichino Dorio da Genova » in Atti della R. Accademia dei Lincei, serie III, t. XI (1883), pp. 67-103 .

---

(١) عنوان هذا الفصل كاملا : « رسالة تشتمل على كلام جملى فى أمر مشاهير ممالك الفرنج عبَّاد الصليب فى البر والبحر بإقليمى الشرق ومصر فى أيام نور الدين بن زنكى وأواخر الدولة العبيدية فى مصر » .

ونقل المستشرق الروسى تيزنهوزن نصوصاً من المسالك خاصة بقبائل الأُرْدُو الذهبية فى آسيا الصغرى فى الدراسة التى أعدها عن هذه القبائل بالروسية .

Tiesenhausen, Recueil de matières relatives à l'histoire de la Horde d'Or, St. Petersbourg 1884 .

كذلك أثبتت الدراسة التى قام بها شيفير للأقسام المتعلقة بالصين أنه يجب أن لا نعتبر العُمَرى بالنسبة لهذه الأصقاع مجرَّد نقَّالة يكتفى بتسجيل ما وصل إليه عن طريق الصدفة ، بل إنه يقدم لنا فيما يتعلق بشمال الصين معلومات جمة مروية بألفاظ عدد ممن التقى بهم وخاصة من التجار والفقهاء .

Schefer, Ch., « Notice sur les relations des peuples musulmans avec les Chinois, depuis l'extention de l'Islamisme jusqu'à la fin du XV siècle», dans Centenaire de l'ELOV, 1895, pp. 1-43 .

وفى عام ١٩٢٤ نشر أحمد زكى باشا ، رحمه الله ، الجزء الأول من الكتاب بعد أن توفر له الحصول على نسخة كاملة منه كانت فى مكتبة أحمد الثالث باستامبول ووضع صورة منها فى دار الكتب المصرية ، وما نشره هو الباب الأول كاملاً من النوع الأول من القسم الأول من الكتاب .

« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمرى ، القاهرة – دار الكتب المصرية ١٩٢٤ .

وبعد ذلك بعام ، أى فى سنة ١٩٢٥ ، نشر العلامة التونسى حسن حسنى عبد الوهاب ، رحمه الله ، قسماً من الكتاب فى مجلة غير شديدة الرواج ، اعتماداً على مخطوطة تحوى النوع الثانى من القسم الأول كانت فى ملك العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، رحمه الله ، بعنوان :

« وصف إفريقية والمغرب والأندلس أواسط القرن الثامن للهجرة مقتطف من كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » تأليف شهاب الدين أحمد بن يحيى العمرى المعروف بابن فضل الله

الكاتب الدمشقى المتوفى سنة ٧٤٨ (كذا) . عنى بنشره والتعليق عليه خادم العلم حسن حسنى عبد الوهاب » من منشورات مجلة « البدر » لمؤسسى الجامعة الزيتونية بتونس .

ثم نشر دى مومبين قسماً خاصاً بالمغرب ، وهو من الأقسام التى نشرها حسن حسنى عبد الوهاب ، فى الكتاب التذكارى المُهْدى إلى هنرى باسيه .

Gaudefroy-Demombynes, «Quelques passages des Masalik al-Absar relatifs au Maroc » dans Memorial Henri Basset, Paris, 1928, I, pp. 269-280 .

وكان دى مومبين قد نشر فى سنة ١٩٢٧ ترجمة فرنسية مشروحة للأبواب السبعة الأخيرة من قسم الممالك التى تضم ممالك المسلمين بالحبشة ، ممالك مسلمى السودان ، مملكة مالى ، مملكة جبال البربر ، مملكة إفريقية ، مملكة بر العدوة ، مملكة الأندلس .

Gaudefroy-Demombynes, Masalik al-Absar fi Mamalik al-Amsar, I-l'Afrique moins l'Egypte, (traduit et annoté par), BGA, Paris 1927 .

وطوال الخمسين عاماً الأخيرة توقف الاهتمام بموسوعة العمرى وإن ظهر منها أقسام صغيرة فى فترات متباعدة حيث نشر تيشنر الفصل الخاص بالأناضول .

Taeschner, F., Al-Umari's Bericht über Anatolien in seinem Werke Masalik al-Absar, Leipzig 1929 .

كما نُشر فى ليبتسج القسم الخاص بمملكة الهند :

Ibn Fadlallah al 'Omari's Bericht über Indien in seinem Werke Masalik al-Absar fi Mamalik al-Amsar, Leipzig 1943 .

ثم نشر الدكتور صلاح الدين المنجد « وصف دمشق فى مسالك الأبصار » أولاً فى مجلة معهد المخطوطات ٤ (١٩٥٨) ١١٣ - ١٢٦ ، ثم فى كتابه « مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين » بيروت ١٩٦٧ ، ٢١٩ - ٢٣١ .

وكان آخر ما نشر من « المسالك » القسم الخاص بمملكة جنكزخان الذى نشره ليش فى سنة ١٩٦٨ .

Lech, K., Das Mongolische Weltreich, al-Umari's Darstellung der mongolischen Reiche in seinem Werke Masalik al-absar fi mamalik al-amsar, Wiesbaden 1968 .

وقسم اليمن الذى نشرته فى القاهرة سنة ١٩٧٤ .

عملى فى الكتاب

اتبعت فى تحقيق نص « المسالك » الذى أنشره اليوم ، المنهج نفسه الذى اتبعته فيما نَشَرْتُ من نصوص قبل ذلك ، وهو تقديم نصٍّ صحيحٍ سليمٍ للكتاب مع ضَبْطه والتعليق عليه وشرح مصطلحاته ، ومقابلة نصوصه على مصادرها أو على ما نقله عنه المتأخرون ، مع الإحالة إلى الأعمال العلمية الحديثة قدر الإمكان .

ولما كانت مادة العُمَرى متداخلة فى كثير من الأحيان ، فقد أَضَفْت عناوين جديدة لموضوعات الكتاب مستعيناً بالمؤلفات التى اعتمدت على العمرى ، وجَعَلْتُ هذه العناوين – التى أضفتها من عندى – بين قوسين معقوفين [ ] .

واعتمدت فى الأساس على كُتُبٍ ثلاثة نقلت باطراد عن العمرى هى : صبح الأعشى للقلقشندى ، وخِطَط المقريزى ، وحسن المحاضرة للسيوطى فيما يخص الباب السادس . أما الباب السابع فقد قابلته على صبح الأعشى وعلى كتاب « بهجة الزمن » لعبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى وهو مصدر من مصادر العمرى .

أما « فهارس الكتاب » فقد خصصتها فى الأساس لذكر المصطلحات المملوكية الواردة فى الكتاب ، وأسماء الخِلَع والأزياء وللمواضع والبلدان بصفة خاصة فهذه هى موضوعات الكتاب الرئيسية .

* * *

وفى الختام أجد من الواجب أن أتقدّم بالشكر لكل من يَسَّروا لى إخراج هذا العمل فإلى إدارة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة وعلى رأسها السيدة Paule Posener-Kriéger مدير المعهد والسيدة Geneviève Bataille سكرتيرته والآنسة Ghislaine Alleaume عضو المعهد الشكر خالصاً لموافقتهم على إخراج الكتاب ضمن مطبوعات المعهد ، والشكر كذلك إلى الأستاذ Jean Claude Garcin الأستاذ بجامعة Aix-en-Provence الذى أشار على المعهد بأهمية هذا النص وضرورة العناية بإخراجه .

أما إخراج الكتاب فى هذه الصورة فالفضل فيه يرجع إلى تعاون الصديق محمد أمين الخانجى – صاحب مكتبة الخانجى بمصر – الذى تولّى صفّه بالجمع التصويرى ، وإلى دقة وعناية الصديق رينالدو جورى ، مدير مطبعة المعهد ، الذى أضاف بدقته وعنايته أناقة الإخراج الذى يُمَيِّز مطبوعات المعهد . فإليهم جميعاً خالص شكرى .

وكتب
أيمن فؤاد سيد

٩ رجب ١٤٠٥ هـ
الموافق ٣٠ مارس ١٩٨٥ م



الرموز والاختصارات

ب	=	مخطوطة باريس .
ت	=	المخطوطة التيمورية .
ث	=	مخطوطة أحمد الثالث .
ك	=	مخطوطة الرباط .
م	=	مخطوطة دار الكتب المصرية .
خ .	=	مخطوطة .
[ ]	=	ما بين المعقوفتين زيادة على الأصول .

* * *

An. Isl .	= Annales Islamologiques .
BEO	= Bulletin d'Etudes Orientales .
BGA	= Bibliothèque des Géographes Arabes .
BIE	= Bulletin de L'Institut d'Egypte .
BIFAO	= Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale .
BSOAS	= Bulletin of the School of Oriental and African Studies .
BSRGE	= Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte .
CNRS	= Centre National de la Recherche Scientifique .
EI	= Encyclopédie de l'Islam .
GAL	= Geschichte der arabischen Litteratur .
GAS	= Geschichte des arabischen Schrifftums .
GMS	= Gibb Memorial Series .
IC	= Islamic Culture .
IFAO	= Institut Français d'Archéologie Orientale .
JA	= Journal Asiatique .
JESHO	= Journal of the Economic and Social History of the Orient .
JRAS	= Journal of the Royal Asiatic Society .

MAE	= Muslim Architecture of Egypt .
MIE	= Mémoires de l'Institut d'Egypte .
MIFAO	= Memoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale .
MMAF	= Memoires publiés par les Membres de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire .
MSOS	= Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen .
REI	= Revue d'Etudes Islamiques .
SI	= Studia Islamica .
ZDMG	= Zeitschrift der Deutschen Morgen ländischen Gesellschaft .

اللوحات

الجزء ... من كتاب
مسالك الابصار وممالك الامصار
من مؤلفات العالم العلامة
الشهير بابن فضل الله

كتاب مسالك الابصار
وممالك الامصار
للمراكشي

Geographie du Marachi
achepté a alep
par J. fr. La Croix

l'extrait de cet ouvrage est dans le journal des savans
au mois de juin 1758.

Pars tertia libri cuius titulus est Messalek
al absar fi memalek al amsar, Oculorum
Peragrationes sive Itinera in varias orbis
regiones. Opus Geographicum Schehab-
eddini Ahmedis filii Iahiae vulgo dicti
Al maratchi. A descriptione regionum
quas Islamismus amplectitur incipit et
in Palestinae urbe Ramlah dicta desinit.
Pro Maratchi lege Marakatchi, i.e
Marroco Mauritaniae urbe oriundus.

عنوان الكتاب في مخطوطة باريس .

بداية القسم الخاص بالممالك من مخطوطة باريس .

٤٢٨

ذكر المملكة الثانية وهي مملكة الشام

ذكر مملكة الشام من مخطوطة أحمد الثالث .

٤٦٢

الباب السابع في مملكة اليمن

وفيه فصلان — الفصل الأول فيما بدأ ولاد رسول

آخر الباب السادس وأول الباب السابع من مخطوطة أحمد الثالث .

اهلها بد لامس فوغلوا فى البلاد و ملاوا ايديهم غنايم و هذا اخرج جانى بوادى كذا فعدت
سبقى و قلت ادع لى بطعام فدعا فاصبت منه ثم قمت فقال لمن حوله كونوا معه حتى يخرج
ففعلوا ثم قصدت السريه حتى اتيتها وخرجت بها و بما غنمت فهذا من اعجب ما كان منى ثم قتل
رحمه الله شهيدا فى غزاة غزاها وقتل معه خلق كثير من المسلمين وفيها يقول الشاعر

الم يلعك من ابنا جيش باقرن	عددوا واحسار ماسا
يقود بهم حتوف لم يطيقوا	لها دفعا هناك والاحضاما
معارك لم يقم فيها السجو	نوائح يلتدمن به التداما
ولم تهمل على البطال عين	هناك بغيره يسقى الهياما
عشيه باسر اهوال صبرا	تحل تحوف الحلس اللهاما
اذا ما خيله حملت عليهم	تداعوا من مخافته انهزاما
فلا تبعد هنالك من شهيد	فانك كنت للصيد حاما

الباب السادس / فى مملكة مصر و الشام و الحجاز هذه الممالك
هى مملكة واحده يقع معظم مصر فى اواخر الثالث ومعظم فى اواخره وحلب منه فى الرابع
وهى مملكة كبيرة و اموالها كثيره و قاعدة الملك بها قلعة الجبل ثم دمشق وهى من اجل ممالك
الارض لما حوت من الجهات المعظمه والارض المقدسه والمساجد التى هى على التقوى و
بها المساجد الثلثه التى لا تشد الرحال الا اليها وقبور الانبيا صلوات الله عليهم والطور
والنيل والفرات وهما من الجنه وبها معدن الزمرد ولا نظير له فى اقطار الارض وحسب
مصر فخرا بما تفردت به من هذا المعدن واستمداد ملوك الافاق له منها اخبرنا العدل
عبد الرحيم شاهد المعدن بما اذكره من احواله قال ان بينه وبين قوص مسافة ثمانية
ايام بالسير المعتدل المعتاد والبجاة تنزل حوله وقريبا منه لاجل القيام بحفره وحفظه
وهذا المعدن هو فى الجبل الاخذ على شرقى النيل فى بحرى قطعة عظيمة من هذا الجبل تسمى
قرشندة وليس فى الجبال التى هناك اعلا ولا اشرف منها وهو فى منقطع من [illegible]
عنده ولا حوله ولا قريبا منه والماء منه على مسيرة نصف يوم منه او ازيد وهو ما يتحصل
من المطر ويعرف بغدير اعين بكثرة المطر ويقل بقلته واما هذا المعدن فهو فى صدر
مغارة طويلة فى حجر ابيض منه يستخرج الزمرد والحجر المذكور ثلثة انواع احدها يقال له طلق
كافورى والثانى يقال طلق فضى والثالث يقال له حجر حنروى يضرب فى هذه
الحجارة حتى يخرج الزمرد وهو كالعروق فيه والذى يخرج من اجوده وانواع الزمرد
ثلثة الذبابى وهو افخرها ولكنه قليل بل اقل من القليل بل لا يكاد يوجد قال العدل
عبد الرحيم انه ما راه فى مده مباشرته ولا خرج منه شى فى طول تلك المدة قال وهو يستخرج

فى طول

أول الباب السادس من مخطوطة دار الكتب رقم ٨ معارف عامة م.

٩٦

من ذلك وزردت لها وقد دحلا من حسنها وجمالها وادبها وحسن نغلها في جميع ما تحاوله
واقسمت عليهما لياكلان وقالت لو جاز لي ان اكل معكما لفعلت والطعام بوعد الكرام
الى نغه فاكلا وتنظرا الى ما حول البيت من الشجر والضياع وغير ذلك فاستحسنا الموضع و
اشرافه على ما حوله من العماره فقال رجا لسليمان لو امرت بتنا دير ها هنا للنصارى و
مسجد للمسلمين وامرت بالندا في الناس من احب ان يكون في حمى من المسلمين و
النصارى فليبن دارا الى جنب مسجده وديره لصارت مدينه ولتعطلت الكنيسه بالدير
وهذا الموضع احسن من موضع لدوا علا ففعل ذلك وتبادر الناس من كل اوب من المسلمين
والنصارى يختطون المنازل والقصور على قدر هممهم ونعمهم وكان سليمان خط مسجدا
صغيرا ودارا للاماره لطيفه فقال له رجا غير هذا فانها ستكون مدينه عظيمه فخط جامعا كبيرا
ودارا واسعه وهو هذا الجامع وهذه الدار المعروفه بدار الاماره ثم ان سليمان اراد هدم
الكنيسه واخذ رخامها وعمدها للجامع فدافعه رجا عن ذلك وكتب الى عبد الملك يخبره بما
فعل القس من غدره ومكره وما فعلاه من بنا المدينه والجامع ثم كتب عبد الملك الى
ملك الروم وكان الإسلام في ذلك الوقت ظاهرا على الروم فانفذ ملك الروم إلى عبد الملك
من دله على موضع أخرج منه عمدا لم ير مثلها في الاعتدال والحسن وأخرج معها رخاما منشورا
وغير منشور ما كفى الجامع وفضل عنه يقال انه كان في ضيعة من الداروم دار وم غزه
يقال لها عمودا . وكان اكثر ما نال النصارى من ذلك أن ملك الروم ألزمهم
نقل العمد والرخام من عمودا إلى الجامع وسميت المدينة
الرملة باسم المرأه المقدم ذكرها وحسن
سليمان إليها والى بعلها

آخر الباب السادس من مخطوطة دار الكتب رقم ٨ معارف عامة م .

الباب السادس فى مملكة مصر والشام والحجاز
هذه الممالك هى مملكة واحدة يقع معظم مصر فى
اوائل الثالث ومعظمها فى اواخره وحلب منه فى الرابع
وهى مملكة كبيرة واموالها كثيرة وقاعدة الملك بها قلعة
الجبل ثم دمشق وهى من اجل الممالك لما حوت من الجهات
المعظمة والارض المقدسة والمساجد التى هى على التقوى
مؤسسة بها المساجد الثلاثة التى لا تشد الرحال الا
اليها وقبور الانبياء صلوات الله عليهم والطور والنيل
والفرات وهما من الجنة وبها معدن الزمرد ولا نظير له
فى اقطار الارض وحسب مصر فخرا بما انفردت به من
هذا المعدن واستمداد ملوك الافاق له منها اخبرنا
العدل عبد الرحيم شاهد المعدن بما اذكره من احواله
قال ان بينه وبين قوص مسافة ثمانية ايام بالسير المعتدل
المعتاد والقفاف تنزل حوله وقريبا منه لاجل القيام بحفره
وحفظه وهذا المعدن هو فى الجبل الآخذ على شرقى النيل
فى مجرى قطعة عظيمة من هذا الجبل يسمى قرشندة وليس
فى الجبال التى هناك اعلا ولا اشرف منها وهو فى منقطع
من البر لا عمارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه والماء عنه
على مسيرة نصف يوم منه او ازيد وهو ما يحصل من
المطر

المطر ويعرف بغدير ابن بكثر بكثرة المطر ويقل بقلته
واما هذا المعدن فهو فى صدر مغارة طويلة فى حجر
ابيض منه يستخرج الزمرد والحجر المذكور ثلاثة انواع
احدها يقال له طلق كافورى والثانى يقال له طلق فضى
والثالث يقال له حجر حزوى يضرب فى هذه الحجارة حتى
يخرج الزمرد وهو كالعروق فيه والذى يخرج من اجوده
وانواع الزمرد ثلاثة الذبابى وهو افخرها ولكنه قليل
بل اقل من القليل بل لا يكاد يوجد قال العدل عبد
الرحيم ان ما رآه فى مدة معاشرته ولا خرج منه شئ فى
طول تلك المدة قال وهو يستخرج فى طول السنة مهما
وجد من يعمل فيه قال وليس للفعلة فيه عدة محصورة
بل هم كارات بحسب الاهتمام وعدم الاهتمام باستخراج
هذا المعدن قال واذا استخرج الزمرد يلقى فى الزيت
الحار ثم يحط فى قطن ويصر فى ذلك القطن فى خرق جامر
او ما يجرى مجراه قال والاحتراز على هذا المعدن كثير جدا
والفعلة تفتش عند خروجهم منه فى كل يوم حتى
تفتش منهم اماكن لا يليق ذكرها هذا ما اخبرنى به
وحدثنى آخر له معرفة بهذا المعدن واحواله ان هؤلاء
الفعلة فى هذا المعدن مع هذا الاحتراز الشديد لهم

أول مملكة مصر والشام من المخطوطة التيمورية رقم ٥٣٨ تاريخ .

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري

ممالك مصر والشام والحجاز واليمن

بسم الله الرحمن الرحيم
رب يسر يا كريم

النوع الثانى
فى ذِكْر ممالك الإسلام جملة

ممالك الإسلام واقعةٌ بحمد الله فى أحسن المعمور (1) شَرْقاً وغَرْباً وجنوباً وشمالاً ، لأنها لا تنتهى إلى غاية الحرارة المُفْرِطة ، ولا غاية البرد المفرط إلاَّ فيما قلّ ، ولا تخرج عن حَدِّ المستطاب . وسيأتى بيان ذلك فى تحديد كل مملكة .

فغاية معمور الجنوب مساكن السُّودان من عُبَّاد النيران والأصنام بما يغلغل من جزائر الهند وأطرافه ، والنَّصَارى بأطراف الحَبَشة ، وعبَّاد الحيَّات والهَمَج فى سودان المغرب جنوب غانه .

وغاية معمور الشمال من النَّصَارى والهَمَج ببلاد الصَّقْلب فى شماليها ، أحد قسمى إيران المسمَّاة ببلاد القبْجاق ، وما سامت ذلك الخط من القُسْطَنْطينية وما وراءها إلى جِلِيقْية والأرض الكبيرة وجزائر البحر الرومى .

وغاية معمور الشَّرق من عبَّاد النيران والأصنام بثالث أقسام تُورَان من بلاد الصين إلى المحيط .

وأما الغرب فانتهى فيه الإسلام إلى البحر المحيط ، وكِلاَ طرفى الشرق والغرب بلادٌ صالحة وإن لم تكن الغاية . فالغرب إلى منتهى الغاية فى ممالك الإسلام ، والصين – وإن كان خارجاً عن دعوة الإسلام – فإنه مُلْكٌ عظيمٌ جليلُ القدْر ضخم المُلْك ، وهو معظم توران ، ولم يزل لملك التُرْك وبه تخْت قانِهم وهو الآن لقَانهم من أبناء جَنْكِزْخان . وسيأتى ذكره عند ذكر أبناء جنكزخان .

(1) فى الأصول : العموم .

فممالك الإسلام واقعة على ما نذكره :

فأولها : « الهِنْد والسِّنْد » . وهو واقعٌ فى ممالك الإسلام بشرقٍ محض آخذاً فى الجنوب على مسامت الصين ، يحدُّها البحر من جنوبها وبلاد الكفَّار من شرقها ، والإسلام فى أحد قسمى توران من شمالها ثم إحدى قسمى توران مما نَبَذ الإسلام وهى : تُركُسْتَان ، وما وراء النهر ، وهى واقعةٌ بشرق محض آخذاً إلى الجنوب يحدُّها السِّنْد من جنوبها والصين من شرقها ، وممالك الإسلام قسمها الثانى وإيران [١٧٩] من جنوبها .

ثم القسم الثانى مما بيد الإسلام من « مملكة توران » وهى : خُوَارَزْم وبلاد القَبْجَاق ، وهى واقعة فى الشمال آخذة إلى المشرق يحدُّها أطراف الصين من شرقها وبلاد الصَّقْلَب وما يليها من شمالها . أما جنوبها فخُرَاسان وما سامتها ، وغربها الخليج القاطع من بحر الروم على القِرْم وراءها ممالك الإسلام . والروم كلها من ممالك الإسلام .

ثم « إيران » ، وهى تلى قسمى توران المذكورين ، داخلة كالشِّعْبَة الفارقة بينهما .

وذلك القسمان متشعب عليهما مثل كُمَّى السراويل على سرجه ، تحدها ممالك الإسلام من كل جهة وفى بعض جنوبها ينتهى إلى البحر الفارسى الآخذ على البصرة وما سامتها .

وممالك « كَيلان » واللُّر والشول وشنكارة والأكراد .

وبلاد « أتراك الروم » كلها فى هذا القسم ، خلا أن أتراك الروم حدُّهم الشمالى بلاد القسطنطينية .

ثم يليها « مملكة مصر والشام والحجاز » ، وتلك عمود الإسلام وفسطاط الدين . يحدُّها ممالك الإسلام من كل جهاتها الأربع منتهية فى الجنوب إلى اليمن . واليمن والحجاز كلاهما من جزيرة العرب ، على ما يأتى تبيينه ، ثم إلى البحر الآخذ على جُدَّة إلى أَيْلَة وينتهى فى الشمال إلى البحر الرومى .

ثم « اليمن » ، وهو جنوب الحجاز فى نهاية جزيرة العرب ، يَحُدُّها فى جنوبها البحر الآخذ إلى الهند ، ومن شرقها البحر الآخذ إلى جدة ، ومن شمالها الحجاز ، ومن غربها بحر الحَبَشَة .

ثم « ممالك الإسلام بالحبشة » ، والحبشة متصلة بأطراف الواحات آخذة إلى الجنوب يحيط بها بحر الحبشة من شرقها ، وممالك نصارى الحَبَش وكفّارهم من جنوبها ، ثم الصحارى القِفَار من غربها ، وشمالها الواحات .

ثم « الكَانِم » ، وهو على ضِفّة النيل على مسامتة دُنْقُلَة .

ثم يليها من وراء بَرْقَة « مملكة إفريقية » ، يحدُّها من جنوبها كفَّار السودان ، وبقية حدودها منتهية إلى ممالك الإسلام من شمالها البحر الشامى ، ثم برُّ العَدْوَة يحدها ممالك الإسلام من جنوبها بلاد البربر .

ثم « مَالِي » ومن شمالها بلاد إفريقية ، [١٨٠] ومن غربها البحر المحيط ، ومن شمالها بحر الزُّقاق إلى البحر الشامى .

ثم « برُّ العَدْوَة » وشرقها القِفَار ثم يليها مَالِي وما معها ، جنوبها غانة وبلاد كفَّار السودان ، وغربها المحيط ، وشمالها جبال البربر وبر العدوة ، وشرقها القفار .

ثم يليها « جزيرة الأندلس » ، وهى نهاية ممالك الإسلام ، وليست بجزيرة ولكن كالجزيرة ، يحيط بها من جانبها الجنوبى البحر الشامى ، ومن غربها وشمالها البحر المحيط ، ويبقى شرقها مكشوفاً متَّصلاً بالأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة . فلو مشى ماشٍ من نهاية غرب الأندلس عند مخرج بحر الزُّقَاق فى الجانب الشمالى إلى ناحية شرقه انتهى إلى الجبل المسمى بهيكل الزهرة ، وهو آخر حدِّ الأندلس وفيه الأبواب المفتوحة ، وقد تقدَّم ذكرها . ثم يمشى الماشى من تلك الأبواب إلى أن يخرج من شرقى هذا الجبل ويدخل فى الأرض الكبيرة ويمشى فيها إلى حيث شاء إلى الأرض شمالاً وشرقاً وجنوباً لا يقطعه بحر ، حتى إنه إذا أراد مشى على ساحل البحر الشامى وما هو متَّصل به حتى ينتهى إلى حجره [١] ، ثم يدور معها عند حجره ببلاد الشام على شرقه ، ثم يدور معه على ساحله الجنوبى حتى يعود إلى نهاية الغرب قُبَالة المكان الذى بدأ منه عند مَخْرَج بحر الزُّقاق فى الجانب الجنوبى لا يقطعه دون ذلك قاطعٌ ولا يمنعه مانع .

---

(١) فى ث : حجن .

واعلم أن الأمر فى تحديد الأقاليم العُرْفية لا يجرى فى تحديد الدار والبستان ونحوهما ، لأن غالب الدور والبساتين تكون قِطَعاً مربَّعة أو مثلَّثة أو مسَاوية الجوانب . وليس الأمر فى الأقاليم العرفية كذلك فإن بعض جوانبها يكون مُدَاخلاً لإقليم آخر ، وبعضها بكورة فيه تقويس ، وبعض جوانبها أعرض من بعض . والذى يحدِّد المكان إنما يحدده بالجهات الأربع وهى : الشَّرْق ، والغَرْب ، والجَنُوب ، والشَّمال ، وذلك لا يصفوا فى الأقاليم العرفية لما ذكرناه . ولو كانت الأقاليم قِطَعاً مربعة أو متساوية الجوانب لأمكن فيها ذلك . فينبغى أن تعرف العُذْر فى التقصير فى تحديدها لاسيما عند منْ لم يشاهدها وإنما [١٨١] نَقَلها من الأوراق وأفْوَاه الرجال ، فإن عذره فى التقصير أوضح . وأيضاً فإن فى بعض الأقاليم يكون على شكل مثلَّث كجزيرتى الأندلس وصقِلِّية ، وبعضها ذا خمسة أضلاع وأكثر وأقل فيتعذّر ذكر ذلك بجهاته الأربع على الصحة .

ومن ها هنا نَشْرع فى ذكر الممالك مملكة مملكة . وهذا الباب هو المراد فى هذا الكتاب وبسببه أُلِّف ولأجله صُنِّف . ونحن نأخذ فى هذا الباب على التحرير فى أكثر ما عَرفنا ، والتحقيق لأكثر ما لم نعرف بتكرار السؤال من واحد بعد واحد عما يعْلَمَه من أحوال بلاده وما فيها ، وما اشتملت عليه فى الغالب نواحيها . وكنت أسأل الرجل عن بلاده ثم أسأل الآخر والآخر لأقف على الحق . فما اتَّفقت عليه أقوالُهم أو تقاربت فيه كتبته ، وما اختلَفت فيه أقوالهم أو اضطربت تركته . ثم إنى أترك الرجل المسئول مدَّة أناسيه فيها عمَّا قال ، ثم أعيد عليه السؤال عن بعض ما كنت سألت ، فإن ثَبَت على قوله الأول أثْبَتُّ مقالَه ، وإن تزلْزل أذهبت فى الريح أقواله ، كل هذا لأتروَّى فى الرواية وأتوثَّق فى التصحيح ، مع أننا أهل بيتٍ وظيفتهم مَجْمَع وفود وموضع كل صدور وورود .

ولم نزل عند ملوك مصر والشام ، رحِمَ الله من مَضَى منهم وحَفَظ من بقى ، بابهم المفتوح لكل طارق وسحابهم الممنوح به كل جُودٍ دافق ، فإلينا فى أبوابهم أوّل كل وارد إليهم وآخر كل صادر عنهم . ومنذ نيطت بى التمائم إلى أن أثبتت علىَّ العمائم إلى أن صِرْت ركن هذا الباب وكنَّ هذا السحاب أسأل كل وارد على باب سلطاننا ، أعزَّه الله بنصره ، من جميع الآفاق ، ووافد استكنّ تحت جَنَاح لوائه الخفَّاق ، وما أخذت مع رسول يصل من ملوك الأرض فى مُطَارحة

حديث ومراوحة قديم وحديث إلاَّ وجريت بزلازل السؤال عن بلادهم وأَوْضاع ملوكها ووظائف الرَّعَايا فى سلوكها ، وما للجنود بها وطبقات أرباب الرُّتب العالية من الأَرْزَاق ، ومقدار تفرقة خزائن الإطلاق ، وكيفية [1] زى كل أناس ، [١٨٢] وما يمتاز به أهل كل طائفة من اللِّباس على ما يُذكر ، وذلك إن شاء الله تعالى فى مكانه .

وبالله استعين ومنه أسأل التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العَلِىّ العظيم .

* * *

وهذا النوع أربعة عشر باباً [2]

الباب الأول – فى مملكة الهِنْد والسِّنْد .

الباب الثانى – فى ممالك بيت جَنْكِزْخَان .

وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول – فى الكلام عليه جملياً .

الفصل الثانى – فى مملكة القان الكبير ، صاحب التخت . وهو صاحب الصين والخَطَا .

الفصل الثالث – فى التوارنيين . وهو فرقتان :

الفرقة الأولى – فيما وراء النهر ،

الفرقة الثانية – فى خُوَارَزْم والقَبْجَاق .

الفصل الرابع – فى الإيرانيين .

الباب الثالث – فى مملكة الجِيل .

وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول – فى يومن .

---

(١) فى الأصول : وكيف .

(٢) فى المسالك ١ : ٩ : خمسة عشر باباً .

* * *

(١) زيادة من المسالك ١ : ١٢ .

الباب السّادس
فى مملكة مصر والشام والحجاز

هذه الممالكُ هى مملكة واحدة ، يَقعُ معظم مصر فى أوائل الثالث ، ومعظم الشام فى أواخره ، وحَلَب منه فى الرابع .

وهى مملكة كبيرة وأموالها كثيرة ، وقاعدة الملك بها « قَلْعَةُ الجَبَل » ثم « دِمَشْق » .

وهى من أجل الممالك لما حَوَت من الجهات المعظَّمة ، والأرض المقدَّسة ، والمساجد التى على التقوى مؤسَّسَة بها المَسَاجدُ الثلاثةُ التى لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلاَّ إليها ، وقبورُ الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، والطُّوْر ، والنِّيل والفُرات وهما من الجنَّة [١] .

وبها « معدن الزُّمُرُّد » [٢] ولا نظير له فى أقطار الأرض ، وحسب مصر فخراً بما انفردت به من هذا المعدن واستمداد ملوك الآفاق له منها [٣] .

أخبرنا العدل عبد الرحيم ، شاهد المعدن ، بما أذكره من أحواله قال : إن بينه وبين قُوص مسافة ثمانية أيَّام بالسير المعتدل المعتاد ، والبُجَاةُ تنزل حوله وقريباً منه لأجل القيام بخَفْره وحِفْظه [٤] . وهذا المعدن هو فى الجبل الآخذ على شرقى النيل فى بحرى قطعة عظيمة من هذا الجبل تُسَمَّى « أقْرَشَنْدَه » [٥] وليس فى الجبال التى هناك أعلا ولا [٣٧٥] أشرف منها ، وهو فى

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٣٣٢ .

(٢) عن هذا المعدن ومواضعه فى مصر راجع ، المسعودى : مروج الذهب ٢ : ١٣٢ – ١٣٦ ، ابن حوقل : صورة الأرض ١٥٠ ، التيفاشى : أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار ٧٨ – ٩١ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٢ : ١٠٧ – ١١٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٣ ، أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٣٣٢ . وانظر فيما يلى ص ٦٧ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٣٣٢ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ١٢٧ ، مصطفى محمد مسعد : « البُجَه والعرب فى العصور الوسطى » ، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ٢١ (ديسمبر ١٩٥٩) ١ – ٥٩ .

(٥) فى الأصول : قرقشندة والمثبت من الخطط .

منقَطِع من البر لا عمارة عنده ولا حوله ولا قريباً منه . والماء عنه على مسيرة نصف يوم منه أو أزْيَد ، وهو ماءٌ يُتحصَّل من المطر ويُعْرَف بغدير أعْيَن يكثر بكثرة المطر ويقلُّ بقلته . أما هذا المعدن فهو فى صدر مَفَازَة طويلة فى حَجَرٍ أبيض منه يُسْتخرج الزمرد [١] .

والحجر المذكور ثلاثة أنواع : أحدُها يُقَال له طَلْق كافورى [٢] ، والثانى يقال له طَلْق فضى ، والثالث يقال له حجر جَرْوى . يُضْرب فى هذه الحجارة حتى يخرج الزُّمُرُّد وهو كالعروق فيه والذى يخرج من أجوده .

وأنواع الزُّمُرُّد ثلاثة [٣] : الذُّبابى [٤] وهو أفخرها ، ولكنه قليلٌ بل أقلُّ من القليل بل لا يكاد يوجد [٥] . قال العدل عبد الرحيم : إنه ما رآه فى مدة مباشرته ولا خرج منه شىء فى طول تلك المدة . قال : وهو يُسْتَخرج فى طول السنة مهما وَجَد من يعمل فيه . قال : وليس للفَعَلَة فيه عدة محصورة بل هم تارات بحسب الاهتمام وعدم الاهتمام باستخراج هذا المعدن . قال : وإذا استخرج الزُّمُرُّد يُلْقى فى الزيت الحار ثم يُحَطُّ فى قطن ويُصَرُّ ذلك القطن فى خِرَق كتَّان [٦] أو ما يجرى مجراه [٧] قال : والاحتراز على هذا المعدن كثيرٌ جداً ، والفَعَلَة تُعَيِّن عند خروجهم منه فى كل يوم حتى نفتش منهم أماكن لا يليق ذكرها . هذا ما أخبرنى به [٨] .

---

(١) المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٣ (نقلاً عن العمرى دون إشارة) ، السيوطى : حسن ٢ : ٣٣٢ . وفى صبح الأعشى ٢ : ١٠٨ نقلاً عن مسالك الأبصار : فمنه ما يوجد قِطَعاً صغاراً كالحصى منبَّثة فى تراب المعدن وهى الفصوص ، وربما أصيب العرق متصلاً فيقطع وهو القصب وهو أجوده . وتلك العروق منبثة فى حجر أبيض تستخرج منه بقطع الحجر .

(٢) قارن التيفاشى : أزهار الأفكار ٨١ .

(٣) عند التيفاشى : أزهار ٨٢ والقلقشندى : صبح ٢ : ١٠٨ - ١٠٩ أصناف الزمرد أربعة : الذبابى والريحانى والسِّلْقى والصابونى ، وسمّاها المسعودى : مروج ٢ : ٣٣٢ - ١٣٣ : المرّ والبحرى والمغربى والأحم . ولم يذكر ابن فضل الله سوى نوع واحد هو الذبابى .

(٤) هذا النوع شديد الخضرة ، لا يشوب خضرته شىء آخر من الألوان ، حسن الصبغ جيد المائية شديد الشعاع . وسمى الذبابى لمشابهة لونه فى الخضرة لون كبار الذباب الأخضر الربيعى الموجود فى البساتين . (الدمشقى : الإشارة إلى محاسن التجارة ١٥ ، التيفاشى : أزهار ٨٢ ، القلقشندى : صبح ٢ : ١٠٨) .

(٥) المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٣ ، القلقشندى : صبح ٢ : ١٠٨ .

(٦) فى الأصول : خام ، والمثبت من صبح الأعشى .

(٧) القلقشندى : صبح ٢ : ١٠٨ .

(٨) المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٣ وهو ينقل خبر معدن الزمرد كله عن ابن فضل الله العمرى دون الإشارة إليه ، تماماً كما فعل فى خبر قلعة الجبل الذى نقله عنه كلمة كلمة .

وحدَّثنى آخر له معرفة بهذا المعدن وأحواله ، أن هؤلاء الفَعَلَة فى هذا المعدن مع هذا الاحتراز الشديد لهم حِيَلٌ كثيرة فى سرقة الزمرد ومنها : أن الرجل منهم لَيَسْرِق ما يمكنه من الزمرد ويعمله فى كيس صغير معدٌّ لذلك ويربطه ثم يعلِّقه بخيط إبريسم مبروم مشدود فيه بين أضراسه الدواخل ، ويكون رأس الخيط معقوداً وثيقاً ، فإذا علق الخيط أخرج تلك العُقَد بين الضرسين إلى جهة الشفَّة فيبقى ناشباً به فإذا خرج إلى ظاهر المعدن وصار [٣٧٦] إلى حيث مأْمَن أخرجه وأخذ ما فيه [١] .

وبها « البَلَسَان » وهو ما هو [٢] ، وملوك النصرانية تترامى على طَلَبه ، والنَّصَارى كافةً تعتقد فيه ما تعتقد وترى أنه لا يتم تنَصُّر نصرانى حتى يُوضَع شىءٌ من دُهْن البَلَسَان فى ماء المعمودية عند تغطيسه فيها [٣] .

* * *

فأما وجوه « دَخْل هذه المملكة » وخَرَاجها وعساكرها وأجنادها وما أوَى إليها من الأمم وسكَنَها من أشْتات الخلائق ، وعُرِفَت به سلاطينُها من حُسْن السياسة ، وقَدَم الرياسة ، فأمرٌ لا يخفى له خبرٌ ولا يُغطِّى ضوءُه على ذى بَصَر . وقد تقدّم فى مواضع من هذا الكتاب ويأتى فى مواضع أخرى منه ما يُحقِّق ما قلنا .

ولا يعتقد معتقدٌ ولا يَظُنُّ ظانٌ أنِّى قلت فى هذا بغرضٍ لكونى من أهل هذه البلاد وتحت

---

[١] ذكر القلقشندى نقلاً عن مسالك الأبصار : أنه كان هناك مباشرون وأمناء يعينهم السلطان يتولون استخراج الزمرد وتحصيله ولهم رواتب يتقاضونها على ذلك . ثم ينقل كل ما يستخرج منه إلى الخزائن السلطانية فيستخلص منه ما يحتاجه الخاصة ثم يعرض الباقى للبيع . (صبح الأعشى ٣ : ٤٥٥ وقارن السيوطى : حسن ٢ : ٢٩٩ - ٣٠٠ وانظر فيما يلى ص ٦٧) .

[٢] المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٣ ، السيوطى : حسن ٢ : ٣٢٦ ، وانظر فيما يلى ص ٦٨ .

وراجع ، عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ٢٢ - ٣٣ ، ابن حوقل : صورة الأرض ١٦١ - ١٦٢ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ٢٠٤ ، الحسن الوزان : وصف إفريقيا ٥٨٨ .

[٣] القلقشندى : صبح ٣ : ٢٨٣ .

ظل ملوكها ورُبِّيت أنا وأبائى فى نِعَمِ سلاطينها . فمعاذ الله أن أقول إلّا الحق أو أسطر عنى غير الصحيح لا سيما فيما يتحدَّث به أهل جيل بعد جيل ، بل لهذا اختصرت فى القول .

ومعامَلتُها « الدَّراهم » ، ثُلُثَاها فِضَّة والثلث نُحَاس (١) . والدرهم ست (٢) عشرة حبة خرُّوب ، الخرُّوبة ثلاث قمحات ، والمِثْقَال أربعة وعشرون خرُّوبة . والدرهم منها قيمته ثمانية وأربعون فِلْساً (٣) .

و « الدينار الجَيْشى » (٤) مسمًّى عنه ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم (٥) من العادة عنه مسمى أربعون درهما سوداً ، الدرهم منها ثُلْث درهم مما ذُكِر .

ولا يوجد بالديار المصرية من الدراهم السود إلاَّ المسميات لا الأعيان (٦) . فأما بالإسكندرية فإنها توجد بها وهى كل اثنان بدرهم .

---

(١) هو ما يعرف بالفضة النُّقْرَة وهى أعلى عياراً من بقية الدراهم حدثت فى أيام الكامل محمد . (القلقشندى : صبح ٣ : ٤٣٩ و ٤٦٢ - ٤٦٣ ، المقريزى : السلوك ١ : ٤٥ هـ و ٢ : ٧٨٦ وفيه أنه يقال لها « الفضة الحجر » والنقود الإسلامية ١٤ ، طرخان : النظم الإقطاعية ٥٢٤ ، Rabie, H., « The Financial System » p. 188) .

وانظر صفة عمل هذا الدرهم عند ابن بَعْرة : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) فى الأصول : ثمان والمثبت من المصادر .

(٣) فى ث : أربعة وعشرون فلسا .

(٤) الدينار الجيشى . اصطلاح تعارف على استعماله ديوان الجيش فى عبرة الاقطاعات . فحدّد لكل إقطاع عبرة دنانير معينة ، فلذلك كان من الممكن أن يكون متحصّل مائة دينار فى إقطاع ما أكثر من متحصل مائتى دينار فأكثر فى إقطاع آخر . (ابن مماتى : قوانين الدواوين ٣٦٩ ، القلقشندى : صبح ٢ : ٤٣٨ ، طرخان : النظم الاقطاعية ٥٢٥ ، Rabie, H., op. cit., pp. 49-50; Cooper, R.S., «A note on the dinar Jayshi», JESHO 16 (1973), pp.317-318) .

والعِبْرة هى مقدار المربوط من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأراضى ، وما يتحصّل من كل قرية من عَيْن وغلّة وصنف . (المقريزى : الخطط ١ : ٨١ و ٨٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٩ : ٥٣ هـ١ Cahen, Cl., «Le régime des impôts dans le Fayyum Ayyubide», Arabica III (1956), pp. 12-13) .

(٥) اتفق مع العمرى كل من ابن الجيعان والقلقشندى والسيوطى فى تحديد قيمة الدينار الجيشى بـ $\frac{1}{3}$ ١٣ درهم . (التحفة السنية ٣ ، صبح ٣ : ٤٣٨ ، حسن ٢ : ٣٢١)، بينما يذكر المقريزى أن قيمة هذا الدينار فى زمن الروك الناصرى سنة ٧١٥ هـ كانت متفاوتة من ٧ إلى ١٠ دراهم . (الخطط ٢ : ٢١٨ - ٢١٩) .

(٦) الدراهم السود . هى كالدينار الجيشى أسماء على غير مسميات . عرفت بذلك لتغير لونها مع طول الزمن ، ولذلك ميِّزت الدراهم الجديدة فى بعض الأحيان باسم الدراهم البيض . وانتشرت الدراهم السود فى مصر منذ أواخر العصر الأيوبى . (القلقشندى : صبح ٣ : ٤٣٨ ، طرخان : النظم الإقطاعية ٥٢٥ ، Rabie, H., op. cit., pp. 22, 184) .

وأما « الكَيْل » فيختلف فى مصر : الإِرْدَبُّ وهو ست ويبات [١] ، الوَيْبة أربعة أرباع [٢] ، الربع أربعة أَقْدَاح ، القَدَح مائتان واثنان وثلاثون درهماً [٣] ، هذا إردب مصر . وفى أريافها يختلف الإردب عن هذا المقدار إلى أنهى ما ينتهى ثمان وَيْبَات [٤] . وإنما المعهود التعامل أنما هو بالإردب المقدم ذكره .

والرِّطْلُ هو إثنا عشر أوقية ، الأوقية إثنا عشر درهماً ، فيكون الرطل مائة وأربعة وأربعون درهماً [٥] .

وأما دِمَشْق فهى بنظير [٣٧٧] المعاملة المذكورة ، خلا أن الصِّنْجة تتفاوت فتنقص كل مائة مثقال شامى مثقالاً وربعاً بمصر ، وكذلك الدراهم [كل مائة درهم درهم] [٦] .

والرِّطْل إثنا عشر أوقية ، الأوقية خمسون درهماً فيكون الرطل ستمائة درهم [٧] .

والغِرَارة للغلاَّت وهى إثنا عشر كيلاً ، كل كيل ستة أمداد ، المُدُّ ينقص قليلاً عن الربع المصرى [٨] . ونسبة ما بين الغِرَارَة والإِرْدَبّ أن كل غرارة ومدّ ونصف ثلاثة أرادب بالمصرى تحريراً . وفى بر دمشق ربما زاد الرطل والغرارة على الدمشقى حتى يكثر تفاوت ما بينهما لِعَظم زيادة بعض المواضع . ولكن كَيْل دمشق ورطلها هو المعتبر وإليه المرجع [٩] .

وأما حَلَب وحَمَاة وحِمْص فأرطالها أَزْيَد من الدمشقى [١٠] ، ولا تعرف الغرائر وإنما تعرف

---

[١] أى يساوى ستة وتسعين قدحاً . (القلقشندى : صبح ٣ : ٤٤١) .

[٢] أى ستة عشر قدحا . (نفسه ٣ : ٤٤١) .

[٣] قارن المصدر نفسه ٣ : ٤٤١ .

[٤] فى صبح ٣ : ٤٤١ . يبلغ الإردب فى بعضها إحدى عشر ويبة بالمصرى .

[٥] الشيزرى : نهاية الرتبة ١٦ ، ابن مماتى : قوانين ٤٥٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٤١ ، السيوطى : حسن ٢ : ٣٢١ ، طرخان : النظم الإقطاعية ٥١٨) .

[٦] القلقشندى : صبح ٤ : ١٨١ والزيادة منه .

[٧] نفسه ٤ : ١٨١ .

[٨] فى صبح : ينقص قليلا عن رُبُع الويبة المصرى .

[٩] القلقشندى : صبح ٤ : ١٨١ .

[١٠] فى صبح ٤ : ١١٨ ، ٢١٥ : « رطلها سبع مائة وعشرون درهما ، وأواقيه اثنتا عشر أوقية ، كل أوقية ستون درهما » .

المَكَاكيك [١] وتختلف زيادة بعضها على بعضها ، منها ما هو معتدل الغرارة مكوكان ونصف وما بين ذلك . كل ذلك تقريباً [٢] .

* * *

فأما مصر فمزروعها على النيل بعد زيادته [٣] وعمومه البلاد ، سوى قليل لا يُعْتبر به فى بلادها مما يُزْرع على المطر كأطراف البحيرة ، وما يزرع على الأنهر كالفيُّوم وماؤها من البحر المُسَمَّى اليُوسُفى المشتق من النيل لا ينقطع جريه أبداً على ما هو معروف من أمره .

وأكثر محاسن مصر مجلوبة إليها ، حتى بالَغَ بعضهم فقال : إن العَنَاصر الأربعة مجلوبة إليها : الماء وهو النيل مجلوبٌ من الجنوب ، والتراب مجلوبٌ فى حَمْل الماء ؛ وإلاَّ فهى رملٌ محض لا تنبت الزرع ، والنارُ لا يوجد بها شجرته وهو الصَّوَّان إلاَّ إذا جُلِب إليها ، والهواءُ لا يهب بها إلَّا من أحد البحرين إما الرومى وإما الخارج من القُلْزُم إليها [٤] ، ولقد زاد هذا فى تحامله .

وهى كثيرة الحبوب من القَمْح ، والشَّعِير ، والفُول ، والحُمُّص ، والعَدَس ، والبِسِلَّة ، واللُّوبيا ، والدُّخْن ، والأُرْز [٥] .

وبها الريَّاحين الكثيرة كالحَبَق ، والآس ، والورْد ، والنيلوفر ، والنَّسْرين ، والْبَان ، والتمر حنًّا [٦] ، والمنثور ، واليَاسَمِين [٧] .

---

(١) المكُّوك جـ . مَكَاكيك . مكيال للحبوب مقداره صاع ونصف صاع ، والصاع قدر نصف ويبة ، والويبة ثلاث كيلات . وهى ليست ذات سعة واحدة فى أنحاء البلاد الإسلامية . (الشيزرى : نهاية الرتبة ٢١٧ ، المقريزى : السلوك ١ : ٤٠٩ هـ١ ، طرخان : النظم الإقطاعية ٥١٧) .

يقول القلقشندى : صبح ٤ : ١١٨ ، ٢١٦ : « والمكوك المعتبر فى حاضرتها سبع ويبات بالكيل المصرى ، وأما فى نواحيها وبلادها ، فيختلف اختلافاً متبايناً فى الزيادة والنقص » .

(٢) القلقشندى : صبح ٤ : ١١٨ و ٢١٦ .

(٣) انظر وصف المؤلف لنهر النيل مسالك الأبصار ١ : ٦٧ - ٧٢ ولمعلومات أوفر عن أثر النيل فى مجتمع عصر المماليك راجع ، قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٨) .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٣٣٢ .

(٥) القلقشندى : صبح ٣ : ٣٠٧ ، السيوطى : حسن ٢ : ٣٣٢ .

(٦) فى الأصول : التامر حنا .

(٧) نفسه ٣ : ٣٠٨ ، نفسه ٢ : ٣٣٢ .

وبها [من المُحَمَّضَات] [١] الأُتْرُجُّ ، والنَارِنْج ، والليمون ، والحُمَّاض والكباد ، والموز الكثير ، وقَصَب السكر الكثير ، والرُّطب ، [٣٧٨] والعِنَب ، والتين ، والرُّمَّان ، والتوت ، والفِرْصاد ، والخَوْخ ، واللَّوْز ، والجُمَّيْز ، والنَّبْق ، والبرقوق ، والقَرَاصْيا ، والتفَّاح . وأما السَّفَرْجل والكُمِّثْرى فقليل ، وكذلك الزيتون مجلوبٌ إلَّا قليل فى الفيُّوم لا اعتبار به ، ولا من الجَوْز إلَّا ما قلَّ جداً ، ولا يوجد بها الفُسْتُق ولا البُنْدق ، وبها البطيخ الأصفر أنواع والأخضر ، والخِيَار ، والقِثَّاء على أنواع ، والقُلْقَاس ، واللِّفْت ، والجَزَر ، والقُنَّبيط ، والفجْل ، والبقول المنوَّعة [٢] .

وبها أنواعُ الدواب من الخَيْل ، والجِمَال ، والبِغَال ، والحَمِير ، والبَقَر ، والجواميس ، والغنم ، والمَعِز . ومما يوصف من دوابها بالجَوْدة الحُمُر لفراهتها ، والبقر والغنم لعظمها .

وبها الإِوَزُّ ، والدَّجاج ، والحَمَام .

ومن الوَحْش الغِزْلان ، والنَّعَام ، والأَرْنب .

فأما من أنواع الطَّيْر فكثير كالكركىّ ، والإوز وغير ذلك [٣] .

* * *

وأواسط « الأَسْعَار » فى غالب أوقاتها : الإِردب القمح بخمسة عشر درهماً ، والشعير بعشرة ، وبقية الحبوب على هذا الأنموذج ، وأما الأرز فيبلغ أكثر من ذلك . وأما اللَّحْم فأقل سعره الرطل نصف درهم وفى الغالب أزْيَد ، والدَّجاج يختلف سعره بحسب اختلاف أحواله ، فجيّده الطائر بدرهمين ، ومنها ما هو بثلاثة وقد يربو ، ومنها ما هو بدرهم واحد [٤] .

---

[١] زيادة من صبح الأعشى .

[٢] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٠٨ ، السيوطى : حسن ٢ : ٣٣٣ .
وقارن أصناف ما يزرع بمصر فى الفصول المختلفة عند ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ٣١ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٠١ - ١٠٣ .

[٣] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٠٩ و ٣١٠ ، السيوطى : حسن ٢ : ٣٣٣ .

[٤] القلقشندى : صبح ٣ : ٤٤٣ ، السيوطى : حسن ٢ : ٣٣٣ .

* * *

ويُعْمل بمصر معامل كالتنانير ويعمل بها البيض بصَنْعَة ، وتوقد يُحَاكَى بها نار الطبيعة ، فى حَضَانة الدجاجة البيض ، وتخرج فى تلك المعامل الفراريج ، وهى معظم دجاجهم [١] .

وبها ما يُستطاب من الألْبَان والأجْبَان . وبها العَسَل بمقدار متوسط بين الكثرة والقلَّة . وأما السكر فكثير جداً وقيمته المعهودة من على الغالب من السعر الرِّطْل بدرهم ونصف وربما زاد . ويُعمل بها المكرَّر الفائق وتبلغ قيمته درهمين ونصف لكل رطل [٢] . ومنها يُجْلب السكر على اختلاف أنواعه إلى كثير من البلاد ، وقد نُسِيَ بها ما كان يُذْكر من سكر الأهْوَاز [٣] .

وبها الكِتَّان المعدوم المثل المنقول منه ومما يُحْمل من قماشه إلى أقطار البلاد [٤] ، ولقد أرانى خَوَاجَا جمال الدين [٣٧٩] يوسف الماخورى مقاطع شَرَباً أبيض من الصنف الممرَّش استعملها بالإسكندرية على أنه يقدّمها للسلطان أبى سعيد كأنها جناح الزنبور ، لا أظن أنه يعادلها فى الدنيا قماش ، قال : إنه استعملها وتَقَوَّم عليه كل مَقْطَع منها ساذجاً [٥] بسبعمائة درهم ورقاً ، ويقوَّم طَرْزُه وهو ساذج بمثل ذلك ، فيقوَّم جملة المقطع الواحد بألف وأربع مائة درهم ورقا عنها سبع مائة درهم نُقْرَة [٦] ليس فيه إلاَّ الكِتَّان وما قلَّ من الحرير فى طرزه ، على أنه لا يكون غالباً لطرز إلَّا من الكِتَّان ، فإن الأبيض فيه لا يكون من الحرير أبداً ، ومنه تكون الكتابة وهى حَلْى الطِّراز . وقال لى : إن الكِتَّان يبتاع الدرهم منه بأكثر منه ، وأما ما يدخل فى الطَّرْز فيبتاع بنظير وزنه مرات عِدَّة .

---

(١) السيوطى : حسن ٢ : ٣٣٣ وقارن عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ٣٠ - ٣٢ .

(٢) القلقشندى : صبح ٣ : ٤٤٣ .

(٣) نفسه ٣ : ٣٠٩ ، السيوطى : حسن ٢ : ٣٣٣ .

(٤) السيوطى : حسن ٢ : ٣٣٣ .

(٥) الساذج . ما لا نقش فيه من القماش . (المقريزى : السلوك ٢ : ٦٣٢ هـ) .

(٦) انظر أعلاه ص ١٤ هـ .

قلت : وهذا الشَرَب هو الذى تفوق به الإسكندرية البلاد أكثر من بقية ما يعمل فيها من القماش على اختلاف أجناسه وأنواعه [1] .

---

[1] عن طراز الإسكندرية وما كان يصنع به راجع ، ابن مماتى : قوانين ٣٣٠ - ٣٣١ ، القلقشندى : صبح ١١ : ٤٢٥ - ٤٢٦ ، المقريزى الخطط ١ : ٤٦٩ ، Marzouk, M.A., «History of Textile Industry in Alexandria», Alexandria 1955; id., «The Tiraz Institutions in Mediaeval Egypt» in «Studies in Islamic Arts and Architecture in Honour of K.A.C. Creswell, London 1965, pp. 157-162; Grohmann, A., EI., art. «Tiraz», IV, pp. 825-24 .

3

[مملكة مصر]

ثم نعود إلى ذكر مصر فنقول : وأما مبانيها فقليلٌ منها بالحَجَر وأكثرها بالطوب وأفلاق النخل والجريد . وخَشَب الصَّنَوْبر مجلوبٌ إليهم من بلاد الروم فى البحر ويسمى عندهم النَّقْى [١] .

وبها المَدَارِس والخَوَانِق والرُّبَط والزَّوَايا والتُّرَب الضخمة والعمائر الجليلة الفائقة ، والأماكن المعدومة المَثَل المفروشة بالرخام المنقوشة [٢] بالأخشاب المدهونة بأنواع الأصْبَاغ الملمَّعَة بالذهب واللازَوَرْد [٣] . ومن حيطانها ما هو موَزَّر بالرخام ، وتختلف المبانى بحسب اختلاف أصحابها [٤] .

وحاضِرَةُ مصر تشتمل على ثلاث مدنٍ عِظَام [٥] :

« الفُسْطَاط » وهو بناء عمرو بن العاص وهى المُسَمَّاة عند عامة أهل مصر « بمصر العتيقة » [٦] .

و « القَاهِرَةُ المُعِزِّيَّة » . بناها القائد جوهر لمولاه الخليفة المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى [٧] .

---

(١) السيوطى : حسن ٢ : ٣٣٣ .

(٢) فى حسن المسقوفة .

(٣) نفسه ٢ : ٣٣٣ .

(٤) القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٦ .

(٥) الخالدى : المقصد الرفيع المنشا ٨٣ و ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٢٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٣٣٣ وانظر فيما يلى ص ٨٠ .

(٦) عن تاريخ مدينة الفسطاط وتخطيطها راجع ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ٩١ – ١٢٨ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب (قسم مصر) ، القاهرة ١٩٥٣ ، ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار (القاهرة ١٨٩٣) ٤ : ٢ – ١٠٩ ، القلشقندى : صبح الأعشى ٣ : ٣٢٥ – ٣٤٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٨٥ – ٣٠٤ ، على بك بهجت : حفريات الفسطاط (دار الآثار العربية – القاهرة ١٩٢٨) Guest, A. R., « The Foundation of Fustat and the Khittahs of that town », JRAS (1907), pp. 49-61; Casanova, P. « Essai de reconstitution topographique de la ville d'al-Foustat ou Misr », MIFAO 35 (1919); Jomier, J., EI., art. « al-Fustat », II, pp. 979-981 وأحدث ما كتب عن الفسطاط Kubiak, W., « Al-Fustat its foundation and early urban development »; Warzawa 1982 .

(٧) أهم مصادر دراسة تاريخ القاهرة ، المقريزى : =

و « قَلْعَة الجَبَل » [١] بناها قَرَاقُوش [٢] للملك الناصر صلاح الدين أبى المُظَفَّر يوسف بن أيُّوب رحمه الله تعالى ، وأوّل من سكنها أخوه العادل [٣] .

وقد اتصل بعض هذه الثلاثة بسورٍ بناه قَرَاقوش بها إلاَّ أنه قد تقطَّع الآن فى [٣٨٠] بعض الأماكن [٤] . وهذا السور هو الذى ذكره الفاضل فى كتابٍ كتبه إلى صلاح الدين ، فقال : « والله يُحْى المَوْلى حتى يستدير بالبلدين نِطَاقُه ، ويمتدُّ عليهما رواقُه ، فهما عقيلة ما كان معصمهما ليُتْرك بغير سوار ، ولا خصرهما ليُجْلى بلا مِنْطَقة نضار [٥] . والآن قد استقرَّت خواطِرُ الناس وأمنوا به من يدٍ تتخطَّف ومن طَمَع مجرم يقدم ولا يتوقف ، وقد عظمت » .

= الخطط (بولاق ١٢٧٠ هـ) ، ابن دقماق : الانتصار (القاهرة ١٨٩٧) ، القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٣٤٤ - ٣٦٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة وتعليقات محمد رمزى عليها ، على مبارك : الخطط التوفيقية ١ - ٢٠ (بولاق ١٣٠٤ هـ) و ١ - ٤ (القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٨١) .

ومن الدراسات الحديثة Ravaisse, P., « Essai sur la topographie du Caire d'après Maqrizi », MIFAO I (1889), pp. 409-480; III (1889), pp. 33-114., Lane- Poole, S., « The story of Cairo, London 1900 نقله إلى العربية حسن إبراهيم حسن وآخرون بعنوان « سيرة القاهرة » (القاهرة ١٩٥٠) ، Becker , C.H., EI., art . « Caire » I, pp. 835-846., Wiet, G., « Cairo : city of arts and commerce », Oklahoma 1964 نقله إلى العربية مصطفى العبادى بعنوان « القاهرة مدينة الفن والتجارة » (بيروت ١٩٦٨) ، عبد الرحمن زكى : القاهرة (١٩٤٣) ومراجع تاريخ القاهرة (القاهرة ١٩٦٤) ، Rogers , J.M. & Jomier, J., EI., art . «al- Kâhira», IV, pp. 442-464; Abu Lughod, J., «Cairo : 1001 years of the city victorious », Princeton 1971; Staffa, S.J., « Conquest and fusion — social evolution of Cairo », Leiden 1977; Garcin, J. Cl., « Palais, et Maisons du Caire - Epoque Mamelouke», Paris CNRS 1982, pp. 145-215. ويُعِدُّ كاتب هذه السطور أطروحة بجامعة باريس عنوانها « عاصمة مصر فى زمن الفاطميين ، تخطيطها وحياتها الاقتصادية والاجتماعية » .

[١] عن قلعة الجبل انظر فيما يلى ص ٧٩ - ٨٤ .

[٢] راجع مقال Sobernheim, M., EI. art. «Karakush» IV, 638.

[٣] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٩ ، السيوطى : حسن ٢ : ٢٣و ٣٣٣ .

والصواب أن الذى أكمل بناء القلعة وسكن بها الملك الكامل محمد فى سنة ٦٠٤ هـ . (المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٤ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٧٨) .

[٤] أقيم سور القاهرة ثلاث مرات المرة الأولى عند بناء القاهرة فى سنة ٣٥٨ وضعه جوهر قائد المعز لدين الله وكان من الطوب اللبن . وفى سنة ٤٨٠ وسع أمير الجيوش بدر الجمالى القاهرة من جهتيها الشمالية والجنوبية ونقل أسوارها إلى حيث يحدد موقعها اليوم أبواب الفتوح والنصر فى السور الشمالى وباب زويلة فى السور الجنوبى . ولما تولى صلاح الدين الأيوبى عهد إلى بهاء الدين قراقوش ببناء سور يحيط ليس فقط بالقاهرة ولكن بالفسطاط وما تبقى من القطائع امتد فى جهته الشمالية ليحيط أيضاً بالمقس . (المقريزى : الخطط ١ : ٣٧٧ - ٣٨٠) .

[٥] السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٣٣٣ - ٣٣٤ .

وبها « المَارِسْتَان المَنْصورى » المعدوم النظير [١] لعَظَمة بنائه وكثرة أوقافه [٢] ، وسَعَة إنفاقه وتنوّع الأطباء وأهل الكَحْل والجراح به . وهو جليل المقدار جميلُ الآثار ، جزيلُ الإيثار . وَقَفَه السلطان الملك المنصور قلاوون رحمه الله [٣] .

وبها « البَسَاتِين » الحِسَان ، والمَنَاظر النَّزِهَة ، والأدوار المُطِلَّة على البحر وعلى الخلجانات الممتدَّة منه أوقات مدّها [٤] .

وبها « القَرَافة » تُرْبَةٌ عظمى لمَدْفَن أهلها [٥] .

وبها « العَمَائِر الضخمة » ، ولها المُتَنَزَّهات المستطابة ، وهى من أحسن البلاد إبَّان ربيعها للغُدُرِ الممتدَّة من مقطعات النيل بها وما يحِفُّها من زروع أخرجت شطأها وفتّقت أزهارها [٦] .

---

(١) السيوطى : حسن ٢ : ٣٣٤ .

مازال المارستان المنصورى قائماً بشارع المعز لدين الله فى مواجهة بقايا المدرسة الظاهرية وقبة الصالح نجم الدين أيوب . راجع عنه ، ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ٥٥ – ٥٧ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٥ – ٣٦٦ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٤٠٦ – ٤٠٨ والسلوك ١ : ٧١٦ – ٧١٧ و ٧٢٥ و ٧٩٧ – ١٠٠٠ (ونقلا عن النويرى) ، أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٧ : ٣٢٥ – ٣٢٦ هـ ٢، أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام (دمشق ١٩٣٩) ٨٣ – ١٧١ ، محمد محمد أمين : « وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصورى » نشرها فى أخر كتاب ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه (القاهرة ١٩٧٦) ١ : ٢٩٥ – ٣٩٦ والأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر (القاهرة ١٩٨٠) Creswell, K. A. C., MAE, II, ١٧٣ – ١٥٧ . pp. 204-210

(٢) السيوطى : حسن ٥ : ٣٣٤ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٣٦٦ مع تقديم وتأخير فى العبارة .

وراجع « وثيقة وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصورى » ، دراسة ونشر وتحقيق محمد محمد أمين ، ملاحق كتاب « تذكرة النبيه » لابن حبيب ٢٩٣ – ٣٩٦ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٣٦٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٣٣٤ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ٣ : ٣٣٤ .

وعن القرافة راجع ، القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٣٧٤ – ٣٧٥ ، ابن الزيَّات : الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ٣٦ – ٣٧ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٤٤٣ – ٤٤٥ ، Massignon, L., « La Cité des morts au Caire (Qarafa - Darb al - Ahmar) », BIFAO 57 (1958), pp. 25-79; Raģib, Y., « Essai d'inventaire chronologique des guides à l'usage des pèlerins du Caire » , REI 41 (1973), pp. 259-280; Rogers, J.M., EI., art. « al Kâhira », IV, pp. 443-447 .

(٦) القلقشندى : صبح ٣ : ٣٣٤ ، السيوطى : حسن ٢ : ٣٣٤ .

وبها « الآثار القديمة » الدَّالة على حِكْمَة بانيها « كالأَهْرَام » [١] : وأشهرها الهرمان الكبيران بالجيزة وبَرَابى أَخْمِيم . فأما بقية ما يُذْكر من البرابى والملاعب بالأُشْمُونَيْن وأَنْصِنَا وقِفْط وعَيْن شَمْس ومَنَارَة الإسكندرية والبيت الأخضر بمضرب يوسف عليه السلام . فكلُّ هذه قد غَيَّر الدهرُ معالمها ، وطَمَس آثار غالبها ، وشَرَع الخراب بالهرمين الكبيرين والبَرَابى بأخميم لأخذ حجارتها وتغيير بهجتها .

وبها الصَّنَم المقارب للهرمين المُسَمَّى عند العامة « بأبى الهَوْل » ، وهو صَنَمٌ كبير لا يبين منه إلاَّ إلى قريبٍ من نصفه [٢] .

والقول فى الأهرام والبَرَابى [٣] كثير والأقرب أن الأهرام هياكل لبعض الكواكب . فأما البرابى فقال لى شمس الدين أبو عبد الله محمد بن شُقَيْر الدمشقى [٤] : إنه رأها وأجاد تأمَّلها فوجَدَها مشتملة على جميع أشكال الفَلكَ ، وأن الذى ظَهَر له أنه لم يعملها حكيم واحد ولا مَلِكٌ | ٣٨١ | واحد ، بل تولَّى عملها قومٌ بعد قوم حتى تكاملت فى دورٍ كامل ، وهو ستة وثلاثون سنة [٥] ، لأن مثل هذه الأعمال لا تُعْمل إلاَّ بالأَرْصَاد ، وما يكتمل رَصْد المجموع فى أقل من هذه المدة المذكورة [٦] . هذا ما أخبرنى به عنها .

---

[١] انظر حديث المؤلف عن الأهرام وزيارته لها فى الجزء الأول ص ٢٣٥ - ٢٣٧ ، وراجع ، المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٧٧ - ٧٨ ، عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ٣٦ - ٥٢ ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ٣١ - ٣٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ١١١ - ١٢٢ ، السيوطى : حسن ١ : ٧٠ - ٧٩ .

وعن الآثار القديمة فى كتب المؤلفين المصريين فى العصر الإسلامى راجع ، Haarmann, U., «Regional sentiment in medieval Islamic Egypt », BSOAS XLIII (1980),pp. 55-66; id., EI., art . « al - Idrisi », Suppl., 407-408 وهو يعد نشرة لكتاب « أنوار علو الأجرام فى الكشف عن أسرار الأهرام » للإدريسى ، جمال الدين أبو جعفر محمد بن عبد العزيز المتوفى سنة ٦٤٩ هـ ، ،.Cook, M «Pharaonic history in Medieval Egypt », SI 57(1983) .

[٢] انظر أيضاً حديث المؤلف عن أبى الهول فى الجزء الأول ص ٢٣٨ وفيه أنه لم يكن يظهر منه فوق سطح الأرض إلاّ رأس الصنم وعنقه ، وهكذا عاينه أيضاً عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ٤٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٢٢ - ١٢٣ . وانظر مقال هارمان ،.Haarmann, U « Die Sphinx Synkretistische Volksreligiositat in spatmittelalterlichen islamischen Agypten » in Saeculum XXIX (1978),pp. 367-384 .

[٣] انظر ، المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٩٠ - ٩١ ، السيوطى : حسن ١ : ٦٥ .

[٤] فى صبح ٣ : ٣٢٣ محمد بن سعيد الدمشقى ، وفى مسالك الأبصار ١ : ٢٤٠ محمد بن النقاش .

[٥] فى صبح ٣ : ٣٢٣ ثلاثون ألف سنة ، وهو وهْم .

[٦] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٢٣ .

وكتب القاضى محيى الدين بن الزكىّ [١] إلى القاضى الفاضل كتاباً ذكر فيه مصر وسمَّاها بالمُومِسَة ، فعزَّ ذلك عليه ، وذكر فى جوابه إليه : « وهجم بى التأمل على لَفْظَة أطلقها على مصر وكنّى بها عنها ، ووصمها بما وسمها وبت من القلوب عَصْمَها ، وأظنه عاقبها بذنب فِرْعَون حين قال : ﴿ أنا ربُّكُم الأعْلَىٰ ﴾ [الآية ٢٤ سورة النازعات] ، وحين قال : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْر ﴾ [الآية ٥١ سورة الزخرف] ، كما فَعَل الرشيد وولَّى الخصيب [٢] ، فإن كان إلى هٰهنا ذهب فقد عاقبها بذنبٍ لم تجنه ، وهدمها بأمرٍ لم تبنه . وعلى كل حال فلو كان على نفسى لكنت معه عليها ، ولو بعث سهما إليها لتولَّت يدى إلقاءه إليها ، فلقد أخرجنى من أرضه بسحره ، وندم خادمه على ما فات فيها من عمره ، فهو الآن لا يرفع إليها طرفاً من كسله ، ولا يرى نيلها إلاَّ أقل من مسيل بَرَدَى وَوَشَله ، وإذا رأى دينارها الأحمر قال : به حُمْرة من خجله ، وإذا رأى إبليزها الأسود قال : من سَوَاد عمله ، وإذا رأى هرميها قال : انكسر نهداها ، وإذا رأى رملتها الحاقة قال : شاب فؤادها . ثم راجع النظر فإذا اللفظة التى أطْلَقها سيدنا عليها وهى المُومِسَة تأبى العِلْقَة فكيف له أن يقذف المستورة بهذا القَذْف ، ويهجم على خِدْرها بهذا الوصف ، وقد وفَد إليها عن شامه حين أخذ الكفر يَمْتَحِق إسلامه فأنجدته وأصرخته وسكَّنت الرَّوع وأفرحته ، وعاد إلى الفائت الدرك وقال الناس ﴿ ما هَذٰا بشراً إنْ هَذٰا إلاَّ مَلَكٌ ﴾ [الآية ٣١ سورة يوسف] . وإذا كانت دمشق من عتقاء مصر فلا فخر لها أن تكون مولاتها مُومِسة ، وقد سرَّت بهذه اللفظة فما كأنها دخلت كتابه ولا مجلسه » .

---

[١] هو القاضى محيى الدين محمد بن على بن محمد بن يحيى بن على بن عبد العزيز قاضى قضاة الشام ، ولد سنة ٥٥٠ هـ وتوفى سنة ٥٩٨ هـ . (راجع فى ترجمته ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤ : ٢٢٩ - ٢٣٧ ، الذهبى : العبر ٤ : ٣٠٥ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٤ : ١٦٩ - ١٧١ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ١٥٧ - ١٥٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ : ٣٢ - ٣٣ ، أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٦ : ١٨١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٤ : ٣٣٧ - ٣٣٨) . قال الصفدى : ومكاتبات القاضى الفاضل إليه مجلدة كبيرة .

[٢] أبو نصر الخصيب بن عبد الحميد ، صاحب ديوان خراج مصر . (المقريزى الخطط ١ : ٢٠٥ ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ٣٧ - ٣٩) . وقصده أبو نواس لمدحه فى مصر (ابن خلكان وفيات الأعيان ٨ : ١٠٢ « الفهرس ») .

* * *

قلت : وأما « الشَّام » فيزرع غالبه على المطر ، وهو من جميع ما ذكر فى مصر من الحبوب . ومنه ما هو على سَقْى الأنهار ، وهو قليل [١] .

وبها أنواع الأشجار وأجناس الثمار [٣٨٢] من التِّين ، والعِنَب ، والرُّمَّان ، والسَّفَرْجل ، والتفَّاح ، والكُمَّثْرى ، والإجّاص ، والقَرَاصيا ، والتُّوت ، والقِرْصَاد ، والمِشْمِش ، والزُّعْرور ، والخَوْخ – وهى المسمى عندهم الدَّراقِن – وأجلها بدمشق من غالب ذلك على أنواع منوَّعة وأجناس متعدِّدة شتى . ومنها فواكه تأتى فى الخريف وتبقى إلى الربيع كالسَّفَرْجل ، والتفَّاح ، والرمَّان ، والعنب [٢] .

وبها الجَوْز ، واللَّوْز ، والفُسْتُق ، والبُنْدُق [٣] .

وبها الليمون ، والأُتْرُجّ ، والنَّارِنْج ، والكبَّاد ، والمَوْز ، وقَصَب السكر من أغوارها يُحمل إليها من نحو يومين وأزْيَد [٤] .

وبها البَطِّيخ الأصفر والأخضر على أنواع ، والخِيَار ، والقِثَّاء ، واليَقْطين ، واللِّفْت ، والجَزَر ، والقُنَّبيط ، والهِلْيَوْن ، والبَاذنجان ، والملوخية ، والبَقْلَة اليمانية ، والرِّجْلَة ، وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة [٥] .

ونهر دمشق الخاص بها بَرَدَىٰ [٦] ، وبها غيره من الينابيع [٧] والأنهار المادة فيما حولها [٨] .

وبها الإوَزُّ والدجاج والحمام وكثير من أنواع الطير ، ولا تكون الفراريج إلاَّ بحضانة ، لا كما

---

[١] القلقشندى : صبح ٤ : ٨٦ .
[٢] نفسه ٤ : ٨٧ .
[٣] نفسه ٤ : ٨٧ .
[٤] نفسه ٤ : ٨٧ .
[٥] نفسه ٤ : ٨٦ – ٨٧ .
[٦] انظر مسالك الأبصار ١ : ٨١ .
[٧] م ، ت : المنابيع .
[٨] عن أنهار وبحيرات الشام ، انظر العمرى : مسالك الأبصار ١ : ٧٩ – ٨٢ ، القلقشندى : صبح ٤ : ٧٩ – ٨٥ .

يُعمل فى مصر . ولقد أذكر أنه جاءها شخص من مصر فى زمن الصيف [١] وعمل بها فى حاضرة العُقَيْبة معمل الفراريج وطلعت به الفراريج ، فلما أتى زمن الخريف لم تطلع معه وخَسرَ وترك ذلك وعاد إلى مصر [٢] .

وأسعارُ اللحم أرْخَص من مصر . وأما الدجاج فنظيرها ، وأما الإوزُّ فأغلى [٣] .

وبها العسل متوسط ، ويعمل بها السكر ومنه المكرَّر وهو بأزْيَد من سعره فى مصر ولا يكثر [٤] .

وبها أنواع الرِّياحين : الآس ، والوَرْد ، والبَنَفْسج ، والنيلوفر ، والخلاف ، والنرجس ، والمنثور ، والياسمين ، والترنجان ، والمردنجوس ، والتمام ، والنِّسْرين . وإلى وردها وبنفسجها النهاية ، حتى إنه عطَّل وردها وما يستخرج من مائه ما كان يذكر من جُوَر ونصيبين [٥] . وماء الورد ينقل إلى غالب البلاد [٦] .

وبالشام الزيتون الكثير ومنه يحمل إلى كثير من البلاد . وبها أشياء كثيرة خاصة بها .

وغالب مبانى الشام بالحَجَر ، ودُورُها أصغر مقادير من دور مصر ، ولكنها أزْيَد زخرفة منها ، وإن كان الرخام بها أقل ، وإنما هو أحسن أنواعاً .

وعناية أهل دمشق بالمبانى كثيرة ، ولهم فى بساتينهم منها ما تفوق به [٣٨٣] وتحسن بأوضاعه . وإن كانت حَلَب أجلُّ بناءً لعنايتهم بالحجر ، فدمشق أزْيَنُ وأكثر رونقا لتحكم الماء على مدينتها وَتَسلُّطه على جميع نواحيها [٧] .

وبجميع الشام وجوه الخير كثيرة من المَدَارس ، والخَوَانِق ، والرُّبَط ، والزَّوايا للرجال والنساء ، والمارستانات ، وأوْقَاف البِرِّ والصدقات على اختلافها ، وخصوصاً دمشق فإنه لا يطاول فى

---

[١] ث : المصيف .
[٢] القلقشندى : صبح ٤ : ٨٨ .
[٣] نفسه ٤ : ١٨٢ .
[٤] نفسه ٤ : ٨٨ .
[٥] نفسه ٤ : ٨٧ .
[٦] ساقطة من م .
[٧] القلقشندى : صبح ٤ : ٩٣ .

ذلك باعُها ، ولا يحاول فى هذه الغاية ارتفاعها . فأما مسجدُها الجامع فهو الفارق بينها وبين ما سواها والفائق بحُسْنه على كل المبانى [١] .

وفى هذه المملكة – مصر والشام – من مَحَاسِنِ الأشياء ولطائف الصنائع ما تكفى شهرته . وبها من أنواع الصنَّاع فى الأسلحة والقماش والزركش والمصوغ والكَفْت وغير ذلك ، مما يكاد يُعدُّ تفرُّدها به ، والرِّماح التى لا يعمل فى الدنيا أحسن منها .

[عَسَاكِرُ المَمْلَكَة]

وأما عساكر هذه المملكة [٢] فمنهم من هم بحضرة السلطان ، ومنهم من فُرِّق فى أقطار هذه المملكة وبلادها . ومنهم سكان بادية كالعَرَب والتُرْكُمان [٣] .

وجندها مختَلَط من أتراك وجركس وروم وأكْرَاد وتُرْكُمان ، وغالبهم من المماليك المبتاعين ، وهم طبقات [٤] :

أكابرهم منْ له « إمْرَة مائة » فارس ، وتقدمة ألف فارس . ومن هذا القبيل يكون أكابر النوَّاب ، وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين [٥] .

---

[١] انظر فيما يلى ص ١٠٥ هـ ١ .

[٢] راجع فى هذا الموضوع Ayalon, D., « Studies in the structure of the Mamluk army », BSOAS 15 (1953), pp. 203-228, 448-476; 16 (1954), pp. 57-90; Humphreys, R.S., « The emergence of the Mamluk army », SI 46 (1977), pp. 147-182 ، السيد الباز العرينى : « الفارسى المملوكى » ، المجلة التاريخية المصرية ٥ (١٩٥٦) ٤٧ – ٧٢ ، إبراهيم حسن سعيد : الجيش فى عصر سلاطين المماليك (رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ١٩٦٣) ، محمود نديم : الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى ، القاهرة ١٩٨٣ .

[٣] السيوطى : حسن ٢ : ١٢٩ .

[٤] النويرى : نهاية الأرب ٨ : ١٩٦ – ٢٠٦ ، العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ٧٣ – ٧٤ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٤ – ١٦ و ٧ : ١٥٨ – ١٥٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٩٥ و ٢ : ٢١٥ – ٢١٩ ، الظاهرى : زبدة كشف الممالك ١١٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٢٩ ، ماجد : نظم سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ١ : ١٣٨ – ١٣٩ .

[٥] القلقشندى : صبح ٤ : ١٤ و ٦ : ٢٠١ – ٢٠٢ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٥ ، الظاهرى : زبدة ١١٣ ، السيوطى : حسن ٢ : ١٢٩ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٢٤٩ – ٢٥٩ ، و ١١٢٧ – ١١٢٨ .

ثم « أمراء الطَّبْلَخَانات » ومعظم من تكون له إمرة أربعين فارساً ، وقد يوجد فيهم من له أزْيَد من ذلك إلى السبعين ، ولا تكون الطَّبْلخانات لأقل من أربعين [١] .

ثم « أمراء العَشَرات » ممن تكون له إمرَة عشرة ، وربما كان فيهم مَنْ له عشرون فارساً ولا يُعَدُّ إلاَّ فى أمراء العشرات [٢] .

ثم « جُنْدُ الحَلْقة » وهؤلاء تكون مناشيرهم من السلطان ؛ كما أن مناشير الأمراء من السلطان ، وأمَّا أجناد الأمراء فمناشيرهم من أمرائهم . وهؤلاء ، جُنْد الحلْقة ، لكل عدة أربعين نفراً مقدم منهم ليس له عليهم حكم إلاَّ إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه وترتيبهم فى موقفهم إليه [٣] .

---

[١] القلقشندى : صبح ٤ : ١٤ و ٦ : ٢٠١ — ٢٠٢ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٥ ، الظاهرى : زبدة ١١٣ ، السيوطى : حسن ٢ : ١٢٩ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٢٤٩ — ٢٥٩ و ١١٢٧ — ١١٢٨ .

والطَّبْلخاناه جـ . طبلخانات . لفظ مركب من كلمة طبْل العربية ، وكلمة خاناه الفارسية ، ويعنى بيت الطبل أو الفرقة الموسيقية السلطانية . (المقريزى : السلوك ١ : ٤٦ هـ ٢ و ٢ : ٥٢١ هـ ٢) . وكانت تتكون من عدة طبول تصحبها أبواق وزمر تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص ، تدُق فى كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وتكون صحبة الطُّلب فى الأسفار والحروب . (القلقشندى : صبح ٢ : ١٣٤ و ٤ : ٨ — ٩ و ١٣) .

والناصر محمد بن قلاوون هو الذى بنى الطبلخاناه تحت القلعة ، فيما بين باب السلسلة وباب المدرَّج سنة ٧٢٢ هـ فى موضع دار العدل القديمة التى بناها الظاهر بيبرس . (المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٣) .

[٢] القلقشندى : صبح ٤ : ١٥ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٥ ، الظاهرى : زبدة ١١٣ ، السيوطى حسن ٢ : ١٢٩ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٢٣٧ — ٢٤١ .

[٣] النويرى نهاية الأرب ٨ : ٢٠٣ — ٢٠٦ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٦ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٦ ، الظاهرى : زبدة ١١٤ ، السيوطى : حسن ٢ : ١٢٩ .

وقسَّم القلقشندى والمقريزى الجيش المصرى فى زمن المماليك البحرية إلى قسمين : أجناد الحَلْقة والمماليك السلطانية . وبلغ جنْد الحلقة ذروتهم فى أيام الناصر محمد ابن قلاوون فقد بلغ عددهم كما رآهم المقريزى بنفسه فى جرائد ديوان الجيش المتعلقة بأوراق الروك الناصرى أربعة وعشرين ألف فارس . (صبح ٤ : ١٥ — ١٦ ، الخطط ١ : ٩٥) .

وجنْد الحلْقة هم محترفو الجندية وكانوا يكوّنون عَصَب الجيش المماليكى . ويمثلون فيما بينهم وحدة اجتماعية عسكرية ، ولكنهم قلّت أهميتهم قرب نهاية عصر المماليك .

أما اسم الحَلْقة الذى أطلق عليهم فلا يوجد له تفسير مقنع إلى الآن وإن كان يفترض أنهم كانوا فى البداية وحدة تحيط بالسلطان كالحلقة مكوِّنة حرسه الشخصى فاكتسبت من هنا هذا الاسم . (راجع ، المقريزى : السلوك ١ : ١٢٢ هـ ٢ و ٢٨١ هـ ٥ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٣٦٥ — ٣٦٨ ، طرخان : النظم الإقطاعية ٤٧٨ ، إبراهيم سعيد : الجيش فى عصر سلاطين المماليك ٨٧ — ١٠٥ ، محمود نديم : الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى ١٠٥ — ١٢٠ ، Ayalon, D., EI., art. « Halka », III, pp. 101-102 .

ويبلغ بمصر إقطاعُ بعض أكابر الأمراء المئين المقرَّبين من السلطان مائتى ألف دينار جَيْشية ، وربما زادت على ذلك [١] . وأما غيرهم فدون ذلك ودون [٣٨٤] دونه ، ودون دونه إلى ثمانين ألف دينار وما حولها . وأما الطبلخانات فتبلغ الثلاثين ألف دينار وما يزيد ، وينقص عليها إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار . أما العَشَرات فنهايتها سبعة [٢] آلاف دينار إلى ما دون ذلك . وأما إقطاعات جُنْد الحَلْقة فمنه ما يبْلُغ ألف وخمس مائة دينار . ومِنْ هذا المقدار وما حوله إقطاعات أعيان الحَلْقَة المقدَّمين عليهم ، ثم ما دون ذلك إلى مائتين وخمسين ديناراً [٣] . وأما إقطاعات جند الأمراء فإلى ما يراه الأمير من زيادة بينهم ونقص [٤] .

وأمَّا إقْطَاعَاتُ الشام فلا تُقَارب هذا المقدار ، بل تكون على الثلثين منها ، خلا ما ذكرناه عن بعض أكابر أمراء المئين المقرَّبين ، فإن هذا نادرٌ لا حُكْمَ له ولا أعرف فى الشام ما يُقَارب هذا المقدار إلاَّ ما هو لنائب الشام [٥] .

وكل جُنْد الحَلْقة والإمْرَة تُعْرَض بديوان جيش السلطان ويثبت باسمه وهيئته وحليته ، ثم لا يستدل به أميره إذا شاء إلاَّ تنزيل عِوَضَه وعرض المعوض [٦] .

وللأمراء على السلطان فى كل سنة ملابس ، فأما مَنْ بحضرته فحظُّهم فى ذلك وافرٌ ، ولهم الخيول فى كل سنة يُنْعم بها عليهم ، ولأمراء المئين مسْرَجة ملْجَمة والبقية عُرْى ، وتمتاز خاصتهم على عامتهم بذلك [٧] .

ولجميع الأمراء بحضرته ، من المئين والطَّبْلَخانات والعشرات ، الرواتبُ الجارية فى كل يوم : من اللَّحم وتوابله كلّها ، والخبز ، والشعير ، والزيت ، ولبعضهم الشمع والسكر والكُسْوة فى السنة ،

---

[١] القلقشندى : صبح ٤ : ٥٠ ، السيوطى : حسن ٢ : ١٢٩ .

[٢] فى صبح : تسعة .

[٣] القلقشندى : صبح ٤ : ٥٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٦ ، السيوطى : حسن ٢ : ١٢٩ .

[٤] المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٦ .

[٥] القلقشندى : صبح ٤ : ٥٠ و ١٨٣ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٦ ، السيوطى : حسن ٢ : ١٢٩ .

[٦] المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٦ .

[٧] القلقشندى : صبح ٤ : ٥٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٦ .

وكذلك لجميع مماليك السلطان وذوى الوظائف من الجند . وإذا نشأ لأحد الأمراء ولدٌ ، أُطْلَق له دنانيرٌ ولحم وخبز وعليق إلى أن يستأهل الإقطاع فى جملة الحَلْقة . ثم منهم مَنْ يُنْقل إلى العشرة أو إلى الطَّبْلَخانات حسب الحظوظ والأرزاق [١] .

وإذا ركب هذا السلطان إلى الميدان للَعِب الكُرَة يفرِّق حَوَايصَ [٢] ذهب على المقدَّمين [٣] . وركوبه إلى الميدان يكون دائماً يوم السبت فى قوَّة الحرّ نحو شهرين من السنة ، يفرق فى كل ميدان على اثنين بالنوبة ، فمنهم مَنْ تجىء نوبته بعد ثلاث سنين [٣٨٥] أو أربع سنين [٤] .

ولكل ذى إِمْرَة بمصر من خواصِّه عليه السكر والحَلْواء فى رمضان ، والأُضْحِية فى عيد الأضحى ، على مقادير رُتَبهم [٥] والبرسيم لتربيع دوابِّهم ويكون فى تلك المدَّة بدل العليق المرتَّب لهم [٦] .

ومِنْ مُصْطلح صاحب مصر أنْ تكون تفرقته الخيل على أمرائه فى وقتين :

أحدهما عندما يخرج إلى مَرَابِط خيله فى الربيع عند اكتمال تربيعها ، وفى ذلك الوقت يعطى أمراء المئين مُسْرَجة ملْجَمة بكَنَابيش مذْهَبة ؛ والطَّبْلَخانات عُرْياً [٧] .

---

(١) نفسه ٤ : ٥١ ، نفسه ٢ : ٢١٦ .
وعن نظام دفع رواتب الجيش المماليكى انظر مقال آيالون Ayalon, D., « The System of payment in Mamluk military Society », JESHO I (1957), pp. 37-65, 257-296 .

(٢) حِيَاصَة (حواصة) جـ . حوايص . المِنْطَقَةٌ تُشَدُّ حول الوسط – وهى من المنح السلطانية – وتكون من الذهب أو الفضة بحسب رتبة الأمير . وقد خُصِّص لها سوق خاص فى القاهرة عرف بسوق الحوائصيين ولكن قل استخدامها بعد ذلك حتى تحوّلت أغلب دكاكين هذا السوق فى زمن المقريزى إلى بيع الطواق . (القلقشندى : صبح ٢ : ١٣٤ و ٤ : ٤٠ و ٥٥ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٩٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ٥ ، طرخان : النظم الإقطاعية ٤٨٠) وانظر فيما يلى ص ٤٣ و ٦٩ .

(٣) المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٦ .

(٤) القلقشندى : صبح ٤ : ٥٥ .

(٥) نفسه ٤ : ٥٦ .

(٦) المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٦ .

(٧) القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ٥٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٦ .

وعند لَعِبه بالكرة فى الميدان ، وفى ذلك الوقت يعطى الجميع مُسْرَجَةً مُلْجَمةً بلا كنابيش بفضَّة خفيفة ، وليس للعشرات حظٌّ فى ذلك إلاَّ ما يتفقَّدهم به على سبيل الإنعام [١] .

ولخاصة المقرَّبين من الأمراء المئين والطبلخانات زيادات كثيرة فى ذلك بحيث يصل إلى بعضهم المائة فرس فى السنة . وله أوقاتٌ أخرى يفرِّق فيها الخيلَ على مماليكه ، وربَّما أعطى بعض مقدِّمى الحَلْقة . وقاعدة عنده أنه مَنْ نَفَقَ عليه من مماليكه فرسٌ يحضر من لحمه والشهادة بأنه نَفَق ويعطيه فَرَساً عوضه [٢] .

وأما أُمَرَاءُ الشَّام فلاحظَّ لأحدٍ منهم فى أكثرَ من قَبَاءٍ واحدٍ يُلْبَس فى وقت الشتاء ، إلاَّ مَنْ تعرَّض لقصد السلطان فيحسن إليه [٣] .

ولخاصته المقرَّبين أنواع الإنْعَامات كالعَقَار والأبنية الضَّخْمة ، التى ربما أُنفِق على بعضها أَزْيَد من مائة ألف دينار ، وكساوى القماش المنوَّع . وفى أسفارهم ، فى أوقات خروجهم إلى الصيد وغيرها ، العلوفات والأموال [٤] .

ومن عادة هذا السلطان الخروج إلى الصَّيْد مرَّات فى السنة ، فإذا خَرَج أنْعم على أكابر أمراء المئين – ولا أعنى المقرَّبين بل أكابرهم قدراً وسناً – كل واحد منهم بألف مثقال ذهباً ، وبرذون خاص مُسْرَج مُلْجم وكنبوش مذهب [٥] .

ومن عادته أنه إذا مرَّ فى متصيّداته بإقطاع أمير كبير قدَّم له من الغنم والإوز والدجاج وقصب السكر والشعير ما تسموا همة مثله إليه ، فيقبله منه ويُنْعم عليه بخِلْعَة كاملة ، وربما أمر لبعضهم بمبلغ من المال [٦] .

---

[١] القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ٥٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٦ .

[٢] القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ٥٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٦ .

[٣] القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ٥٥ .

[٤] القلقشندى : صبح ٤ : ٥٥ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٦ .

[٥] الكنبوش . ما يستر به مؤخّر ظهر الفرس وكَفَلُه ، وهو أنواع ثلاثة : من الذهب الزركش ، ومن المَخَاش – أى الفضة الملبسة بالذهب – ، ومن الصوف المرقوم وهو ما يركب به القضاة وأهل العلم . (القلقشندى : صبح ٢ : ١٣٥) .

[٦] نفسه ٤ : ٦٣ .

[٣٨٦] ومن شعار سَلْطَنة [(١)] هذه المملكة أن يركب سلطانها فى يوم دخوله إلى مدينة يحبها [(٢)] ، ويوم العيد ، وأيام ركوبه إلى الميدان للعب الكرة برَقَبَة [(٣)] وهى بزَرَاكش ذهب على أطْلَس أصفر يُعمل على رقبة الفرس من تحت أذنيه إلى نهاية العرف ، ويكون قُدَّامه إثنان من أوشَاقِيَّته [(٤)] راكبين على حصانين أشهبين برقبتين نظير ما هو راكب كأنهما معدَّان لأن يركبهما ، وعلى الوُشَاقَيْن المذكورين قباوان أصفران من حرير بطرازين من زَرْكش بالذهب ، وعلى رأسيهما قُبَّعان مزركشان ، وغاشية السرج [(٥)] محمولة أمامه ، وهى أديم مزركش بذهب يحملها بعض الرِّكاب دارية [(٦)] قدَّامه ، وهو ماشٍ فى وسط الموكب ، ويكون قدَّامه فارس يشَبِّب بشَبَّابة لا يَقْصد بنغمها الإطْراب بل ما يقرع بالمهابة سامعه ، ومن خلفه الجنائب وعلى رأسه العَصَائب السلطانية ، وهى صُفْر مطرَّزة بذهبٍ بألقابه واسمه .

وفى يوم العيدين ودخول المدينة يُزيد على ذلك برَفْع المِظَلَّة على رأسه ، وهى الجِتْر [(٧)] ؛ وهو

---

(١) المقصود بشعار السلطنة أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التى كان يظهر بها السلطان فى المواكب الحَفِلَة . (القلقشندى : صبح ٤ : ٧ — ٨ ، المقريزى : السلوك ١ : ٤٤٣ هـ [١]) .

(٢) كذا بالأصول .

(٣) انظر فيما يلى ص ٤٦ هـ [٦] .

(٤) الأوشاق (أوجاق) جـ . أو شاقية . لفظ فارسى معرب يدل على طائفة كانت مهمتهم ، فى عصر المماليك ، العناية بالخيل وركوبها للتسيير والرياضة . (القلقشندى : صبح ٤ : ٨ و ٥ : ٤٥٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ١٩٩ والسلوك ١ : ٤٣٣ هـ [٣] و ٢ : ١٨٣ هـ [١] ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٢٨٩ ، نبيل عبد العزيز : الخيل ورياضتها فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ، مكتبة الأنجلو ١٩٧٦) ١٢١ .

وفى تعليق لمحقق بدائع الزهور لابن إياس أن الأوجاق أحد الخاصكية ، وظيفته حراسة الأسير بأن يركب خلفه وفى يده خنجر مسلول ! . (ابن إياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ٩٨ هـ [١]) .

وعن عناية الناصر محمد بن قلاوون بالخيل وإنشائه ديواناً خاصاً لها راجع أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ١٦٨ .

(٥) الغاشية . إضافة إلى ما فى النص ذكر القلقشندى أن الناظر يظنها كلها ذهباً . (صبح ٢ : ١٣٣) .

(٦) القلقشندى : صبح ٤ : ٧ ، وعن الغاشية انظر صبح ٢ : ١٣٣ .

والرِّكاب دارية . هم الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان فى المواكب الحفلة . وهم من موظفى الرِّكاب خاناه ، وهو بيت الركاب الذى تكون به السروج واللجم والكنابيش ، وموكل به موظف يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه . (القلقشندى : صبح ٤ : ١٢ ، المقريزى : السلوك ١ : ٤٤٠ هـ [٢]) .

(٧) المِظَلَّة المعبر عنها بالجِتْر — بجيم مكسورة ، قد تبدل سينا معجمة ، وتاء مثناة من فوق — قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، على أعلاها طائرٌ من فِضَّة مَطْلِية بالذهب ، تحمل على رأس السلطان فى العيدين ، وهى من بقايا الدولة الفاطمية . (القلقشندى : صبح ٤ : ٧ — ٨) . وضبطها =

أطْلَس أصفر مزركش على أعلاه قبَّة وطائر من فضَّة مذهبة ، يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر وهو راكب فرسه إلى جانبه ، وأربابُ الوظائف والسلاح كلُّهم خلْفه ، وحوله وأمامه الطَّبَرْدَارِيَّة – وهم طائفة من الأكراد ذوى الإقطاعات والإمْرَة – يكونون مُشَاةً وبأيديهم الأطْبَار [١] مشهورة [٢] .

ومن رَسْم الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث يركب وخلفه جنيب ، وأما أكابرهم فربما يركب بجنيبين [٣] ، هذا فى المدن والحاضرة وهكذا فى البر . ويكون لكل منهم طلبٌ مشتمل على أكثر مماليكه ، وقدَّامهم خِزَانة محمولة للطَّبْلَخَان على جملٍ واحد يجره راكبٌ آخر على جمل والمال [٤] على جملين وربما زاد بعضهم على ذلك . وأمام الخِزَانة عدَّة جنائب تُجَرّ على أيدى مماليك رُكَّاب خَيْل وهُجْن ، وركَّابة من العرب على هُجْن ، وأمامها الهُجْن بأكوارها مجنوبة للطبلخانات قطاراً واحداً ، وهو أربعة [٣٨٧] ومركوب الهجان والمال قطاران ، وربما زاد بعضهم ، وعددُ الجنائب فى كثرتها وقلّتها إلى رأى الأمير وسَعَة نفسه ، والجنائب على ما يراه ، منها ما هو مُسْرَجٌ مُلْجَمٌ ، ومنها ما هو بعنانه لا غير [٥] .

[زِىُّ أعْيان هذه المملكة]

وأهلُ هذه المملكة يُضَاهى بعضهم بعضاً فى الملابس الفاخرة ، والسروج المحَلاَّة ، والعُدَد الفاخرة [٦] .

= القلقشندى فى موضع آخر (صبح ٢ : ١٣٣) الجنز – بنون بين الجيم والزاى المعجمة .

[١] الطَّبَر . فارسى بمعنى الفأس ويبدو أن أصله من مدينة طبرستان فقد ذكر ياقوت (معجم البلدان) أن طبرستان معناها ناحية الطبر ، لأن أهل هذه النواحى كثيرة الحروب وكل أسلحتهم الأطبار .

والطبر المملوكى كانت ذات رأس شبه دائرى تحلى بزخارف مفرغة أو مموهة بالذهب أو بكليهما ، ويغلب أن تكون الزخارف على هيئة جامات تحتوى على تروس محفورة . وكانت هذه البلطة تثبت فى قائم إما من المعدن أو من الخشب ، ويحلى المعدنى منها غالباً بالزخارف . (Mayer, L., Mamluk Costume, p. 47).

[٢] القلقشندى : صبح ٤ : ٤٦ .

[٣] م و ت : بجيلين .

[٤] فى صبح : الألف .

[٥] القلقشندى : صبح ٤ : ٦١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٧ – ٢٠٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٢٧ .

[٦] عن أنواع الملابس والخِلَع المختلفة فى زمن المماليك =

وأما زِيُّهم فالأَقْبِيَة التَتَرِيَّة [١] والتَكْلاَوات [٢] فوقها ، ثم القَبَاء الإسلامى [٣] فوقها ، وعليه تُشَدُّ المِنْطَقَة والسَّيْف [٤] . ثم الأمراء والمقدَّمون وأعيان الجند تلبس فوقه أقبية قصيرة الأكمام أقصر من القَبَاء التحتانى بلا تفاوت كبير فى قِصَر الكم والطول [٥] ، وكَلُّوتات [٦] صغار غالبها من الصوف المَلَطِى الأحمر وعليها عمائم صغار ، ومَهَامِيز [٧] على الأَخْفَاف [٨] ، ويعمل المنديل

= راجع Mayer, L.A., « Mamluk Costume » , Genève 1952 نقله إلى العربية صالح الشيتى بعنوان « الملابس المملوكية » (القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢) .

[١] القباء جـ . أقبية . ثوب يلبس فوق الثياب ، سمى بذلك لاجتماع أطرافه . (ابن منظور : اللسان ٢٠ : ٢٨ ، (Dozy, R., Dict. vêt., p. 352; id ., Suppl. Dict. Ar. II, 315 .

والأقبية التترية ذات أصل أجنبى ، وهى غير القباء التترى السلارى . كانت لها كمران يلفا الصدر من اليسار إلى اليمين بدلاً من عمل الشقة المستقيمة التقليدية للقمصان التى كانت تلبس فى عصر الفاطميين . وكانت تصنع من الصوف والأطلس والحرير أو القطن البعلبكى ، وكان لونه إما أبيض أو مزيّن بأشرطة باللونين الأحمر والأزرق ويطلق عليه اسم « المُشَهَّر » وله أكمام ضَيِّقة . (Mayer, L.A., op.cit., p. 21 وقارن المقريزى : الخطط ٢ : ٩٩ والسلوك ١ : ٥٨٤ هـ[١] و ٨٢٠ و ٢ : ٩٧) .

[٢] يرى ماير أن التكلاوات كانت تلبس فى الهند ومصر فقط . (Mayer, op.cit., p. 21 n. 6) .

[٣] يبدو أن هذا الرداء كانت له طريقة عربية مميزة فى التفصيل تخالف القباء التترى والسلارى ، ولكننا لا نملك وصفاً له . (Mayer, L.A., op.cit., p. 22) .

[٤] قارن ذلك مع صبح الأعشى ٤ : ٤٠ ففيه : « يشد عليه السيف من جهة اليسار ، والصولق والكزلك من جهة اليمين » .

[٥] يرى Mayer – مع شئ من التحفظ – أنه من الممكن أن يكون هذا القباء مطابقاً تماماً للقباء الذى أدخله سلار – نائب السلطنة فى عصرى الناصر محمد بن قلاوون وبيبرس الجاشنكير – المعروف بالبَغْلَطَاق . (Mayer, L.A., op.cit., p. 23 فيما يلى ص ٥٢) .

[٦] كلَّوْتَة جـ . كُلُّوتات . غطاء للرأس من الصوف المضرب بالقطن يلبس وحده أو بعمامة . استحدثها بمصر سلاطين الأيوبيين فكانوا يلبسونها من الجوخ الأصفر بغير عمائم وذوائب شعورهم مرخاة تحتها (القلقشندى : صبح ٤ : ٣٩ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ٢ : ١١٠ – ١١١) ومازال الأمر كذلك حتى غير الأشرف خليل لونها من الصفرة إلى الحمرة وأمر بلبس العمائم من فوقها ، فلما حج الناصر محمد بن قلاون فى سلطنته الثالثة حَلق رأسه وترك ذؤابة شعره واستجد العمائم الناصرية . (القلقشندى : صبح ٤ : ٦ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٩٨ – ٩٩ و ٢١٧ والسلوك ١ : ٤٩٣ هـ[١] ، أبو المحاسن : النجوم ٧ : ٣٣٠ هـ[١] ، Mayer, A.L., op. cit., p. 28-29) .

[٧] المِهْمَاز جـ . مَهَامِيز . آلة من حديد تكون فى رجل الفارس فوق كعبه وفوق الخف وما فى معناه ، ومؤخره إصبع محدّد الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحرَّكت وأسرعت فى المشى أو جدَّت فى العدو . وهو تارة يكون من ذهب محض ، وتارة يكون من حديد مطلى بالذهب أو الفضة . قال القلقشندى : وقد اعتاد القضاة والعلماء فى زماننا تركه . (القلقشندى : صبح ٢ : ١٣٦) .

[٨] الخف . جـ . أخفاف . حذاء برقبة طويلة . (Mayer, A.L., op.cit., p. 34) .

على الحِيَاصَة [١] على الصَّوْلَق [٢] من الجانب الأيمن [٣] .

هذا هو زيُّ أهل هذه المملكة

* * *

ومعظم حَوَايِصُهم الفضَّة ، ومنهم من يعملها من الذَّهَب ، وربما عملت باليشم ولا تُرَصَّع بالجواهر إلاَّ فى خِلَع السلطان لأكابر المئين [٤] ، ومعظمهم يلبس المُطَرَّز . ولا يُكَفِّت مِهْمَازَه بالذهب ، أو يلبس المُطَرَّز إلاَّ مَنْ له إقطاعٌ فى الحَلْقَة ، وأما منْ هو يعد بالجَامَكِيَّة [٥] فإنه لا يتعاطى ذلك [٦] .

وعلى الجملة فزيُّهم ظريف وعُدَدهم فائقة نفيسة ، وملبوسهم منوَّع من الكمخا [٧] والخطانى والكنجى [٨] ، والمُخَمَّل والإسكندرانى والشَّرَب والتصافى والأصواف [٩] .

---

[١] الحياصة جـ . حوايص . حزام العسكريين ويعرف أيضاً بالمنطقة . (راجع ، القلقشندى : صبح ٤ : ٤٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٩٩ ، Mayer, A.L., op. cit., p. 34-35، وانظر أعلاه ص ٣٨ هـ ٢ وفيما يلى ص ٧٠ و هـ ١) .

[٢] الصَّوْلق . كان العسكريون يرتدونه فوق القباء . وهو مصنوع منه الجلد البلغارى الأسود . وأحياناً يكون كبير الحجم بقدر يتَّسع لأكثر من نصف وية من الغلال ومغروز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع . (المقريزى : الخطط ٢ : ٩٨ و ٢١٧ ، أبو المحاسن النجوم ٧ : ٧٨ هـ ٢ Mayer, A.L., op. cit., p. 27) .

[٣] القلقشندى : صبح ٤ : ٤٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٧ .

[٤] القلقشندى : صبح ٤ : ٤٠ .

[٥] جامكية جـ . جامكيات (جوامك) . كلمة فارسية معناها الراتب المربوط لشهر أو أكثر . (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٨ : ٥٠ هـ ٢) . وذكر القلقشندى أن نفقات المماليك كانت جامكيات وعليق وكسوة وغير ذلك (صبح ٣ : ٤٥٣) .

[٦] القلقشندى : صبح ٤ : ٤١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٧ .

[٧] الكَمْخا . ثياب حريرية تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور (ابن بطوطة : الرحلة ١ : ٢٤٥ ، Serjeant, R.B., Islamic Textiles, p. 31) .

[٨] الكنجى . انظر فيما يلى ص ٧١ .

[٩] القلقشندى : صبح ٤ : ٤١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٧ .

[السُّلْطَان]
ذِكْرُ هيئته فى جُلُوسه للمَظَالم

عادة هذا السلطان أن يجلس بكرة الاثنين ما كان بالقلعة ، خلا شهر رمضان فإنه لا يجلس فيه ، ومجلسه هذا هو فى إيوان بظاهر قصره قريباً من بابه ، وهو إيوان متّسع على مرتفع السمك أمامه رحبة فسيحة . يسمّى هذا الإيوان « دارُ العَدْل » (١) وفيه تكون الخدمة العامة واستحضار رُسُل الملوك غالباً . فإذا قعد للمظالم كان جلوسه على كرسى إذا قعد عليه تكاد تلحق الأرض رجلُه ، وهو منصوب إلى جانب المنبر الذى هو تَخْت المُلْك ، ويجلس على يمينه : قُضَاة القضاة من المذاهب الأربعة ، ثم الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر [٣٨٨] فى الحسبة . ويجلس على يساره كاتب السِّر ، وقُدَّامه ناظر الجيش وجماعة الموقعين تكملة حلقة دائرة . وإن كان ثمَّ وزير من أرباب الأقلام كان بينه وبين كاتب السر ، وإن كان الوزير من أرباب السيوف ، كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف . وكذلك إن كان ثم نائب يقف مع أرباب الوظائف . ويقف من وراء السلطان مماليك صفّان (٢) عن يمينه ويساره من السِّلاح دارية (٣) والجَمَدَارية (٤)

---

(١) الإيوان المعروف بدار العدل . أنشأه السلطان المنصور قلاوون ثم جدّده ابنه الملك الأشرف خليل ، واستمر جلوس نائب دار العدل فيه ، فلما عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون « الروك الناصرى » أمر بهدم هذا الإيوان سنة ٧١١ هـ وأعاد بناءه ثم زاد فيه فى سنة ٧٣٥ وأنشأ به قبة وأقام به عمدا عظيمة نقلها من المعابد الموجودة بالصعيد ، ورخّمه ونَصَب فى صدره سرير الملك وعمله من العاج والأبنوس ، ورفع سمك هذا الإيوان وعمل أمامه رحبة متسعة . (ابن أيبك : كنز الدرر ٩ : ٢٣٨ و ٣٧٢ - ٣٧٣ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٩ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٦ والسلوك ٢ : ١٠٣ و ٥٥٨ - ٥٥٩) .

وقد اندثر هذا الإيوان الآن ومكانه اليوم الأرض القائم عليها جامع محمد على باشا وملحقاته بالقلعة . (أبو المحاسن : النجوم ٨ : ٢٣٤ هـ ١ و ٩ : ٥١ هـ ١ ، Casanova, P., Histoire et description de la Citadelle du Caire, MMAF 6 (1892), pp. 629-641).

(٢) م و ت : صنفان و ث : صبيان .

(٣) السلاح دار جـ . سلاح دارية . لقب الذى يحمل سلاح السلطان أو الأمير ويتولى أمر السلاح خاناه وما يتبع ذلك . (النويرى : نهاية الأرب ٨ : ٢٢٨ - ٢٢٩ ، القلقشندى : صبح ٥ : ٤٦٢) .

(٤) الجَمَدَار جـ . جمدارية . لقب الذى يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه . وأصله جَامَادار فحذفت الألف بعد الجيم وبعد الميم استثقالاً وقيل جَمَدَار . وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما جاما بمعنى الثوب ، والثانى دار بمعنى ممسك ، فيكون المعنى « ممسك الثوب » . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٥٩) .

والخَاصِكية (١) ويجلس على بُعد تقدير (٢) خمسة عشر ذراعاً من يمينه ويسرته ذوو السن من أكابر أمراء المئين ، وهم أمراء المَشورة (٣) ؛ ويليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء ، وأرباب الوظائف وقوف ، وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة ، ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجَّاب والدوادارية (٤) لإحضار قِصص الناس وإحضار المساكين وتقرأ عليه ، فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه ، وما كان متعلقاً بالعسكر تحدَّث مع الحاجب وكاتب الجيش فيه (٥) ، ويأمر فى البقية بما يراه (٦) .

ذكْرُ هيئته فى بقية الأيَّام

عادة هذا السلطان فى [يوم] الاثنين ما تقدم ذكره ، وكذلك فى يوم الخميس على مثل هذه الهيئة أيضاً ، إلاَّ أنه لا يتصدَّى فيه لسماع القِصصَ ولا لحضرة أحدٍ من القضاة وكاتب الجيش والموقِّعين ، إلاَّ إن عرضت حاجة إلى طلب أحدٍ منهم . وهذا القعود عادته فى طول السنة مادام أنه بالقلعة فى الاثنين والخميس غير رمضان أيضاً (٧) .

---

(١) الخاصكية . فئة من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من الأجلاب الذين ينضمون إلى خدمة السلطان وهم صغار ، فيتخذ منهم حرسه الخاص . وكانوا يسمون أيضاً بالجوّانية وذلك فى مقابل اسم البرانية الذى كان يطلق على المماليك والأمراء غير الخاصكية . وكانوا يلازمون السلطان فى خلواته وفراغه . وكانت الخاصكية من المؤهلات للوظائف الكبرى بل وللسلطنة فى بعض الأحيان . (المقريزى : السلوك ١ : ٦٤٤ هـ [٤] ، الظاهرى : زبدة ١١٥ — ١١٦ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٤٦٢ — ٤٦٦) .

(٢) فى صبح : بقدر ، وحسن : تقديره .

(٣) أمراء المشورة ، كانوا كهيئة مجلس استشارى للسلطان ، يقول أبو المحاسن : « إنهم ينفذون أحوال المملكة بين يدى السلطان بمقتضى علمهم وحَسَب اختيارهم » (النجوم ١٠ : ١٩٠) واختلف عدد هؤلاء الأمراء فى خلال التاريخ المملوكى فبينما ذكر المقريزى أنهم كانوا تسعة أنفار فى سنة ٧٤٨ هـ (السلوك ٢ : ٧٤٦) يذكر أبو المحاسن أنهم كانوا ستة أنفار فى العام نفسه . (النجوم ١٠ : ١٩٠) .

وقارن ابن أيبك : كنز الدرر ٩ : ٢٣٩ ، المقريزى : السلوك ١ : ٤٠٥ و ٧٣٥ و ٢ : ٤٩٨ و ٥٥١ هـ [٢] و ٧٤٦ هـ [٣] و ٧٥٢ هـ [١] .

(٤) راجع عنهم فيما يلى ص ٥٨ .

(٥) فى صبح : ناظر الجيش ، وحسن : تحدث مع الخاص وكاتب السر فيه .

(٦) القلقشندى : صبح ٤ : ٤٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٨ — ٢٠٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٢٧ .

وانظر صفة أحد هذه المجالس عند المقريزى : السلوك ٣ : ٢٢٥ .

(٧) القلقشندى : صبح ٤ : ٤٥ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٩ ، السيوطى حسن ٢ : ١٢٧ .

أما بقية الأيام فإنه يخرج من قصوره الجُوَّانية [١] إلى قصره الكبير [٢] البرَّانى ، وهو شبابيك مُطِلَّة على اصطبلاته [٣] ، وفى صدره تخت الملك المختص فيقعد تارة عليه وتارة يقعد دونه على الأرض ، والأمراء وقوف على ما تقدم ، خلا أمراء المشورة والقرباء منه فإنه ليس لهم عادة بحضور هذا المجلس . ولا يحضر هذا المجلس من الكبار إلَّا منْ دعت الحاجة إلى حضوره ، ثم يقوم فى الثالثة [٣٨٩] من النهار يدخل إلى قصوره الجُوَّانية ثم إلى دار حريمه ونسائه ، ثم يخرج فى أخريات النهار إلى قصوره الجوانية لمصالح ملكه ، ويعبر عليه إليها خاصته من أرباب الوظائف فى الأشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة إليه [٤] .

ذكر هَيْئَته فى الأَسْفار

قد تقدَّم ذكر هيئته فى الأعياد وأيام الميادين [٥] . فأما فى الأسفار فإنه لا يتكلّف إظهار كل ذلك الشعار ، بل يكون الشعار فى موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدَّم عليهم وأستاذدار وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن .

وأما هو بنفسه فإنه يركب ومعه عدَّة كثيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص ونخبة من خواص مماليكه . ولا يركب فى السَّيْر برَقَبَة [٦] ولا بعَصَائب ، بل تتبعه جنائب خلفه [٧] ، ويقصد فى الغالب تأخير النزول إلى الليل . فإذا جاء حملت قدامه

---

(١) راجع عنها المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٤ — ٢٠٥ و ٢١٠ ، Casanova, P., op. cit., p. 641 .

(٢) المعروف بالقصر الأبْلَق . (انظر فيما يلى ص ٨٠) .

(٣) الاصطبلات السلطانية كانت أسفل القلعة وقد زاد الاهتمام بها فى أيام الناصر محمد بن قلاوون . (راجع عنها المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٤ و ٢٢٨ ، أبا المحاسن : النجوم ٩ : ٣٦ هـ ٤ ، Casanova, P., op. cit., p. 656-57 /.

(٤) القلقشندى : صبح ٤ : ٤٥ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٠ .

(٥) م و ت و ث : الموادين . ولم يذكر العمرى هيئة الأعياد قبل ذلك وإنما سيأتى ذكرها فيما يلى ص ٧٣ .

(٦) الرقبة . لباس لرقبة فرس السلطان تكون من حرير أصفر مطرَّزة بالذهب الزركش ، ويدق القالب عليها حتى يصبح الحرير غير ظاهر فيها . تُشَدّ على رقبة فرس السلطان فى المواكب العظام لتكون مضاهية لما يركب به من الكنبوش الزركش المغطى لظهر الفرس وكفله . (القلقشندى : صبح ٢ : ١٣٣ و ٤ : ٨ ، وانظر أعلاه ص ٤٠) .

(٧) فى صبح : ولا تتبعه جنائب ! .

فوانيسٌ كثيرة [١] ومشاعلٌ [٢] ، فإذا قارب مُخَيَّمه ، تُلْقى بالشموع المركّبة فى الشمعدانات المكَفَّتة [٣] ، وصاحت الجاويشية بين يديه ، فترجَّلت الناس كافة إلاَّ حمَلَة السلاح وراءه والأوشاقية [٤] وراءه ، ومشَت الطَّبْردارية [٥] حوله حتى يدخل الدهليز الأول ، ثم ينزل ويدخل إلى الشقة ، وهى خيمة مستديرة متَّسعة ، ثم منها إلى شقة مختصرة ، ثم إلى لاجوق . ومدار كل خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خَرْكاه [٦] [من خشب] [٧] ، وفى صدر ذلك اللاجوق قصرٌ صغير من الخشب ينصب له للمبيت فيه ، وبإزاء الشقة الحمّام بالقدور الرصاص الحوض على هيئة الحمام المبنى فى المدن إلاَّ أنه مختصر . فإذا نام طافت به المماليك دائرة بعد دائرة وطاف بالجميع الحرس ، وتدور الزفَّة حول الدهليز فى كل ليلة مرتين : الأولى عندما يأوى إلى النوم ، والثانية عند قعوده من النوم ، كل زفَّة يدور بها أمير جَانْدار [٨] ، وهو من أكابر الأمراء ، وحوله الفوانيس والمَشَاعل والطُّبول [٩] والبيَّاتة ، وينام على باب الدهليز النقباء وأرباب النُّوَب من الخَدَم [١٠] .

ويصحب هذا السلطان فى أسفاره من غالب ما تدعو الحاجة إليه حتى [٣٩٠] يكاد

---

[١] الفانوس جـ . فوانيس . آلة كُرِّية ذات أضلاع من حديد مغشاة بخرْقة من الكتان الرقيق الصافى البياض . تغرز شمعة فى أسفل باطنه فيشف عن ضوئها ، وجرت العادة أن يحمل منها اثنان أمام السلطان أو الأمير فى أثناء سفر الليل . (القلقشندى : صبح ٢ : ١٣٧) .

[٢] مشعل جـ . مشاعل . آلة من حديد تشبه القفص مفتوحة من أعلى ، وفى أسفلها خِرْقة توقد فيها النار بالحطب فينتشر ضوؤها . (نفسه ٢ : ١٣٧) .

[٣] فى ب و م : شمعدانات كفت .

[٤] فى م : الوشاقية ، وانظر أعلاه ص ٤٠ .

[٥] الطبردارية . الذين يحملون الأطبار أو الفئوس (انظر أعلاه ص ٤١) حول السلطان عند ركوبه فى المواكب وغيرها لحراسته . وفى صلاة الجمعة والعيدين كانوا يتقدمون السلطان وبأيديهم الأطبار بعد انتهاء الصلاة . (السبكى : معيد النعم ٣٥ ، القلقشندى : صبح ٢ : ١٤١ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٧٣٥) .

[٦] الخركاه . بيت من خشب مصنوع بهيئة خاصة ، ويغشى بالجوخ ونحوه يحمل فى أثناء السفر للمبيت به فى الشتاء للوقاية من البرد . (القلقشندى : صبح ٢ : ١٣٨) .

[٧] زيادة من صبح .

[٨] عن أمير جاندار انظر فيما يلى ص ٥٧ .

[٩] الطبول . ويقال الدَّبادب والبوقات والزُّمُر المعروف بالصهان الذى يقرب به عشية كل ليلة بباب الملك ، وخلفه إذا ركب فى المواكب ونحوها ، وكانت تعرف فى اصطلاح العصر بالطبلخاناه . (القلقشندى : صبح ٢ : ١٣٤) .

[١٠] نفسه ٤ : ٤٨ - ٤٩ .

يكون معه مارستان لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكَحْل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجرى مجرى ذلك ، وكل من عاده طبيب ووَصَف ما يناسبه ، يصرف من الشرابخاناه أو الدواخاناه [١] المحمولين فى الصحبة [٢] .

[الأسْمِطَة السُّلطانية]

ومن عادة هذا السلطان مدُّ السِّمَاط [٣] طَرَفى النهار فى كل يوم لعامة الأمراء ، خلا البرَّانيين [٤] فقليل ما هم [٥] .

وأما بُكْرة فيُمدّ سماط أوّل لا يأكل منه السلطان ، ثم ثان بعده يسمّى الخاص قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ، ثم ثالث بعده ويسمى الطارئ ومنه مأكول السلطان [٦] .

وأما فى أخريات النهار فيمد سماطان : الأول والثانى المسمى بالخاص ، ثم إن استدعى بطارئ [٧] حضر وإلَّا فلا ، خلا المشوى فإنه ليس له عادة محفوظة النظام ، بل هو على حسب

---

[١] الشراب خاناه . أحد الحواصل السلطانية الثمانية وهى : الطِّشْت خاناه ، الفَراش خاناه ، السِّلاح خاناه ، الرِّكاب خاناه ، الحَوائج خاناه ، المَطْبح ، الطبلخاناه . (القلقشندى : صبح ٤ : ٩ — ١٣ ، وقارن النويرى نهاية الأرب ٨ : ٢٢١ — ٢٢٨ فقد عدها خمس حيث أسقط الركابخاناه والطبلخاناه والمطبخ وكذلك فعل الظاهرى : زبدة ١٢٤) .

والشراب خاناه أو بيت الشراب كانت تحوى أنواع الأشربة على اختلافها والمعاجين والأقراص وما فى معناها ، وكان المماليك يصرفون منها ما يحتاجونه من أدوية ومعاجين بمقتضى أوراق الأطباء . (النويرى : نهاية ٨ : ٢٢٤ — ٢٢٥ ، القلقشندى . صبح ٤ : ١٠) .

[٢] القلقشندى : صبح ٤ : ٤٩ .

[٣] السِّماط جـ . أسْمطة . ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين (Dozy, R., Suppl. Dict. Ar. I, 684) ، وهو هنا بمعنى المائدة السلطانية ، وسمّاه القلقشندى : صبح ٤ : ٥٦ الخِوَان .

[٤] الأمراء البرَّانيين . المماليك والأمراء من غير الخاصكية (انظر أعلاه ص ٣٦ هـ ٣ و ٤٥ هـ ١) . أما الخاصكية فكانوا يسمون بالجُوَّانية . (المقريزى : السلوك ١ : ٦٨٦) .

[٥] القلقشندى : صبح ٤ : ٥٦ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٠ .

[٦] نفسه ٤ : ٥٦ ، نفسه ٢ : ٢١٠ .

[٧] فى الأصول والخطط : بطار والمثبت من صبح الأعشى .

ما يأمر به (١) . وفى كل هذه الأسْمِطَة يؤكل ويفرَّق نوالات ويسقى بعدها الأقسيما المعمولة من السكر والأفاوية المطيبة بماء الورد والمبرَّدة (٢) .

ومن عادة هذا السلطان أن يبيت قريب مبيته فى كل ليلة أطباقٌ فيها أنواع من المطَجَّنات والبوارد والفطر والقِشْطة والجبن المقلى والموز والكيماخ ، وأطباق فيها من الأقسيما والماء المبرد برسم أرباب النوبة فى السهر حوله ، ليتشاغلوا بالمأكول والمشروب عن النوم . والليل مقسومٌ بالنوبة بينهم على الساعات الرمل ، فإذا انتهت نوبة هبَّت التى تليها ثم ذهبت هى فنامت إلى الصبح ، هكذا أبداً سفراً وحَضَراً . وتبيت فى المبيت المصاحف الكريمة لقراءة من يقرأ منهم ، ويبيت الشطرنج ليُتشاغل به عن النوم (٣) .

[هيئته فى صلاة الجمعة]

وهذا السلطان يخرج أيام الجُمَع إلى الجامع المجاور لقصره فى القلعة (٤) ومعه خاصة الأمراء ، وتجىء بقية الأمراء من باب آخر للجامع .

وأما السلطان فيصلى عن يمين المحراب فى مقصورة خاصة ، ويجلس عنده أكابر خاصته ، ويُصَلِّى معه الأمراء — خاصتهم وعامتهم — خارج المقصورة عن يمينها ويسرتها على مراتبهم ، فإذا سمع الخطبة وصَلَّى صلاة الجمعة دخل إلى قصوره ودور خدمه [٣٩١] وحَرَمه ، وتفرَّق الناس كل واحد إلى مكانه (٥) .

---

(١) فى الخطط : ما يرسم به .

(٢) القلقشندى : صبح ٤ : ٥٦ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٠ .

(٣) القلقشندى : صبح ٤ : ٤٩ و ٥٦ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٠ ونصه يتبع العمرى أكثر من نص القلقشندى .

(٤) يقصد جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة (راجع ، المقريزى : الخطط ٢ : ٣٢٥ ، أبا المحاسن : النجوم ٩ : ٥٦ هـ ٣ ، وانظر فيما يلى ص ٨١ هـ ١) .

(٥) القلقشندى : صبح ٤ : ٤٦ .

ذِكْرُ انْتهاء الأَخْبَار إليه

عادةُ هذا السلطان أن يُطَالعه نُوَّابُه فى مملكته بما يتجدَّد عندهم من مهمَّات الأمور أو ما قاربها ، وتأخذ أوامره وتعود أجوبته عليهم بما يراه . وبين حضرة السلطان وجميع بلاد ممالكه مراكز بين [المركز] والمركز أميال ، فى كل مركز عدَّة خيلِ بريد [١] . وللسلطان من الجُنْد أناسٌ بريدية فى حضرته وفى كل بلدٍ لحمل الكتب والعَدْو بأجوبتها . فإذا وَرَد بريدى بلداً من بلاد مملكته أو عاد المجهَّز من بابه ، أحضره أمير جَانْدَار – وهو من أمراء المئين – والدَّوَادَار ، وكاتب السِّرّ بين يديه ، فيقبِّل الأرض ثم يأخذ الدَّوَادَار الكتاب فيمسحه بوجه البريدى ، ثم يناوله السلطان فيفتحه ، ويجلس كاتبُ السِّرّ فيقرأه عليه ويأمر فيه بأمره [٢] .

ومما يُنْهَى إليه من الأخبار ما يُكْتَب فى ورقٍ خفيف صغير ويُحْمل على الحَمَام الأزرق وللحَمَام مراكز كل مركز منها ثلاثة من مراكز خَيْل البريد أو أزْيَد ، لا يتعدَّى الحمام ذلك المركز ولا يمكنه تجاوزه ، فإذا حَمَل الكتاب حلُّوه بنوع معزى ليُعْرَف فلا يُعَارض ثم يسرح فإذا وَصَل إلى المركز المعدّ له أخذ عنه ونقل إلى حمام غيره من ذلك المركز من مكان إلى مكان إلى حضرة السلطان [٣] .

ومن عادة هذه المملكة أن ولاةَ أمورِ المدينة ، وهم أصحاب الشُّرطة ، تستعلم متجدِّدَات ولاياتهم فى كل نهار ممن هم على المحلات من قِبَلِهم ، ثم يكتب متولِّى الشُّرطة مطالعةً جامعة لما يبعث إنهاؤه من ذلك ويُحْمل إلى السلطان هذا بمتجدِّدات ما يَقَع من قَتْل أو نفع أو حريق كبير أو يجرى مجرى ذلك ، فأما ما يقع للناس فى أحوال أنفسهم فلا [٤] .

---

(١) عن مراكزَ البريد راجع ، العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ١٨٤ – ١٩٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ١٤ : ٣٧٢ – ٣٨٨ . ودراسة سوفاجيه Sauvaget, J., « La poste aux chevaux dans l'Empire des Mamelouks, Paris 1941 .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ٥٩ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١١ .

(٣) المقريزى : الخطط ٢ : ٢١١ .

وعن مراكز الحمام الرسائلى راجع ، العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ١٩٦ – ١٩٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى ١٤ : ٣٨٩ – ٣٩٤ ، وانظر إبراهيم أحمد العدوى : « الحمام الزاجل فى العصور الوسطى » ، المجلة التاريخية المصرية ٢ (مايو ١٩٤٩) ١٣١ – ١٣٨ ، نبيل محمد عبد العزيز : « الحمام الزاجل وأهميته فى عصر سلاطين المماليك » ، المجلة التاريخية المصرية ٢٢ (١٩٧٥) ٤١ – ٨٠ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ٦٠ .

فصـــل

ومن عوائدِ جيوشِ هذه الممالك الركوبُ فى يومى الاثنين والخميس فى المَوْكب . وهو مكانٌ فَسِيح يكون بكل مدينة بها عَسْكَر فيسيرون به ، ثم يقف العَسْكر مع نائب السلطان أو الحاجب ، إن لم يكن ثَمَّ نائب ، وينادى [٣٩٢] على الخيل بينهم ، وربما نودى على كثيرٍ من آلات الجُنْد [١] والخِيَم والخَرْكَاوَات [٢] والأسلحة ، وربما نودى على كثيرٍ من العَقَار [٣] ، ثم إن كانوا بمصر طَلَعُوا إلى الخِدْمة السلطانية بالقلعة ، على ما وَرَد منَّا ذكره [٤] . والإذن لهم فى الانْصِرَاف بعد أَكْل السِّمَاط ، وإن كانوا فى غير مصر نزلوا فى خِدْمَة النائب إلى مكان سَكَنه ، وهو دَارُ السَّلْطَنَة [٥] ، ويجلس النائب وتُقْرأ عليه القِصَص ويَنْصِف بين المظلومين ، ويمدّ السِّمَاط ويأكل عامة الأمراء والجُنْد ثم ينصرفون – وتزداد عساكر الشام بركوب يوم السبت على هذين اليومين – والنوَّاب تَقْعُد لقراءة القِّصَص الاثنين والخميس والسبت ، وربما قَعَدُوا طَرَفَىّ النهار فى هذه الأيَّام لذلك [٦] .

[العَلاَمَةُ السُّلْطَانِيَّة]

ومن عادة هذا السلطان أن يكتب خَطَّه على كل ما يأمر [به] . أما مَنَاشِيرُ [٧] الأمراء

---

(١) فى صبح : الخيل .

(٢) انظر أعلاه ص ٣٩ هـ٦ .

(٣) فى صبح : العقارات .

(٤) القلقشندى : صبح ٤ : ٦٢ .

(٥) فى الخطط : دار النيابة وهو الصواب .

(٦) قارن ذلك بالمقريزى : الخطط ٢ : ٢١٤ – ٢١٥ فهو ينقل عن العمرى مستعيناً بمصدر آخر .

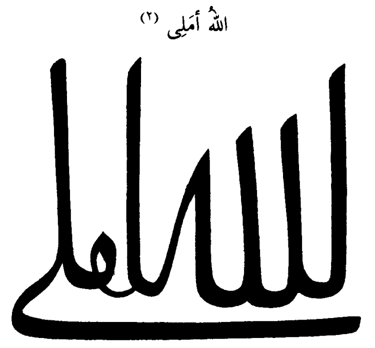
(٧) منشور جـ . مناشير . كل وثيقة أو مكتوب لا تحتاج إلى خَتْم ، لأن الوثائق التى تختم يجب أن تطوى حتى يمكن وضع الختم عليها . وعلى ذلك فإن تسمية الوثائق والمكاتيب بالمنشور مستمدة من الشكل المادى للمكتوب . (محمد محمد أمين : « منشور بمنح إقطاع من عصر السلطان الغورى » ، حوليات إسلامية An. Isl. ١٩ (١٩٨٣) ٨) . وكان المنشور فى عصر المماليك يطلق على كل ما يكتب للأمراء والجند بما يجرى فى أرزاقهم من ديوان الاقطاع (العمرى : التعريف ٨٨ – ٨٩) .

والجُنْد وكل من له إقطاع فإنه يكتب عليه علامته [١] . وعلامة السلطان القائم الآن :

السُّلْطَانُ المَلِكُ النّاصر ناصر الدنيا والدين

أبى المَعَالى محمد بن الملك المنصور قلاوُن خَلَّد الله دولته ،

اللهُ أَمَلِى [٢]



وأما تَقَاليدُ [٤] النُّوَّاب ، وتَوَاقيعُ [٥] أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتَّاب وبقية أرباب

---

[١] العلامة السلطانية . ما يكتبه السلطان بخطه ، على صورة اصطلاحية خاصة ، على المناشير . (العمرى : التعريف ٨٣ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١١ . وخبر العلامة السلطانية فى خطط المقريزى منقول كله عن العمرى) .

وقد أشار المرحوم الدكتور زيادة فى موضعين إلى تطور الإجراءات الإدارية المتبعة فى توقيع الأوراق الرسمية منذ عهد الفاطميين والأيوبيين ، ثم لجؤ المماليك إلى اتخاذ علامات دينية خاصة بهم . ونقل عن كاترمير وصف كيفية استخدام فوطة العلامة وإثباتها على المناشير . (المقريزى : السلوك ١ : ٣٤٤ هـ [١] و ٢ : ٨٥ هـ [٣]) .

[٢] القلقشندى : صبح ٣ : ٥٤ و ١٣ : ١٦١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١١ .

[٣] علامة الناصر محمد بن قلاوون على المناشير .

[٤] تقليد جـ . تقاليد . أى أمر التولية وتفتتح دائماً « بالحمدلله » (العمرى : التعريف ٨٧ ، القلقشندى : صبح ١١ : ١٠١ - ١٠٧ وبه تفصيلات هامة) .

[٥] توقيع جـ . تواقيع . اسم لما يكتب فى حواشى القصص كخط الخليفة أو الوزير هكذا كان مدلولها عند القدماء . (القلقشندى : صبح ١ : ٥٢ و ١١ : ١١٤) . ثم أصبحت عَلَما على نوع خاص من المكاتبات التى تكتب بالوظائف لأرباب السيوف وأرباب الوظائف الدينية والديوانية . (راجع ، العمرى : التعريف ٨٧ - ٨٨ ، القلقشندى صبح ١١ : ١١٤ - ١٢٧ ، الخالدى : المقصد الرفيع ٢٠٨ و) .

الوظائف ، وتواقيع الرواتب والإطْلاَقات [١] فإنه يكتب عليها اسمه واسم أبيه ، صورته :

محمد بن قلاوُن [٢]

وأما كتب البريد وخَلاَص الحقوق والظُّلامات ، فإنه يكتب عليها أيضاً اسمه ، وربما كرَّم من يكتب إليه ، فأما منْ كرّمه من ذوى السيوف كتب له :

والده محمد بن قلاوُن [٣]

وأما منْ كرَّمه من ذوى العمائم المدوَّرة من القضاة والوزراء ، كتب له أخاه بدلاً من والده [٤] .

فأما الإقطاعات فالرسم فيها أن يقال :

خَرَج الأَمْر الشريف [٥]

وأما الوظائف والرواتب والإطلاقات فالرسم فيها أن يقال :

رُسِم بالأَمْر الشريف [٦]

وليس [هذا] بموضع استيعاب أوضاع المكاتبات ، ولو أخذنا فى هذا لطال ، ولكنَّا نذكر نُبْذة تتعلّق بالمناشير [٧] والتقاليد والتواقيع إذ [٨] كانت هى الأَصل لجريان الأرزاق بها .

---

[١] الإطلاق جـ . إطلاقات . وهو تقرير ما أطلقه ، الملوك السابقين من أحباس أو إطلاق ما لم يكن مقرراً من قبل . (انظر نماذج له عند القلقشندى : صبح ١٣ : ٤١ - ٤٧) .

[٢] المقريزى : الخطط ٢ : ٢١١ .

[٣] نفسه ٢ : ٢١١ .

[٤] نفسه ٢ : ٢١١ .

[٥] نفسه ٢ : ٢١١ .

[٦] نفسه ٢ : ٢١١ .

[٧] انظر أعلاه ص ٤٣ هـ٧ .

[٨] فى م و ت : إذا .

فأعلاها ما افتتح بخطبة [أولها] [1] : « الحمد لله » ، [٣٩٣] ثم ما افتتح بخطبة أوَّلها : « أما بعد حَمْد الله » ، حتى تأتى على : « خرج الأمر فى المناشير » أو « رسم بالأمر فى التواقيع » ، ثم بعد هذا أنْزَل الرُتب وهو أن يفتتح فى المناشير « خرج الأمر » ، وفى التواقيع « رسم بالأمر » . وتمتاز المناشير المفتتح فيها بخطبة « الحمد لله » بطُغْرَىٰ [2] بالسَّوَاد تتضَمَّن اسم السلطان وألقابه [3] .

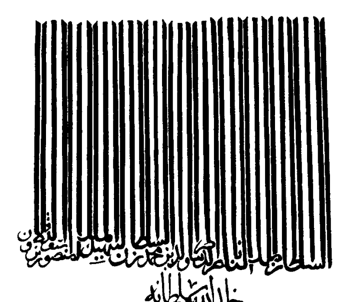
---

(١) زيادة من الخطط .

(٢) فى الأصول طغراء وكذلك رسمها عند الخالدى ، والصواب ما أثبتنا وتكتب أيضاً طغرا .

والطغرى جـ . طغراوات . هى الألقاب السلطانية التى كانت تكتب للمناشير التى تمنح إقطاعاً لكبار المماليك ، والعادة أن تكون فوق وصل بياض فوق البسملة . وكان لها موظف مخصوص بعملها وتحصيلها بالديوان . فإذا كتب الكاتب منشور أخذ من تلك الطغراوات وألصق فيما كتب به (العمرى : التعريف ٨٩ ، الخالدى : المقصد الرفيع ٢٩٢ ، القلقشندى : صبح ١٣ : ١٦٢) . ومثالها : « السلطان الملك الفلانى فلان الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين ملك البسيطة » بألقاب طوال ذهب مزدوجة سطر واحد ويكتب الإسم بين الألقاب قاطعٌ ومقطوع وتحته « خلَّد الله سلطانه » . (التعريف ٨٣) .

وقارن القلقشندى ، صبح ١٣ : ١٦٢ - ١٦٦ وهذه صورة طغرى بألقاب الناصر محمد بن قلاوون : « السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون » وتحتها « خلّد الله سلطانه » .



(٣) المقريزى : الخطط ٢ : ٢١١ .

[الإقطاع]

ومن عادة هذا السلطان فى الإقطاعات [١] للجند أن يتولَّى بنفسه استخدامهم ، فإذا وقف قُدَّامه مَنْ يطلب الإقطاع المحلول ووقع اختياره على واحد ، أمر كاتب الجيش بالكتابه له فيكتب ورقة مختصرة تسمى « المِثَال » [٢] مضمونها : خُبْزُ فلان كذا ، ثم يكتب فوقه رسم المستقر له ، ويناولها السلطان ويُكْتُب عليها بخطّه : يُكْتَب ، ويعطيها الحاجب لمَنْ رُسِمَ له ، فيُقَبِّل الأرض ، ثم يعاد إلى ديوان الجيش فيحفظ [٣] شاهداً عندهم . ثم تكتب « مُرَبَّعَة » [٤] مكمِّلَة بخطوط

---

(١) الإقطاع جـ . إقطاعات . اختلف مدلول لفظ الإقطاع بالنسبة للمكان والزمان فى الدولة الإسلامية . وفيما يخص مصر فإن السلطان صلاح الدين هو الذى أدخل الإقطاع الحربى إلى مصر فصارت أراضى مصر منذ هذا التاريخ تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده . (المقريزى : الخطط ١ : ٩٧) . والإقطاع بمعنى منح أراض بغرض الانتفاع بها وبدخلها ، وقد لجأت الحكومات الإسلامية إلى نظام الإقطاع كوسيلة لدفع رواتب الجنود .

لتفصيلات أكثر حول هذا الموضوع راجع Poliak A.N., « Some notes on the feudal system of the Mamluks » , JRAS (1937); pp. 97-107; id., « The Ayyubid feudalism » , JRAS (1939), pp. 428-432; id., Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, London 1939; Cahen, Cl., « L'évolution de L'Iqta, du IX au XIII Siècle » , Annales E.S.C. VIII (1953), pp. 25-52 ; Lambton, A.K.S., « Reflexions on the Iqta » in Makdisi, S., ed., Arabic and Islamic studies in honor of Hamilton A.R. Gibb, Leiden 1965, pp. 358-376; الباز العرينى : الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٥٦) و « الإقطاع فى الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادى – دراسة مقارنة » حوليات كلية الآداب – جامعة عين شمس ٤ (١٩٥٧) ١١٣ – ١٤٨ ، طرخان ، إبراهيم على : النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٨) ، Rabie, H., The Financial system of Egypt A.H. 564-741 / A.D. 1169-1341, London 1972, pp. 26-72 ; Cahen, Cl., « L'administration financière de l'armée fatimide d'après al - Makhzumi », JESHO XV (1973), pp. 163-182 ; id., EI., art. « Ikta », III, pp. 1115-1118 .

(٢) المِثَال جـ . المثالات . أوّل ما كان يكتب من الأوراق الرسمية إيذاناً بمنح أحد المماليك إقطاعاً من الإقطاعات المحلولة . وهو عبارة عن ورقة تكتب فيها بيانات الإقطاع بعد ترك ثلثيها من أعلاها بياضاً . (القلقشندى : صبح ١٣ : ١٥٣ – ١٥٤ ، الخالدى : المقصد الرفيع المنشا ٢٩٠ و ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٨ والسلوك ١ : ٤٩٠ هـ ٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٨ : ٩١ ، محمد محمد أمين : المرجع السابق ٥ – ٦) .

(٣) فى الأصول : فيساب ، والمثبت من الخطط فهو ينقل عن العمرى دون إشارة .

(٤) المُرَبَّعَة . ورقة مربعة الشكل تجعل على هيئة صفحتين متقابلتين .

(راجع نص ما يكتب فى المربعة وكيفيته عند الخالدى : المقصد الرفيع المنشا ٢٩٠ و – ٢٩٠ ظ ، =

جميع مباشرى ديوان الإقطاع [١] وهم : [كُتَّاب] [٢] ديوان الجيش وعلائمهم ، ثم يؤخذ عليها خط السلطان ثم تحمل إلى ديوان الإنشاء والمكاتبات فتكتب المناشير ، ثم يُعَلِّم السلطان عليها علامة على ما تقدَّم ذكره ثم يُكْمِل ذلك « المَنْشُور » [٣] بخطوط ديوان الإقطاع بعد المقابلة على صحة أصله [٤] .

فأما الاستخدام فى البلاد الشامية فليس للنواب مدخل فى تأمير أميرٍ عِوَض أمير مات ، بل إذا مات أميرٌ – سواء كان كبيراً أو صغيراً – طولع السلطان بموته فأمَّر من أراد عوضه ، إما ممَّنْ فى حضرته ويخرجه إلى مكان الخدمة ، أو ممن [هو] [٥] فى مكان الخدمة أو نُقِل إليه من بلد آخر على ما يراه فى ذلك [٦] .

فأما جُنْد الحَلْقَة فإذا مات أحدٌ منهم استخدم النائب عِوَضَه ، وكتب على نحوٍ من ترتيب السلطان « المِثَال » ثم « المُرَبَّعة » ، وتجهَّز « المربعة » مع البريد إلى حضرة السلطان فيقابل عليها فى ديوان الإقطاع ، ثم إنْ أمضاها السلطان كتب عليها : يُكْتَب ، فتكتب بها مربعة من ديوان الإقطاع ، ثم يكتب عليها من ديوان الإنشاء كما تقدَّم فى الجند الذين فى الحضرة [٧] . وإن كان ما يمضيها السلطان أخرجها لمن يرى ، ثم يكون حكم الكتابة به حكم ما تقدَّم [٨] .

= القلقشندى : صبح ١٣ : ١٥٤ – ١٥٥ ، محمد محمد أمين : المرجع السابق ٧ – ٨) .

[١] فى الأصل : بخطوط جميع الديوان الإقطاع . والمثبت من الخطط . وقارن القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٩ – ٤٩٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٩٧ حيث يذكران أن متولى الإقطاعات كان ضمن ديوان المجلس والمعروف أن هذا الديوان بطل فى أيام الكامل محمد فى سنة ٦٢٦ (ابن ميسر : أخبار مصر ٧٧) ويبدو أن الدولة المماليكية استحدثت ديواناً مستقلا للإقطاع كان يعمل فى إطار ديوان الجيش . (الخالدى : المقصد الرفيع ٢٩٠و ، القلقشندى : صبح ١٣ : ١٥٣ ، وفيما يلى ص ٤٩) .

[٢] زيادة من الخطط .

[٣] انظر أعلاه ٤٣ هـ٧ .

[٤] المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٧ والعبارة فيه : بعد المقابلة على حُجّة أصله .

[٥] زيادة من الخطط .

[٦] القلقشندى : صبح ٤ : ٥٠ – ٥١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٧ .

[٧] القلقشندى : صبح ٤ : ٥١ .

[٨] المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٧ .

ومن مات من الأمراء والجند ، [٣٩٤] قبل استكمال مدَّة الخدمة حوسب ورثته على حكم الاستحقاق ، ثم إما يُرْتَجع منهم أو يُطْلَق لهم على قدر حصول العناية بهم [١] .

وإقطاعات الأمراء والجند منها ما هو بلاد يستغلّها مقْطَعُها كيف شاء ، ومنها ما هو نَقْد على جهات يتناولها منها [٢] .

[أَرْزَاقُ أَرْبَابِ الدَّوْلَة]

فأما أرزاق ذوى الأقلام فإنها مُشَاهرة من مبلغ عَيْن وغَلَّة ، ولأعيانهم الرواتب الجارية فى اليوم من : اللحم بتوابله أو غير توابله ، والخبز والعليق [لدوابهم] ، ولأكابرهم السكر والشمع والزيت والكُسْوَة فى كل سنة والأضحية ، وفى رمضان السكر والحلوى . وأكبر من هؤلاء كالوزير له فى المدة مائتان وخمسون ديناراً جيشية ، ومعه ما ذكر من الأصناف والغَلَّة ، إذا تسطر وتمت كانت بنظيرها [٣] ، ثم ما دون ذلك ، وما دون دونه ، ومن هو فى الحضرة أمين فى ذلك [٤] .

وأما القُضَاةُ والعُلَمَاء ، فالقضاة أرزاقهم على السلطان وأكثرها خمسون ديناراً فى كل شهر ، ولهم المدارس التى يستدرُّون [٥] من أوقافها [٦] .

وفى دِمَشْق معالمُ حكامها [٧] على وقف برسم مصالح [٨] المسلمين مضاف إلى مال مسجدها الجامع .

وأما العلماء فليس لأحدٍ منهم شيءٌ إلَّا مِنْ أوقاف مدارسه ، إلَّا من له على سبيل الراتب أو إلَّا دَرَارِىّ ، وذلك قليلٌ نادر لا حكم له فيعرج على ذكره .

---

(١) القلقشندى : صبح ٤ : ٦٢ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٧ .

(٢) نفسه ٤ : ٥٠ ، نفسه ٢ : ٢١٧ .

(٣) فى صبح : « ما إذا بسط وثمن كان نظير ذلك » ، وفى الخطط : « وتبلغ نظير المعلوم » .

(٤) القلقشندى : صبح ٤ : ٥١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٤ .

(٥) فى الأصول يستدر والمثبت من الخطط .

(٦) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٤ .

(٧) كذا بالأصول ! .

(٨) فى ث : بمصالح .

ولهذا السلطان صَدَقاتٌ جارية ، ورواتب دارة ، منها ما هو أرض من بلاد ، ومنها ما هو مرتب على جهات من مبلغ وغلّة وخبزٍ ولحمٍ وزيت وكُسْوة ، واللحم والزيت والكسوة قليلٌ نادر لمن حصلت له بعناية ، فأما الأرض والمبلغ والغلة والخبز فكثير جداً ومتّسع أمره ، وفى الغالب يتوارثه الأبناء من الآباء ، والأخ عن الأخ ، وابن العم عن ابن العم ، حتى إن كثيراً ممن يموت ويخرج إدراره من مرتبه فيحضر القريب بعد ذلك ويقدم قِصَّة [1] يذكر فيها أولويته بما كان لقريبه فتُعَاد له [2] .

وفى هذه المملكة قائمةٌ شعائرُ الإسلام بالمساجد والخطابات فى جميع القرى . وأما الأرزاق والإدرارات فلا توجد إلاّ بتواقيع [٣٩٥] السلطان ما قلّ منها وما جلّ .

وهذه المملكة تشتمل على عِدَّة من القِلاَع والحصون والمَعاقِل ، وبكل منها نائبٌ وحاكمٌ شرعى وخطيبٌ ومؤذِّنٌ وكحَّالٌ وجَرَائحىٌّ وحَفَظَةٌ ، ولحَفَظَتها جَوَامِك [3] لا إقطاعات . وبها آلات التحصين وذوو أعمال وصناعات ، والحجَّارون والنَّجارون والحدَّادون وما تدعو إليه ضرورة مثل ذلك .

* * *

زىُّ ذوى العمائم المُدَوَّرة

نبدأ « بالقضاة والعلماء » وزيُّهم دِلْقٌ [4] مُتَّسع بغير تفريج ، فتحته على كتفه ، وشاش كبير منه ذؤابة بين الكتفين طويلة [5] .

---

(1) القصة . الطلب أو الالتماس أو الشكوى . وهى هنا تعنى الطلب الذى يقدمه الجندى للحصول على الإقطاع ، أو إعادة إقطاع خرج عنه . (محمد محمد أمين : المرجع السابق ٥ هـ°) .

(2) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٤ .

(3) جامكية جـ . جامكيات وجوامك . انظر أعلاه ص ٣٥ هـ° .

(4) الدِلْق جـ . أدلاق . نوع من الملابس خاص بالعلماء ، ويُلْبس تحت العباءة الفوقانية Dozy, R., Suppl. Dict. Ar. I, 458; Mayer, L., op. cit., p. 50 n. 7 .

(5) القلقشندى : صبح ٤ : ٤١ - ٤٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٣٢٠ .

وأما مَنْ دون هؤلاء فالفَرَجِيَّة [١] الطويلة الكم بغير تفريج والذؤابة أيضاً [٢] .

فأما زُهَّادُهم فيُقَصِّر الذُّؤابة ويُمَيِّلها إلى الكتف الأيسر على المسنُون ، ولا يلبس أحدٌ منهم الحرير ، ولا ما فيه حرير ، ومنهم من يلبس الطَّيْلَسَان [٣] . فأما قاضى القضاة الشافعية فرسمه الطَّرْحة [٤] وبها يمتاز [٥] .

ويركب أعيان هذه الطائفة البغلات بسروج غير مفضَّضَة ، ويتَّخذ عِوَض الطَّمَنْكِيَّات فى السروج عَرْقَشَيْنَات [٦] ، وهى شبيه بثوب الهرج مختصر منه وهو من جُوخ ، وقد يكون من أنواع الأديم ويُشَقُّ ويُعْمل بين السرج ومبيرته . وقضاتهم تعمل ذلك بَدَلاً من الكَنْبُوش [٧] الزنارىّ ، وهو من الجوخ شبيهٌ بالعباءَة المجوَّمة الصدر مستدير من وراء الكَفَل لا يعلوه بردنب ولا قوش وربما ركبوا بالكنابيش وهؤلاء لجمهم كبار ثِقَال الوزن [٨] .

وأما « الوُزَرَاء والكُتَّاب » فزيُّهم الفَرَجِيَّات المفرَّجة من الصوف ومن المجرات عمل

---

[١] الفَرَجِيَّة . ثوبٌ متَّسع يُصْنَع فى العادة من الصوف أو الجوخ ، له أكمام طويلة متَّسعة تتعدى أطراف الأصابع بقليل . (Dozy, R., Dict. des noms des vêtements chez les Arabes, p. 327-28 ; id., Suppl. Dict. Ar. I, 248) وهو أشبه بالجبة ويلبس فوق الدلق . (Mayer, L.A., op. cit., p. 52) .

[٢] القلقشندى : صبح ٤ : ٤٢ ، السيوطى : حسن ٢ : ٣٢٠ .

[٣] الطَّيْلَسَان . أقرب الأزياء شبها بالطرحة [انظر الهامش التالى] . وهو نوعان فيشار أحياناً إلى طيلسان به قطعة مقطوعة من الوسط ، وأحياناً أخرى إلى طيلسان من قماش مقوَّر ، وقد أطلق على الأخير فى القرن التاسع الهجرى اسم « طرحة » . ومع وجود الجزء المقوّر أو المقصوص من الطيلسان فيحتمل أنه لم يكن يلبس فوق الصدر والظهر بل كان يلبس كالطرحة فوق العمامة (Mayer, L. A., op. cit. p. 52) . وكان الطيلسان المقور من زى القضاة منذ العصر الفاطمى فقد خلعه الخليفة المستنصر على بدر الجمالى (المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٢) .

[٤] الطَّرْحة . وشَاح يلبس فوق العمامة ويلتف حول الرقبة ويسترسل على الكتفين . (المقريزى : السلوك ١ : ٥٤٠ ، Mayer, L., op. cit., p. 51) .

[٥] القلقشندى : صبح ٤ : ٤٢ وصار يتميز بذلك فى زمنه قاضى القضاة الشافعية . وقاضى القضاة الحنفية . (السيوطى : حسن ٢ : ٣٢٠) .

[٦] لم أجد شرحاً لهذين المصطلحين فيما بين يدى من مصادر ومراجع .

[٧] انظر أعلاه ص ٣١ هـ° .

[٨] القلقشندى : صبح ٤ : ٤٢ ، السيوطى : حسن ٢ : ٣٢٠ .

الإسكندرية وغير ذلك ، والنصافى والبياض ، ويعمل أكابرهم الباذهنجات فى الأكمام [١] ويلبس البُغْلَطَاق [٢] من تحت فراجيهم ، وربما لبسوا الجِبَاب المفرَّجة من ورائها [٣] .

ويختلف ركوبهم وغالبه شبيهٌ بالجند أو مقاربٌ له . وتجمُّل هذه الطائفة بمصر أقلّ [٤] مما هم عليه بالشام فى زيِّهم وملبوسهم ومركبهم ، إلاَّ ما يحكى عن قِبْط مصر فى بيوتهم من اتساع الأحوال والنفقات ، حتى إن الواحد منهم يكون فى ديوانه بأَرْدَى اللباس ويأكل أدْنى المآكل ويركب [٣٩٦] الحمار ، حتى إذا صار فى بيته انتقل من حالٍ إلى حال وخَرَج من عَدَمٍ إلى وجود . ولقد يبالغ الناسُ فيما يُحْكى من ذلك عنهم لبعد أحوالهم [٥] وتباين أمريهم [٦] .

فأما التُّجارُ وأخلاطُ عَامَةِ الناس فتختلف أحوالُهم فى الملابس والزىِّ حتى إن الفقراءَ ، وإن جَمَعَهم زىُّ الفقر وزيفُه وضمَّهم لباسُ التصوُّف ، فإنهم تتابينُ حالاتهم فى الملابس وأطوارُهم فى التشكيلات .

---

(١) الباذهنجات : فتحات للتهوية .

(٢) البُغْلَطاق ويقال البُغْلوطاق جـ . بَغَاليق (لفظ فارسى يعنى قباء أو رداء من الأردية الفوقانية ذات الأكمام الضيقة يلبس تحت الفرجية . قال المقريزى : « واستجد الأمير سلار فى أيام الملك الناصر محمد القَبَاء الذى يعرف بالسلارى وكان قبل ذلك يعرف ببغلوَطاق » . (المقريزى : الخطط ٢ : ٩٩ والسلوك ١ : ٥٨٤ هـ [١] و ٢ : ٩٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٧ : ٣٣١ هـ [٣] ، Mayer, L., op. cit., p. 23-24) .

(٣) القلقشندى : صبح ٤ : ٤٣ . وقال السيوطى : حسن ٢ : ٣٢٠ : « وأما خلعهم [أى الأمراء والجند] وخلع الوزراء ونحوها فأسقطتها من كلام ابن فضل الله لأنها ما بين حرير وذهب ، وذلك محرم شرعاً ، وقد التزمت ألَّا أذكر فى هذا الكتاب شيئاً أسأل عنه فى الآخرة إن شاء الله تعالى » .

(٤) فى صبح : أكمل .

(٥) فى الأصول : أحاليهم .

(٦) القلقشندى : صبح ٤ : ٤٣ .

الكَلَامُ على أَرْبَابِ الوَظَائِف فى هذه المَمْلَكَة

نقول إن جميعَ الوظائف [١] التى فى حَضْرَة السلطان لا نذكر منها إلاّ أعيانَها ، وأما صغارُ الوظائف فجزءٌ من كلٍ ، فلا حاجةَ بنا إلى ذكرها ، وكل ما نذكره ممَّا هو فى الحَضْرَة نظيره فى كل مدينةٍ من قواعدِ مُدُنِ هذه المملكة ، ويبقى الفَرْقُ ما بينهما الفرق ما بين المكانين .

الوَظَائِفُ الكِبَار

فمن ذَوى السُّيوف

إمْرَةُ سِلاَح . الدَّوَادَارِيَّة . الحُجُوبيَّة . إمْرَة جَانْدَار . الأُسْتَاذْدَارِيَة . المَهْمَنْدَارية . نِقَابَةُ الجيوش . الوُلاَة [٣] .

ومن ذَوِى الأَقْلاَم

الوَزَارَة . كتابَةُ السِّر . نَظَرُ الجيش . نَظَرُ الأَمْوَال . نَظَرُ الخِزَانَة . نَظَرُ البيوت . نظرُ بيْتِ المال . نَظَرُ الاصْطَبْلاَت [٤] .

---

[١] الحديث عن أرباب الوظائف ، سواء من ذوى السيوف أو الأقلام أو العلم ، أكثر تفصيلاً وتنظيماً عند القلقشندى عما ورد فى المسالك – رغم أن القلقشندى يعتمد اعتماداً كلِّياً على العُمَرى . فقد أجْمَل العمرى ذكر الوظائف واكتفى بشرح بعضها وترك بعضها الآخر دون شرح ، بينما عيَّنها القلقشندى وقام بشرحها جميعاً . لذلك فليراجع القلقشندى فى هذا الموضوع : صبح الأعشى ٤ : ١٦ – ٣٩ وحسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ١ – ٣ (القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ – ١٩٦٦) ، ماجد ، عبد المنعم : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر (القاهرة ، مكتبة الأنجلو ١٩٦٧) ٢ : ٤٣ – ٥٦ .

[٢] لم يذكر العمرى شيئاً عن المَهْمَنْدَارية وهو يَفصِّل الحديث عن وظائف ذوى السيوف .

أقول : المَهْمَنْدارية . موضوعها تلَقِّى الرُّسُل الواردين وأمراء العربان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرها . (القلقشندى : صبح ٤ : ٢٢) ومتوليها هو المَهْمَندار ، وهو مركب من لفظين فارسيين : أحدهما مَهْمَن – بفتح الميمين – ومعناه الضيف ، والثانى دار ومعناه ممسك ، ويكون معناه ممسك الضيف ، والمراد المتصدى لأمره . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٥٩) .

[٣] السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣٠ ولم يذكر الولاة .

[٤] المصدر نفسه ٢ : ١٣٠ .

ومن ذَوِى العِلْم

القُضَاة . الخُطَبَاء . وَكَالَة بيتِ المَال . الحِسْبَة [١] .

ثم نقول إن هذا السلطان أَبْطَلَ النيابة والوَزَارة بحضرته . ثم لما كانت « النِيَابَة » قائمة كان النائبُ أولاً سلطاناً مختصراً ، وكان هو الذى يُفَرِّق الإقطاعات ويعيِّن الأمراء . وفى هذا القول الكفاية .

وأما « الوِزَارة » ، فكان يليها من أرباب السُّيوف والأَقْلام على قَدْر ما يتَّفِق [٢] . وكان الوزيرُ ثانى النائب فى المكانة ، فأما الآن فإن السلطان بقى المُفْرد بما كان للسَلْطَنَة من العَظَمة ، والنيابة من التصرُّف .

وأما الوزارة فإنه أبْطَلَها واستخدم فى أيام هذا السلطان [الناصر محمد بن قلاوُن] وظيفة تُسمَّى مناشيرها « نَظَر الخاص » [٣] [٣٩٧] أصلُ موضوعها أن يكون مباشِرُها متحدِّثاً فيما

---

[١] السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣٠ ، وانظر فيما يلى ص ٦٢ .

[٢] عن نظام الوزارة فى زمن المماليك راجع ، على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص (القاهرة ١٩٤٤) ٢٥٤ – ٢٦١ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ١٣٣٤ – ١٣٣٦ ، عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر (القاهرة ١٩٧٩) ١ : ٤٢ – ٤٨ ، Abd ar-Raziq, A., « Le vizirat et les vizirs d'Egypte au temps des Mamluks » , An. Isl. XVI (1980) pp.183-239 وانظر فيما يلى ص ٥٩ و ٦٠ .

[٣] نظر الخاص . وظيفة محدثة فرع من الوزارة حلَّت هذه الوظيفة محل وظيفة « نظر الخزانة الكبرى » استحدثها الناصر محمد بن قلاوون . وأوَّل من تولى هذا المنصب كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله بن السديد سنة ٧١٤ هـ . (القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٢ و ١١ : ٣٣٩ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٧ ، أبو المحاسن : الدليل الشافى ٤٢٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١١٥ و ١٣٠ – ١٣١ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٤٤٤ و ٤٥٣ . وراجع ، القلقشندى : صبح ٤ : ٣٠ و ٥ : ٤٦٥ و ١١ : ٣١٦ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ١٢٠٧ – ١٢١٠ ، Rabie, H., op.cit. p. 143-144) .

هو خاص بمال السلطان [١] ، يتحدَّث فى مجموع الأمر فى الخاص بنفسه ، وفى العام يأخذ رأيه فيه ، فبقى تحدُّثه فيه وبسببه كأنه هو الوزير لقربه من السلطان وزيادة تصرُّفه [٢] .

ولنذكر وَضْع كل وظيفة مما ذكرنا .

ذكر الوظائف

[وظائف أرباب السيوف]

أما « النِيَابَة » فقد تقدَّم قولنا إنه سلطانٌ مختصر فيما هو نائب عن الحضرة ، وأن النائبَ هو المتصرِّف المُطْلق التصرف فى كل أمر يراجع فى الجيش والمال والخَبَر وهو البريد ، وكل ذى وظيفة فى نيابة لا يتصرَّف إلاَّ بأمره ، ولا يفْصِل أمراً مفصلاً إلاَّ بمراجعته ، وهو يستخدم الجند ويرتب فى الوظائف ، وأما ما هو جليلٌ منها كالوزراء والقضاة وكتابة السرِّ والجيش فإنه ربما عَرَضَ على السلطان منْ يصْلُح وقلَّ أن لا يجاب [٣] ، وربما سمَّى أكابرهم هؤلاء النواب « مَلِكُ الأُمَراء » [٤] . وإذا حصلت المنافسة لا يستحقها إلاَّ مَنْ هو بدِمَشْق لأنها ليس بالشام قاعدة الملك سواها .

وأما « النِيَابَة العُظْمَىٰ » فهى نيابة الحضرة ، ويسمى هذا النائب « كافل الممالك » [٥] ، وقد نبَّهنا فيما تقدم على كبير محله وهو السلطان الثانى . وجميع نوَّاب الممالك تكاتبه فى غالب

---

(١) القلقشندى : صبح ١١ : ٣١٦ .

(٢) نفسه ١١ : ٣١٦ ، السيوطى : حسن ٢ : ١٣٠ – ١٣١ .

(٣) راجع ، السبكى : معيد النعم ٢١ – ٢٤ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٦ – ١٨ و ٥ : ٤٥٣ – ٤٥٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٤ – ٢١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣٠ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ١٢١٩ – ١٢٢٩ ، ماجد : نظم سلاطين المماليك ٢ : ٤٣ – ٤٤ .

(٤) ملك الأمراء . من الألقاب التى اصطلح عليها لكفَّال الممالك من نوَّاب السلطنة ، كأكابر النوَّاب بالممالك الشامية ومن فى معناهم . وذلك أنه قام فيهم مقام الملك فى التصرف والتنفيذ ، والأمراء فى خدمته كخدمة السلطان . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٥٥) .

(٥) كافل الممالك الإسلامية . هو نائب السلطان بالحضرة ، يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ، ويُعلِّم فى التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك ... على كل ما يعلم عليه السلطان ، وبقية النواب لا يعلم الرجل منهم إلَّا على ما يتعلق بخاصة نيابته . (العمرى : التعريف ٦٥) . ويميز عن نواب السلطان بالممالك الشامية بأن يعبر عنه بـ « كافل المملكة الشريفة الإسلامية » . (المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٥ ، القلقشندى : صبح ١١ : ١٣٤) .

ما تكاتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما يُرَاجَع السلطان ، وهو يستخدم الجُنْدَ من غير مشاورة ، ويعيِّن الأمراء ولكنه بمشاورة السلطان [١] .

وعادتُه أن يركب بالعسكر فى أيام المواكب وينزل الجميعُ فى خِدْمَته . فإذا مَثَلَ فى حضرة السلطان ، وقف فى ركن الإيوان ، فإذا انقضت الخدمة ، خَرَج إلى دراه والأمراءُ معه ومَدَّ لهم السِّمَاط كما يَمُدُّ السلطان ويجلس جلوساً عاماً للناس ، ويحضُره أرباب الوظائف ، ويقف قُدَّامه الحُجَّاب وتقرأ عليه القصص وتُقَدَّم إليه الشكاة ، ثم يَصْرِف الناس [٢] .

ولما كانت النيابة قائمة على هذه الصورة ، لم يكن السلطان يتصدَّى بنفسه لقراءة القِصَص [٣٩٨] عليه وسماع الشَّكوى ، بل كان يكتفى بالنائب . ثم إن النائب إذا قرئت عليه القِصَص : فما كان يكفى فيها مرسومه أصْدَرَه عنه ، وما لم يكن فيه بدٌّ من صدور مرسومٍ سلطانى فيه أمر بكتابته عن السلطان وإصداره فيُكْتَب ويثبته ، فيما يكتب أنه بإشارته ثم يصدر . وما كان من الأمور المُعْضِلَة التى لابدَّ له من إحاطة عِلْم السلطان بها ، يُعْلمه بها تارة منه إليه وَقْت اجتماعه به ، وتارة يرسل من يُعْلمه بها ويأخذ أمره فيها [٣] .

وكان ديوان الإقطاع ، وهو الجيش فى زمان النيابة ، ليس لهم خِدْمة إلاَّ عنده ولا اجتماع إلاَّ به ولا اجتماع لهم بالسلطان فى أمرٍ من الأمور . وأما الوزير وكاتب السرّ فقد يراجعانه فى بعض الأمور دون بعض . ثم اضمحلت النيابة بالحَضْرَة وتقهقرت أوضاعُها ، وأما الآن فقد بَطُلَت [٤] .

وأما « الحَجَبَة » ، فهى موضوعة [٥] لأن صاحبها يُنْصِفُ بين الأمراء والجُند تارةً بنفسه ، وتارةً بمشاورة السلطان ، وتارة بمشاورة النائب إن كان . وإليه تقديم مَنْ يَعْرِض ومن يَرِد ، وعَرْضُ

---

(١) القلقشندى : صبح ٤ : ١٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣٠ .

(٢) القلقشندى : صبح ٤ : ١٧ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٥ .

(٣) القلقشندى : صبح ٤ : ١٧ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٥ .

(٤) القلقشندى : صبح ٤ : ١٧ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٥ .

(٥) عن أصل وظيفة الحاجب وتاريخها راجع ، القلقشندى : صبح ٥ : ٤٤٩ - ٤٥٠ ، السبكى : معيد النعم ٤٠ - ٤٢ ، أبا المحاسن : النجوم ٧ : ١٨٥ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٣٨٨ - ٣٩٣ ، ماجد : نظم سلاطين المماليك ٢ : ٤٥ - ٤٦ .

الجند وما ناسب ذلك . وأما مع عَدَم النيابة فهو المشار إليه فى الباب والقائم مقام النوَّاب فى كثير من الأمور [١] .

وأما « إِمْرَة جَانْدَار » . فصاحبها كالمتسلِّم للباب [٢] ، وله به البَرْدَدَارية [٣] وطوائف الركابية [٤] والحريسانية [٥] والجاندارية . وهو يقدِّم البريد مع الدَّودار وكاتب السر ، على ما قدَّمنا ذكره . وإذا أراد السلطان تعزير أحدٍ أو قَتْله كان على يد صاحب هذه الوظيفة ، وهو المتَسَلِّم للزَرَدْخَانَاه التى هى أَرْفَع قدراً فى الاعتقالات من السجن المُطْلَق ، ولا تطول مدَّة المعتقل بها ، بل إما أن يعمل بتخلية سبيله أو إتلاف نفسه ، وقد قدَّمنا القول إن صاحب هذه الوظيفة يدور بالزَّفَّة حول السلطان فى سفره مساءً وصباحاً [٦] .

وأما « الأُسْتَاذْدَار » [٧] . فإليه أمر بيوت السلطان كلها من المَطَابخ والشَّراب خاناه والحاشية والغِلْمان ، وهو الذى يمشى بطلب السلطان [فى السرحات والأسفار] [٨] و [له] [٨] الحكم فى غِلمانه وباب [٣٩٩] داره ، وإليه أمور الجَاشِنْكرية ، وإن كان كبيرُهم

---

(١) القلقشندى : صبح ٤ : ١٩ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٩ – ٢٢٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣١ .

(٢) المعروف بأمير جَانْدَار . وهو اسم يتألَّف من ثلاث كلمات : أمير العربية ، وجان الفارسية والتركية ومعناها الروح ، ودار الفارسية ومعناها ممسك . فيكون المعنى الكلى « الأمير الممسك للروح » قال القلقشندى : « ولم يظهر لى وجه ذلك إلاَّ أن يكون المراد أنه الحافظُ لدم السلطان فلا يأذَنُ عليه إلاَّ لمن يأمن عاقبته » . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٦١) .

(٣) البَرْدَدَارية وواحدها بَرْدَدَار . وهو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الجملة متحدِّثاً على أعوانه والمتصرفين فيه . وأصله « فَرْدَدَار » بفاء فى أوله ، وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما فَرْدا ومعناه الستارة ، والثانى الدار ومعناه ممسك ، والمراد « ممسك الستارة » (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٦٨ – ٤٦٩) .

(٤) الركابية . انظر أعلاه ص ٣٢ هـ ٦ .

(٥) كذا فى الأصول وفى صبح الأعشى : الخازندارية ! .

(٦) القلقشندى : صبح ٤ : ٢٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٢ ، السيوطى . حسن المحاضرة ٢ : ١٣١ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ١٩٥ – ١٩٨ ، ماجد : نظم سلاطين المماليك ٢ : ٤٨ – ٤٩ . وانظر أعلاه ص ٣٢ .

(٧) الأستادار . هكذا وردت فى أغلب المصادر ، ونبَّه القلقشندى إلى أنها « الإسْتَدَّار » بكسر الهمزة . وهو مركب من لفظتين فارسيتين : إحداهما استذ بمعنى الأخْذ . والثانية الدار ومعناها المُمْسِك ، فأدغمت الذال الأولى ، وهى المعجمة ، فى الثانية وهى المهملة فصار اسْتَدَّار . والمعنى : المتولى للأخذ لأنه المتولى لقبض المال . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٥٧ . وقارن ذلك بحسن الباشا ، الفنون والوظائف ٣٩ – ٤٠ وما ذكر من مصادر) .

(٨) زيادة لازمة من الخطط ٢ : ٢٢٢ .

نظيرَه فى الإمْرة من ذوى المئين ، وله حديثٌ مطلق وتصرف تامٌّ فى استدعاء ما يحتاجه كلُّ مَنْ فى بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك [(١)] .

وأما « إمْرة سِلاَح » [(٢)] . فهو مقدَّم السِّلاح دارية والمتولى لحَمْل سلاح السلطان فى المجامع الجامعة ، وهو المتحَدِّث فى السِّلاح خَانَاه وما يُستَعمل لها وما يُقَدَّم إليها ويُطْلَق منها ، وهو من أمراء المئين [(٣)] .

وأما « الدَّوَدارِيَّة » [(٤)] . فهم لتبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور ، وتقديم القصص إليه ، والمشاورة على مَنْ يَحْضَر إلى الباب وتقديم البريد ، هو وأمير جَانْدَار وكاتب السرّ كما تقدَّم ، ويأْخُذُ خطّ السلطان على عموم المناشير والتواقيع والكتب . وإذا خرج عن السلطان بمرسوم يكْتُب ويُعَيِّن رسالته [(٥)] .

وأما « نِقَابة الجيوش » . فهو كأحد الحجَّاب الصغار ، وله تحلية الجند فى عَرْضهم ، ومعه يمشى النُّقَبَاء . وإذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميراً لَوْجه ما ، قالوا له : أرْسِل إليه

---

(١) القلقشندى : صبح ٤ : ٢٠ ، السبكى : معيد النعم ٢٦ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣١ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٣٩ – ٤٨ . وانظر عن الجاشنكير فيما يلى ص ٧٣ هـ ٢ .

(٢) أمير سلاح . لقبٌ على الذى يتولى أمرَ سلاح السلطان أو الأمير . ويجمع على أمراء سلاح . وهو مذكر ويجوز تأنيثه . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٥٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٧ : ١٨٤) . وتختلف هذه الصيغة من حيث التركيب اللغوى عن الوظائف المملوكية التى يدخل فى تكوينها لفظة أمير ، مثل : أمير دوادار وأمير خازندار . ففى الحالة الأولى أضيفت لفظة « أمير » إلى اسم الآلة « سلاح » ، فى حين إنه فى الحالة الثانية أضيفت إلى اسم الوظيفة « دوادار – خازندار » . (حسن الباشا : الفنون والوظائف ٢٢٥ . (Ayalon, D., EI., art . « Amir . (Silah » I, p. 458 .

(٣) القلقشندى : صبح ٤ : ١٨ ، السبكى : معيد النعم ٣٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣١ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٢٢٥ – ٢٢٧ .

(٤) الدَّوادار . لقب الذى يحمل دواة السلطان أو الأمير . وهو مركَّب من لفظين : أحدهما عربى وهو الدَّوَاة ، والمراد التى يُكْتَب منها . والثانى فارسى وهو دار ومعناه ممسك . فيكون المعنى « مُمْسك الدَّواة » وحذفت الهاء من آخر الدواة استثقالاً . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٦٢ . وانظر ابن خلدون : المقدمة ٦٨٢ وأبا المحاسن : النجوم ٧ : ١٨٥) .

(٥) القلقشدى : صبح ٤ : ١٩ ، السبكى : معيد النعم ٢٥ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣١ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٥١٩ – ٥٣٥ ، ماجد : نظم سلاطين المماليك ٢ : ٤٦ ، Ayalon, D., EI., art. « Dawadar » II,p. 177-178 .

وأحضره . وإذا أمروا بالترسيم على أحدٍ من هؤلاء أمروه فَرَسَم عليه . وهو ممن يطلب بالخزانة فى الموكب وفى السفر [(١)] .

وأما « الولاية » . فهم أصحاب الشُّرْطَة ، وطبقتهم معروفة معلومة [(٢)] .

[وَظَائِف أَرْبَاب الأَقْلاَم]

وأما وظائف أرباب الأقلام فأجلُّها « الوزارة » . لأن ربَّها ثانى السلطان إذا أُنْصِفَ وعُرِفَ حقُّه ، ولكن فى هذه المُدَد حَدَثَت عليها النيابة وتأَخَّرَت الوزارة حتى قعد بها مكانها [(٣)] ، وقد تقدَّم قولُنا على أنه وليها أُنَاس من أرباب السيوف والأقلام بأرزاق على قَدْر الإنفاق .

ووظيفة « الوَزَارَة » أشهر من أن يذكر وضع مباشرها لنفاذ كلمته وتمام تصرُّفه ، ولكنها فى أخريات هذه الأيام تقَهْقَرت حتى كان المتحَدّث فيها كناظر المال لا يتعدَّى الحديث فى المال ، ولا يتَّسع له فى التصرف مجال ، ولا تمتدُّ يده فى الولاية والعَزْل لتطَلُّع السلطان إلى الإحاطة بجزئيَّات الأحوال [(٤)] .

ثم إن السلطان أبْطَل هذه الوظيفة وعَطَّل جيد الدولة من عقودها ، [٤٠٠] وصار ما كان إلى الوزير منقسماً إلى ثلاثة : إلى ناظِرِ المال أو شادّ الدواوين [(٥)] أمْر تحصيل المال وصَرْف

---

(١) القلقشندى : صبح ٤ : ٢١ - ٢٢ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣١ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ١٢٩٨ - ١٣٠٠ .

(٢) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣١ .

وميَّز القلقشندى الولاة بالحاضرة على صنفين : ولاة الشرطة وهم ثلاثة : والى القاهرة ووالى الفسطاط ووالى القرافة . ووُلاة القلعة وهم اثنان : والى القلعة ووالى باب القلة . (القلقشندى : صبح ٤ : ٢٢ - ٢٣ وانظر أيضاً ٥ : ٤٥٠) .

(٣) القلقشندى : صبح ٤ : ٢٨ و ١١ : ٢٧٠ - ٢٩٤ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣١ وانظر القلقشندى : صبح ٥ : ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٥) فى صبح : ناظر المال ومعه شاد الدواوين .

وشاد الدواوين . الوظيفة التاسعة عشرة من وظائف أرباب السيوف زمن المماليك ، وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقاً للوزير متحدثا فى استخلاص الأموال ، وما فى معنى ذلك ، وعادتها إمرة عشرة . (القلقشندى : صبح ٤ : ٢٢ ، السبكى : معيد النعم ٢٨ وراجع ، النويرى : نهاية الأرب ٨ : ٢٩٨ (وظيفة المشد أو المتولى) ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٦١١ - ٦١٣) .

النفقات والكُلَف . وإلى ناظر الخاص [١] تدبير جملة الأمور وتعيين المباشرين [٢] . وإلى كاتبِ السِّرِّ التوقيع فى دار العدل مما كان يوقِّع فيه الوزير مشاورة واستقلالا ، ثم إن كلًّا من المتحدِّثين الثلاثة لا يقدر على الاستقلال بأمرٍ إلَّا بمراجعة السلطان ومراجعته عليه [٣] .

وأما « كِتَابَةُ السِّر » [٤] . فموضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخْذُ خَطِّ السلطان عليها ، وتسفيرها ، وتصريف المراسيم وروداً وصَدَرا ، والجلوس لقراءة القصص بدار العَدْل والتوقيع عليها . وقد صار يوقِّع فيما كان يوَقَّع عليه بقلم الوزارة على حسب ما يرسم به السلطان [٥] .

وأما « نَظَرُ الجَيْش » . فقد تقدَّم فى ذكر الإقطاعات ، وعند ذكر النيابة مما يدلُّ على حال صاحب هذه الوظيفة مما فيه كفاية . وهذا الناظر معه من المستوفين من يحرز كلِّيات المملكة

---

[١] ناظر الخاص . انظر أعلاه ص ٥٤ .

[٢] القلقشندى : صبح ٤ : ٣٠ .

[٣] المصدر نفسه ٤ : ٣٠ .

وعن الوزارة راجع ، القلقشندى : صبح ٤ : ٢٨ - ٣٠ و ٥ : ٤٤٨ - ٤٤٩ ، السبكى : معيد النعم ٢٧ - ٢٨ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٣ وفيه أنه إذا كان من أرباب الأقلام أطلق عليه « الصاحب » ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣١ - ١٣٢ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ١٣٢٢ - ١٣٤٢ ، ماجد : نظم سلاطين المماليك ١ : ٤٢ - ٤٨ وانظر أعلاه ٥٤ هـ ٢ .

[٤] كتابة السِّر . وصاحبها يعرف بكاتب السر وهو صاحب ديوان الإنشاء (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٦٤) . وكان متولى ديوان الإنشاء من أيام الدولة الفاطمية يعرف بكاتب الدَّست . وظل الأمر كذلك إلى أن ولى الديوان القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر فى أيام المنصور قلاوون ، فلُقِّب بكاتب السر ، ونقل لقب كاتب الدَّست إلى طبقة دونه من كتاب الديوان ... والعامة يبدلون الباء من كاتب السر بميم فيقولون كاتم السر ، وهو صحيح المعنى . (القلقشندى : صبح ١ : ١٠٤) .

وراجع ، السبكى : معيد النعم ٣٠ ، القلقشندى : صبح ٤ : ٣٠ و ١١ : ٢٩٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٥ - ٢٢٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣٢ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٩٢٢ - ٩٢٥ ، ماجد : نظم سلاطين المماليك ١ : ٥٤ - ٥٧ ، Wiet, G., « Les secretaires de la chancellerie en Egypte sous les Mamlouks circassiens » , Mél. Henri Basset, Paris 1923 ، أحمد درَّاج : « مرسوم السلطان قايتباى الخاص بكتاب السر والقضاة والصادر فى شهر شوال ٨٧٤ هـ » ، مجلة البحث العلمى والتراث الإسلامى - مكة المكرمة ٣ (١٤٠٠ هـ) ٢٥٧ - ٢٨٢ و « تراجم كتاب السر فى العصر المملوكى (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ) » ، المصدر نفسه ٤ (١٤٠١ هـ) ٣١٥ - ٣٥٠ .

[٥] القلقشندى : صبح ٤ : ٣٠ .

وجزئياتها [١] ، فرأسهم هو « مستوفى الصُّحْبَة » وهو يتحدَّث فى جميع المملكة مصراً وشاماً ، ويكتب مراسيمَ يُعَلِّم عليها السلطان ، تارة تكون بما يُعْمَل فى البلاد ، وتارة بإطلاقات ، وتارة باستخدامات كتَّاب فى صغار الأعمال ، ومن هذا وما يجرى مجراه [٢] . وهى وظيفة جليلة تلى النظر . وأما بقية المستوفين فكل منهم حديثه مقيَّد لا مُطْلق فإنه لا يتعدَّى حديثه قُطْراً من أقطار المملكة .

وهذا الديوان هو أرْفَع دواوين الأموال ، وفيه تثْبت التواقيع والمراسيم السلطانية ، وكلُّ ديوان من دواوين الأموال هو فرعٌ هذا الديوان وإليه يرفع حسابه وتتناهى أسبابه [٣] .

وأما « نَظَرُ الخِزَانَة » . فكانت الخزانة أولاً كبيرة الوضع لأنها مستودَع أموال المملكة ، فلما استُحدِثت وظيفة الخاص ، ضَعُف أمْرُ هذه المسمَّاة بالخِزَانة ، وصارت تسمَّى بالخزانة الكبرى ، وهو اسم أزْيَد من مسمَّاه . ولم يبق بها الآن إلاَّ خِلَعٌ تخلع منها أو ما يحضر إليها [٤] ويصرف أولاً فأوّلاً ، وفى الغالب يكون ناظرها [٥] من القضاة أو ممن يلتحق بهم [٦] .

وأما « نَظَرُ البيوت » . فهو ناظرٌ جليلٌ وهو منوط بالأستاذدارية ، [٤٠١] فكل ما يتحدَّث فيه أستاذدار له فيه مشاركة الحديث [٧] ، وقد تقدَّم تفصيل حال وظيفة أستاذدار فيما تقدَّم .

---

(١) نظر الجيش . موضوعُها التحدُّث فى الإقطاعات بمصر والشام ، والكتابة بالكشف عنها ، ومشاورة السلطان عليها وأخْذُ خطه . (القلقشندى : صبح ٤ : ٣٠ - ٣١ و ١١ : ٣٢١ وراجع ، السبكى : معيد النعم ٣٣ - ٣٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣٢ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ١١٩٣ - ١١٩٨ ، Rabie, H., op. cit., p. 41).

(٢) استيفاء الصحبة . ويعرف صاحبها بمستوفى الصحبة . والمستوفى موظف مدنى مهمته ضبط الديوان والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٦٦) .
وراجع القلقشندى : صبح ١١ : ٣٤٨ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ١٠٨٨ .

(٣) القلقشندى : صبح ٤ : ٢٩ .

(٤) المصدر نفسه ٤ : ٢٩ .

(٥) فى الأصول : وفى غالب ما يكون ناظرها لمن القضاة . والمثبت من صبح الأعشى .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ٣١ و ١١ : ٣٣٦ - ٣٣٩ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣٢ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ١٢٠٢ - ١٢٠٦ .

(٧) القلقشندى : صبح ٤ : ٣١ و ١١ : ٣٤٢ - ٣٤٥ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣٢ .

فأما « نَظَرُ بيت المال » . فهى وظيفةٌ جليلةٌ معتبرة ، موضوعها حملُ حمول المملكة إلى بيت المال والمنصرف منه تارة بالميزان وتارة بالتسبيب بالأقلام . ولا يلى هذه الوظيفة إلَّا من ذوى العدالة المبرزة [١] .

وأما « نَظَرُ الاصْطَبْلاَت » . فهو ديوانٌ جليلٌ ، مبَاشِرُه فى اصطبل للسلطان وله الحديث فى أنواع الاصطبلات والمَنَاخَات وعليقها وأرزاق المستخدمين فيها ، وما لها من الاستعمالات والإطْلاق ، وكل ما يُبْتاع لها أو يُبْتاع منها [٢] .

[وَظَائِفُ ذَوِى العِلْم]

وأما وظائفُ ذوى العِلْم فقد تقدَّم القول أنها : القَضَاء [٣] والخَطَابَة ووكَالَة بيت المال والحِسْبَة [٤]، وهذه وظائفُ معروفة ومباشراتُ أربابها معلومة ، لأنه لا يكاد تخلو مملكة من ممالك الإسلام منها [٥] .

---

[١] القلقشندى : صبح ٤ : ٣١ (وفيه : قال فى مسالك الأبصار : ولا يليها إلَّا ذو العدالة البارزة من أهل العلم والديانة) ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣٢ .

[٢] القلقشندى : صبح ٤ : ٣٢ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣٢ ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ١١٨٢ - ١١٨٣ . ويعرف صاحب هذه الوظيفة بأمير آخور (صبح ٣ : ٤٧٥ ، خطط ١ : ٤٤٤) .

[٣] الأصول : القضاة .

وعن القضاة فى العصر المماليكى راجع بالإضافة إلى كتاب ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، مقال Salibi, K., « Liste chronologique des Grands Qadis d'Egypte sous les Mamelouks », REI 25 (1957), pp. 71-112 .

[٤] راجع مَقَالَىّ 'Abd ar-Raziq, A., « La Hisba et les Muhtasibs en Egypte au temps des Mamluks », An. Isl. XIII (1977), pp. 115-178; « Les Muhtasibs de Fostat au temps des Mamluks », An. Isl. XIV (1978), pp. 127-146 .

[٥] السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٣٢ .

وراجع ، القلقشندى : صبح ٤ : ٣٤ - ٣٧ و٥ : ٤٥١ و ١١ : ١٧٤ و ٢٢٢ - ٢٢٥ و ٢١٦ - ٢٢٢ و ٢٠٩ - ٢١٥ .

فَصْـل

وفى هذه المملكة وفيما هو متعلِّق بها مجموعُ المَسَاجِد الثلاثة [١] التى لا تُشَدُّ الرحالُ إلَّا إليها : المَسْجِدُ الحَرَام [٢] ، والبَيْتُ المُقَدَّس ، ومَسْجِدُ النَّبِىّ ﷺ [٣] .

وأول ما نبدأ به ما هو محقَّقٌ فى هذه المملكة وداخلٌ فى حدودها وهو « القُدْس » وبه « المَسْجِد الأَقْصَىٰ » و « الصَّخْرة » [٤] التى هى أوَّل القِبْلَتَيْن ، وإليه كان إسْرَاءُ النبىّ ﷺ من المسجد الحرام كما قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَىَ المَسْجِدِ الأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الآية ١ سوة الإسراء] . وبجانبه الأيمن الطُور وعليه كانت مخاطبة موسى عليه السلام . وفيه وفيما حوله غالب مَدَافِن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

قال التِّيفَاشِى [٥] فى كتاب « سرورُ النَّفْس بمَدَارِك الحَوَاسِ الخَمْس » [٦] : ذَكَرَت الرواة أن هذه الأرض التى بَارَكَ الله فيها وحولها أربعون ميلاً طولاً فى أربعين ميلاً عرضاً فى تدوير البيت

---

(١) انظر العمرى : مسالك الأبصار ١ : ٩١ .

(٢) نفسه ١ : ٩٢ - ١١١ .

(٣) نفسه ١ : ١٢٣ - ١٢٦ .

(٤) نفسه ١ : ١٣٣ - ١٤٠ . وانظر فيما يلى ص ١٣٧.

(٥) التيفاشى ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبى بكر المتوفى سنة ٦٥١ هـ . (الصفدى : الوافى بالوفيات ٨ : ٢٨٨ - ٢٩١ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ١ : ٢٤٧ ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ٣٩ (١٩٦٤) ١٢ - ٢٦ ، حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية (تونس ١٩٦٦) ٢ : ٤٤٨ - ٤٦٠ ، مقدمة محمد يوسف حسن لكتاب أزهار الأفكار (القاهرة ١٩٧٧) .

(٦) ليس هذا عنوان كتاب التيفاشى وإنما هو عنوان أحد مختصراته . فقد وضع التيفاشى موسوعة كبيرة فى أنواع العلوم والآداب بلغت عدد مجلداتها نحو أربعة وعشرين مجلدة عنوانها « فصل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » استعان فى تأليفها بخزانة الصاحب محيى الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى الجزرى (الصفدى : الوافى ١ : ١٧٢ و ٨ : ٢٨٨) واختصر هذا الكتاب جمال الدين محمد بن مكرّم ابن منظور الإفريقى صاحب « لسان العرب » وهو الذى سماه « سرور النفس » منه أجزاء فى مكتبة حسن حسنى عبد الوهاب (ورقات ٢ : ٤٥٨) ، كما نشر أحمد فارس الشدياق قسماً من مختصر ابن منظور بعنوان « نثار الأزهار فى الليل والنهار » (مط . الجوائب ١٢٩٨ هـ) .

وبذلك يكون نقل ابن فضل الله العمرى عن مختصر كتاب التيفاشى الذى اختصره ابن منظور وليس عن أصل الكتاب الذى وضعه التيفاشى نفسه .

المقدس ، والبيتُ المقدس فى وسطها . وكان اسمها فى الزمن الأوّل إيلْيَا ، وقول الله تعالى يحقّق أن بيتَ المقدس فى وسط تربيع الأرض المقدَّسة التى بارك الله تعالى فيها .

و « المَسْجِدُ الأقْصَىٰ » فى قبَّة السِّلْسِلَة ، [٤٠٢] كان مجلسَ داود عليه السلام (١) ، وفيه أيضاً الموضع الذى عُرِجَ بالنبى ﷺ إلى السماء منه ، وهو تحت قُبَّة المِعْرَاج ، وفيه موضعُ مصلَّى أيُّوب عليه السلام بالملائكة على قبَّةٍ يقال لها قبَّةُ الملائكة ، وفيه الصَّخْرَةُ التى كان يقرب عليها يُوشَع بن نون خلافه لموسى بن عمران ، وفيه مِحْرَابُ مريم ، وفيه متعَبَّدُ زكريا وهو نفسه من بناء داود وسليمان عليهما السلام (٢) .

قلت : وفيه قبرُ إبراهيم الخليل على الصحيح وإن لم يصحّ القبر المعيَّن الآن بعينه (٣) . وقد تضمَّن كتابُ الله العزيز والأحاديث الواردة عن النبى ﷺ من فضائله ما فيه كفاية .

والصَّخْرَةُ قِبْلَةُ اليهود الآن ، وإلى القدس حَجُّهم . وبالقدس القُمَامَة التى يحجُّها النصارى من أقطار الأرض وأعماق البحر (٤) .

وإلى جانب القُدْس مدينة نابُلُس (٥) محسوبة من الأرض المقدَّسة ، وداخلة فى حدودها ، وإلى طورها حجُّ السَّامِرَة ، وهم طائفة من اليهود ينتمى أئمتها إلى نبوَّة هارون عليه السلام (٦) .

---

(١) راجع العمرى : مسالك الأبصار ١ : ١٦٦ .

(٢) زار العمرى هذه الأماكن قال : « ولقد دخلت إلى بعض هذه الأماكن ، ورأيت من عجائب الأبنية بها ما يملأ العين » . (مسالك الأبصار ١ : ١٦٧) .

(٣) راجع ما كتبه العمرى عن « قبر الخليل عليه الصلاة والسلام وما جاوره من قبور بنيه والأزواج » وزيارته للسرداب الذى فيه قبور الأنبياء . (مسالك الأبصار ١ : ١٦٨ - ١٧١) .

(٤) القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٢ .

(٥) انظر فيما يلى ص ١١٨ .

(٦) لم يعتبر اليهود الربانيون والقرائيون السامرة من اليهود ، وترجع اليهود نشأة هذه الفرقة إلى أيام السبى البابلى سنة ٥٨٦ ق . م . وعندما أصبحت الديانة المسيحية هى دين الإمبراطورية الرومانية الرسمى تعرض اليهود والسامريون لموجات الاضطهاد مما أدى باليهود إلى اعتبار السامريين فرقة يهودية ذات صبغة خاصة . وقد وجدت منهم فى مصر والشام جماعات صغيرة طوال العصر الإسلامى . (قاسم عبده قاسم : أهل الذمة ١١٣ - ١١٥ وقارن القلقشندى : صبح ١٣ : ٢٦٨ - ٢٦٩) . وأخبر عنهم القرآن أنهم معاصرين لموسى عليه السلام [الآية ٨٥ سورة طه] .

فالقُدْسُ الشريف معَظَّم عند جميع المسلمين واليهود والنَّصَارى ، ومكان زيارة لهم أجمعين ، وإنما اختلافهم فى أماكن الزيارة منه . وما نبَّهنا على هذا إلَّا لما فيه من الفائدة لإطباق الجميع على تعظيمه وقصده بالزيارة .

وأما الحَرَمَان الشريفان « مكَّة » و « المَدِينَة » زادهما الله جلالةً وتعظيماً ، فهما من الحِجَاز . ولم يزل أمراء المدينة الشريفة المترامين إلى صاحبَ مصر فى غالب أوقاتهم ومعظم أيَّامهم إلَّا القليل النادر ، فإنه ربَّما عصى بعضهم ومع هذا لا يترامى إلى سواه .

وأما أمراءُ مكة المعَظَّمة فقد كان منهم من يسرحوا فى ارتقاء يرضى صاحب مصر بأنه سامعٌ له مطيع ، ويقول لصاحب اليمن مثل ذلك ، وكان أكثرُ ميلهم إلى صاحب اليمن وحقيقةُ هواهم معه ، ثم ترامَوا إلى صاحب العراق لقوَّة سلطانه . و [٤٠٣] ما برح هذا السلطان يحبس منهم ويُطْلق ويقيم الواحد بعد الواحد ، ويجهِّز إليهم الجيش مرَّة بعد أخرى ليَصْفُوا له كدرهم وهم على علاَّتهم ، فأما الآن فقد حَكَمَ عليهم حكماً قاهراً حتى انْقَاد له صعبهم ولاَنَت له شكائمهم ، على إباءٍ فيها واعوجاج بها ، وذلك لما مات أبو سعيد بهادرخان بن محمد خدابنده ، سلطان العراق [(١)] ، وتشعَّبَت بعده الأهواء ، ولم يعد إلى بعد تأليف كتابى هذا إليهم تحمل ولا صَفَت لهم أمور .

وأُمَرَاءُ المدينة من بنى الحسين بن على رضى الله عنهما من أولاد جَمَّاز بن شيحة [(٢)] .

وأمراء مكة المعَظَّمة من أولاد الحسن بن على رضى الله عنهما من أولاد إدريس بن قَتَادَة ، وبكل منهما جماعة من الأشراف أقارب أمرائها [(٣)] .

---

(١) هو آخر من ملكها من بنى هولاكو ، وكان بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مكاتبات ومراسلات وتودُّد بعد وحشة . وبموته تفرَّقت المملكة بأيدى أقوام ، وصارت شبيهة بملوك الطوائف من الفرس . (القلقشندى : صبح ٤ : ٤٢٠) .

(٢) ملك مكان أخيه عيسى سنة تسع وأربعين وستمائة ، وطال عمره وعَمى ومات سنة أربع أو خمس بعد السبعمائة ، وظلَّت الإمرة فى بيته إلى زمان العُمَرِى . (العمرى : التعريف ٢٠ ، القلقشندى : صبح ٤ : ٣٠٠ ، السخاوى : التحفة اللطيفة ١ : ٤١٤ - ٤١٨) .

(٣) فى التعريف ١٩ : وإمرتها فى الأشراف بنى حسن واستقرت فى أولاد أبى نُمَىّ ، وهى الآن فى رُمَيْثة وهو آخر من بقى من بيته وعليه كان النص من أبيه دون البقية مع تداولهم لها . والقائم بها عنه ابنه عجلان .

وراجع ، القلقشندى : صبح ٤ : ٢٧٢ - ٢٧٥ .

العقد الثمين ٢ : ٤٢٦ - ٤٤١

وهؤلاء أمراء مكة والمدينة ، على طاعتهم وعصيانهم ، لابد للقائم منهم بالأمر من ملاطفة صاحب مصر حتى يأخُذ منه تقليداً بالأمر لخوفهم من قُرْبه ومواصلة ركبانهم إليهم من مصر ودمشق . وقد ذكرنا هذا توفيةً بشرط هذا الكتاب ، ولم نتعرَّض إلى ذكر فضائلهما كفى الحرمين عن ذلك .

وفيهما البيتُ المحْجُوج المحبوب ، ونبيُّ هذه الأمَّة وشفيعُها سيِّدنا محمد ﷺ . فحسبهما بمكان بيت الله ورسوله المصطفى ﷺ شرفاً تتطامن له أعناقُ السماء ويمسك بأطراف البطين الثرى والماء .

* * *

ومما هو فى حدود هذه المملكة مما له اسم سلطان حاكم ومُلْك منصرف « حَمَاة » وهى مدينة بين حِمْص وحَلَب [1] ، وهى لبقايا ملوك بنى أيُّوب ، من أراد صاحب مصر ولَّاه ومن أراد عَزَلَه . ولقد كانت انْتُزِعَت منهم بعد موت المظَفَّر شادى بن المنصور محمد بن المُظَفَّر ووليَت لنوَّاب كبقية نواب هذه المملكة . ثم إن هذا السلطان أعادَها إلى أهل البيت الأيُّوبى ومَلَك بها المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل بن على بن المُظَفَّر [2] ابن عم الذى انتزعت بعد موته ، ثم بعده لولده الأفضل محمد [3] ، وهو القائم بها الآن ، يستقِلُّ فيها بإعطاء ، [٤٠٤] الإمرة والإقطاعات وتولية القضاة والوزراء وكتَّاب السرِّ وكل الوظائف ، ويكتب المناشير والتواقيع من جهته ، ولكنه لا يمضى أمراً كبيراً مثل إعْطَاء إمْرَة أو إعْطَاء وظيفة كبيرة حتى يُشَاور صاحب مصر ، وهو لا يجبه إلاَّ بأن الرأى ما يراه ، وهذا ومثله .

---

(1) انظر فيما يلى ص ١٢٦ .

(2) انظر فى ترجمته ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٩ : ١٧٣ - ١٧٩ ، ابن شاكر : فوات الوفيات ١ : ١٨٣ - ١٨٨ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٩ : ٤٠٣ - ٤٠٧ ، المقريزى : السلوك ٢ : ٣٥٢ ، أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ٢٩٢ والمنهل الصافى ١ : ٢٠٨ ظ والدليل الشافى ١ : ١٢٥ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ١ : ٣٩٦ .

(3) راجع ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٢ : ٢٢٤ - ٢٢٧ .

وهذه حَمَاة مبنية على نهر العَاصِى وهى من أحاسن مُدُنِ الشام .

ومما يجب ذكره هنا « بلادُسِيس »[1] ، وهى ما بين حَلَب والروم استولى عليها الأَرْمَن من قديم ، ومملكتها فى بيت لارد بن مليح الأرمينى من مدَّة متقدِّمة . وبلادُها بعضُها أغْوار على ساحل البحر وبعضها متعلِّقة بالجبال وهما من العواصم ومما يليها ، ومُلْكُها مترامٍ إلى صاحب العراق والعَجم منتظم فى سلكه وما خَرَج عسكره إلى الشام لقتال صاحب مصر إلاَّ وخَرَج معهم وكَثُر سواد عسكره وبالغ فى نكاية الإسلام وأهله ، وهو مع هذا يدارى صاحب مصر ويداهنه ويحمل إليه مالاً فى كل سنة قطيعة مقدَّرة . وفى كل وقتٍ وحين تغزوه عساكر مصر والشام فى عُقْر البيرة وفتحت البلاد وسبى النساء والذَّرارى . وفى سنة تأليفى فيها هذا الكتاب ، وهى سنة ثمان وثلاثين وسبع مائة ، جهَّز السلطان فِرْقَةً من العساكر إليها فخاف صاحبُها وسلَّم جانباً من بلاده مما يلى المملكة الإسلامية من نهرجِيهَان إلى ما لاصق البلاد ، وصارت بحمد الله فى يد الإسلام وقَبْضَة السلطان وقدَّر عليه القطيعة على باقى بلاده .

* * *

ومن خصائص[2] هذه المملكة « معدن الزُّمُرُّد » وهو بالبَرِّ المتصل بأسوان ، له من جهة السلطان ديوان وشهود وينفق على العمال به ويقام لهم المون لحفره واستخراج الزمرد منه ، وهو فى جبال مرملة يحفر فيه وربما سقط على الجماعة به فماتوا . ويجمع ما يخرج منه ويُحْمَل إلى السلطان ومنه يحمل إلى البلاد . ورأيت منه قطعة وسطها أخضر فى نهاية الحُسْن وأطرافُه جميعه أبيض وما بين وسطه وأطرافه بين اللونين ، ثم كُلَّما كان أقرب [٤٠٥] إلى الوسط كان أقرب إلى الخُضْرة ، وما كان إلى الطرف كان أمْيَل إلى البياض إلى أن كان آخره أبيض ، والوسط أنضجته الطبيعة نضجاً كاملاً والأطراف لم يكمل نضجها فسبحان الله مُبْدع كل شىء .

---

(١) العمرى : التعريف ٥٥ – ٥٦ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٣٠ و ١٣٤ – ١٣٥ و ١٧٩ .

(٢) هنا يعيد العُمَرى بعض ما ذكره فى أول حديثه على مملكة مصر مع بعض الاختلاف . (انظر أعلاه ص ١١ – ١٣) .

وبها « البَلَسَان » وهو شجرٌ قصار بالمطرية ، حاضرة عين شمس ، بالقرب من القاهرة . ويسقى من بئر هناك ، ولا يكون إلَّا فى تلك البقعة . وهذه البئر يعظّمها النصارى وتَقْصِدُها وتغتسل بمائها وتستشفى به على زعمها . ويخرج لاعتصار البَلَسَان أوان إدراكه من قِبَل السلطان من يتولَّى ذلك ، ويحفظه ويحمل إلى الخزانة ، ثم ينقل منه إلا قلاع الشام والمارستانات لمعالجة المبرودين ، وملوك النصارى من الحبوش والروم والفرنج يهادون [١] السلطان بسببه ويشهدونه منهم لأنهم لا يصحُّ عندهم تَنَصُّر إلاَّ بالغَمْس فى ماء المعمودية . وعندهم أنه لابد أن يكون فى ماء المعمودية من دُهْن البَلَسَان [٢] هكذا أخبرنى جماعة من النصارى . وهو ظاهر التقدم فى معالجة الفَالِج وارتخاء الأعصاب وسائر الأمراض .

وفيها القرصفة والصنم السليمانى والسنبس ، من مكان يعرف بدار العربة قريب مصر ، أنفع دواء للاستسقاء .

ومنها « الأفْيُون » وهو عُصَارة الخَشْخَاش الأسود المصرى ، وكذلك الجوز المائل وهو يطلع بدمياط . وأما ما يطلع بجبال القدس وبلاد فلسطين والأردن من الحشائش المنصوص عليها فى كتب الأطباء فكثيرٌ جداً كالمرياقلون ذات الألف ورقة التى هى من أجلّ الباذرهات النافعة من السموم القتَّالة .

ولم نذكر هذا إلَّا على سبيل العَرْض ، وإلَّا فليس من المقصود .

---

(١) كذا فى ب وفى م وت : يستهدونه ، وفى الخطط : يتهادونه من صاحب مصر .

(٢) المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٠ وهو منقول من المسالك دون الإشارة إليه ، وانظر أعلاه ص ١٤ .

ذكر عادة هذه المملكة فى الخِلَع ومراتبها

وهى ثلاثة أنواع : أرباب السيوف والأقلام والعلماء [١]

فأما « أرباب السيوف » فخِلَعُ أكابر ذوى المئين منهم الأَطْلَس الأحمر الرومى ، وتحته الأطلس الأصفر الرومى ، وعلى الفوقانى طَرْز زَرْكَش ذهب وتحته سنجاب وله سَجْفٌ من ظاهره مع القباء قُنْدس [٢] وكَلُّوْتَه [٣] زركش مذهب ، وكُلاَليب [٤] ذهب ، وشاش لاَنِس [٥] رفيع موصول به فى طرفيه حريرٌ أبيض مرقوم بألقاب السلطان [٤٠٦] مع نقوشٍ باهرة من الحرير الملوّن ، مع مِنْطقة ذهب ، ثم تختلف أحوال المِنْطَقة بحسب مقاديرهم : وأعلاها أن يعمل بين عمدها بواكر وسطى [٦] ومجنبتين مرصَّعة بالبَلَخْش والزُّمُرُّد واللؤلؤ ، ثم ما كان ببيكارية واحدة

---

(١) نشر كاترمير هذا الفصل وترجمه فى كتاب « تاريخ سلاطين المماليك » Quatremère, E., « Histoire des Sultans Mamlouks de L'Egypte » II/2 Paris 1845, pp. 70-74 وكان المقريزى قد نقل هذا النص فى الخطط ٢ : ٢٢٧ – ٢٢٨ دون إشارة إلى مصدره ، كما فعل فى كل ما نقله عن العمرى ، واختصره القلقشندى فى صبح الأعشى ٤ : ٥٢ – ٥٣ .

واعتمد Mayer عند حديثه على ثياب التشريف فى عصر المماليك على ما ذكره العمرى وعلّق على قيمته بقوله : « حتى إن الإنسان ليجد صعوبة كبرى إذا أراد أن يحاول محاولة أفضل وأدق مما قدَّمه هذا المؤلف بأسلوبه الخاص » وأورد هذا النص فى كتابه عن الملابس المملوكية اعتماداً على اقتباس المقريزى فى الخطط . (Mayer, L.A., « Mamluk Costume » pp. 58-60) .

(٢) قندس ويقال المقندس . القماش المنسوج من فراء القندس ، وهو كلب البحر ، ويعرف بالكستور . (المقريزى : السلوك ٢ : ٣٣٦ هـ ٢) .

(٣) انظر أعلاه ص ٣٤ هـ ٦ .

(٤) كُلَّاب جـ . كُلَاليب . هو المَشْبك أو الأبزيم ، وأكثر استعماله فى تحلية الكلُّوْتة . (المقريزى : السلوك ٢ : ٣٣٦ هـ ٥ ، Mayer, L.A., op.cit., p. 28) .

(٥) الشاش . ما يُلَف حول غطاء الرأس من قماش . (المقريزى : السلوك ٢ : ٣٣٦ هـ ٤) .

(٦) فى الأصل : بواكير أوسط والتصويب من الخطط .

مرصَّعة ، ثم ما كان ببيكارية واحدة من غير ترصيع [١] . فأما من تقلّد ولاية كبيرة منهم فإنه يُزَاد سيفاً محلّىً بذهب [٢] وفرساً مُسْرَجاً ملْجماً بكنبوش مذهب [٣] .

وصاحبُ حَمَاة خلعته من أعلا هذه الخِلَع [٤] وبُدِّل الشاش اللانس بشاش يُعْمل بالإسكندرية من الحرير شبيه بالطول ويموَّج بالذهب يعرف بالمُتَمَّر [٥] ، ويعطى فرسان أحدهما كما ذكر ، والآخر يكون عِوَض كنبوشه زنارى أطْلَس أحمر . وقد استقر لنائب الشام [٦] مثل هذا وأزيد بتركيبة مزركش ذهب دائرة بالقَبَاء الفوقانى [٧] .

ودون هذه المرتبة فى الخِلَع نوعٌ يُسَمَّى الطَّرْد وَحْش [٨] يعمل بدار الطراز بالإسكندرية وبمصر وبدمشق ، وهو مَجوَّخ جاخات كتابة بألقاب السلطان ، وجاخات طَرْد وَحْش

---

[١] هذا وصف هيئة المنطقة (الحياصة) . (انظر أعلاه ص ٣٨ هـ ٢) .

والبيكارية جـ . بواكر (بواكير) . رقيقتان مستطيلتان من المعدن عليهما نصوص منقوشة توضح اسم الأمير الذى صنعت من أجله (Mayer, L., op. cit., pp. 27-58) .

[٢] فى الخطط ٢ : ٢٢٧ : يحضر من السلاح خاناه ويجلبه ناظر الخاص .

[٣] فى الخطط أيضاً : والفرس من الاصطبل وقماشه من الركاب خاناه ، ومرجع العمل فى سروج الذهب والكنابيش إلى ناظر الخاص .

[٤] انظر وصف خلعة صاحب حماة عند أبى الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٤ : ٨٧ حيث يذكر أنه منح هذه الخلعة فى يوم الخميس سابع عشر المحرم سنة ٧٢٠ وراجع Mayer, L.A., op. cit., p. 57 .

[٥] المُتَمَّر . تبعا لماير يبدو أن العمرى ، ومن نقل عنه ، انفردوا بذكر هذا النوع من الأطلس . وهذا النوع من القماش كان من أغلى وأثمن أنواع النسيج ، وكان يستخدم فى صناعة أجل ثياب التشريف الخاصة بالطبقة الرفيعة (Mayer, L.A., op. cit., p. 14 n. 4) .

[٦] ذكر المقريزى فى الخطط أن نائب الشام المقصود هو تَنْكِز . (الخطط ٢ : ٢٢٧) .

وهو تنكز بن عبد الله الحُسَامى الناصرى ، ولى نيابة دمشق ثمانية وعشرين سنة ، ثم حبسه الناصر محمد فى الإسكندرية إلى أن قتل بها فى سنة ٧٤١ . (الصفدى : الوافى بالوفيات ١٠ - ٤٢٠ - ٤٣٥ (ترجمة مفيدة) ، ابن شاكر : فوات الوفيات ٢ : ٢٥١ - ٢٥٨ ، المقريزى : السلوك ٢ : ٥٠٦ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٢ : ٥٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ٣٢٧ - ٣٢٨ (والفهرس ٣٤٨) والمنهل الصافى ١ : ٤٣٥ والدليل الشافى ١ : ٢٢٨) .

[٧] القلقشندى : صبح ٤ : ٥٢ - ٥٣ و ٥ : ٤١٩ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٧ .

[٨] الطرد وَحْش . هكذا ورد هذا المصطلح فيما بين يدى من مصادر إلاّ أن المقريزى ذكره باسم طرز وحش (الخطط ٢ : ٢٢٧) بمعنى المطرز عليه صور الوحش وأظن هذا المعنى أقرب وأدق . (وراجع Mayer, L.A., op. cit., p. 59; Serjeant, R.B., « Islamic Textiles », Beirut 1972, p. 150 ومناقشة كاترمير Quatremère, E., op. cit., p. 69-70 .

أو طَيْر ، وجاخات ألوان ممتزج بقصب مذهب ، تفْصل بين هذه الجاخات نقوشٌ وطراز ، هذا من القصب . وربما كَبُر بعضهم فركَّب عليه طرازاً مزركشاً بالذهب وعلى [فَرْو] (١) السنجاب والقندس ، كما تقدَّم ، وتحته قَبَاء من المفرَّج الاسكندرانى الطرح ، وكَلَّدْتة زركش وكلاليب وشاش على ما تقدم ، وحِيَاصَة ذهب تارة تكون ببيكارية وتارة لا تكون ببيكارية ، وهذه لأصاغر أمراء المئين ومن يلحق بهم (٢) .

ودون هذه الرتبة كَمْخَا (٣) عليه نقش من لون آخر غير لونه ، وقد يكون من نوع لونه بتفاوت بينهما [وتحته] (١) سنجاب مقندس ، والبقية كما قدَّمنا ذكره ، إلَّا أن الحِيَاصة والشاش لا يكونان بأطراف رقْم بل تكون مجوَّخة بأخضر وأصفر مذهب [و] (١) لا تكون ببيكارية (٤) .

ودون هذه الرتبة كَنجى (٥) بلون واحد بسنجاب مقندس والبقية على ما ذكر ، وتكون الكَلَّوْتة خفيفة الذهب وجانباها يكاد [٤٠٧] أن يكونا خاليين بالجملة ولا حِيَاصَة له (٦) .

ودون هذه الرتبة مُجوَّم لونٌ واحد والبقية على ما ذكر خلا الكلَّوْته والكلاليب (٧) .

ودون هذه الرتبة مجوَّم وقندس وتحته قَبَاءٌ ملَّون بجاخات من أحمر وأخضر وأزرق ، أو غير ذلك من الألوان ، وسنجاب وقندس وتحته قباء إما أزرق أو أخضر ، وشاشٌ أبيض بأطراف من نِسْبَة ما تقدَّم ذكره (٨) .

ثم ما دون هذا النوع ، ولابد من تنقيص ما .

وأما « الوزراء والكُتَّاب » فأجل خلعهم كَمْخَا (٩) أبيض مُطَرَّز برقم حرير ساذج وسنجاب

---

(١) زيادة من الخطط .

(٢) القلقشندى : صبح ٤ : ٥٣ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٧ .

(٣) فى الخطط : كنجى وجعل الكمخا المرتبة التالية .

(٤) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٧ .

(٥) الكنجى . قماش منسوج من قطن وحرير ، كان يصنع أولا فى كنجة بجهات أران ، ثم انتقلت صناعته إلى مناطق أخرى . (المقريزى : السلوك ١ : ٨٤٧ هـ٩) .

(٦) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٧ .

(٧) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٨) نفسه ٢ : ٢٢٨ .

(٩) فى الأصول : كنجى والتصويب عن الخطط .

وقندس ، ويُبَطَّن القندس بالسنجاب وتملأ الأكمام به ، وتحته كمخا [١] أخضر وبقيار [٢] كتّان من عمل دمياط مرقوم وطرحة .

ثم دون هذه الرتبة عدم تبطين القندس بالسنجاب وإخلاء الأكمام منه . ودونها ترك الطرحة . ودونها أن يكون التحتانى مُجَوَّماً . ودون هذا أن يكون الفوقانى من نوع الكنجى لكنه غير أبيض ، ثم تحته عتَّابى طرح أو ما يجرى مجراه . ثم ما دون ذلك كما قدَّمنا فى خِلَع أرباب السيوف [٣] .

وأما « القُضَاة والعُلَماء » فخِلَعُهم من الصوف بغير طراز ولهم الطرحة ، وأجلَّه أن يكون أبيض وتحته أخضر . ثم ما دون ذلك على نحو ما قدَّمناه [٤] .

وأما « أهْبَة الخطباء » فإنها من السَّواد للشعار العباسى [٥] ، وهو دِلْقٌ مُدَوَّر ، كما قدَّمنا وصفه فى ذكر زىّ العلماء [٦] ، وشاش أسود وطَرْحة سوداء ، وينصب على المنبر عَلَمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب . ويخرج المُبَلِّغ من المؤذنين قدَّام الخطيب وعليه سوادٌ مثل الخطيب ، خلا الطرحة ، وفى يده السيف ، فإذا صَعَد الخطيب المنبر أخذ منه السيف ، فإذا رقى المنبر وسلَّم ، أذَّن لابس السواد تحت دَرَج المنبر وتبعه المؤذِّنون ، ثم ذكر الحديث الوارد : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة ، والإمام يخطب ، انصت فقد لَغَوْت » ، ثم يُبَلِّغ عنه الصلاة والرضا والدعاء للخليفة [٤٠٨] والسلطان ، هو ثم المؤذنون ، ثم إذا انحط إلى الصلاة أخذ السيف من يده .

وهذه الأُهُب تُصْرَف من الخزانة ، ثم تكون فى حواصل الجوامع لتلبس فى ساعات الجُمَع ، فإذا خُلِعَت أعيدت الخِلْعة إلى الخزانة وصرف لهم عوضها [٧] .

---

(١) فى الأصول : كنجى والتصويب عن الخطط .

(٢) البقيار . لباس للرأس خاص بالقضاة وكبار العلماء . كان يصنع من قماش اسكندرانى رفيع فاخر يسمى « طَرْح » . وبذلك يكون أشبه بنوع من العمائم وليس بغطاء رأس من طراز القلنسوة . (Mayer, L.A., op. cit., p. 50) .

(٣) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٨ .

(٤) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٨ وانظر أعلاه ص ٥٠ - ٥١ .

(٥) فى الخطط : تحمل إلى الجوامع من الخزانة .

(٦) انظر أعلاه ص ٥٠ .

(٧) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٨ .

ذِكْرُ العِيدَيْن

قد تقدَّم ذِكْرُنا لهيئة السلطان فى ركوبه أيام الأعياد . وبقى ما لابدَّ من ذِكْرِه هنا وهو : أنه إذا ركب من باب قصره بقلعة الجبل ونزل إلى مَنْفَذة من الاصطبل إلى ميدان العيد الملاصق له ، يترك به فى دِهْليز قد ضُرِبَ له على أكْمَل ما يكون من الأُبَّهَة (١) ، فيُصَلِّى ويَسْمَع الخُطْبة ، ثم يركب ويعود إلى الإيوان الكبير – المقدَّم ذكره – ويمدُّ به السِّمَاط ويَخْلَع على حَامِل الجِتْر ، والسِّلاَح ، وأُسْتَاذْدَار ، والجَاشْنَكِير (٢) ، وكثير من أرباب الذين لهم خِدْمة فى مهم العيد ، كنوَّاب أُسْتَاذْدَار ، وصِغَار الجَاشْنَكِير ونقيب النُّقَباء ، وناظر البيوت ، ومثل هؤلاء (٣) .

ومِنْ عادة هؤلاء (٤) أن يُعِدَّ له كل عيد خِلْعَة على أنها لملبوسه من نِسْبَة خِلَع أكابر أمراء المئين ، فما يلبسها هو ، ولكن يخصُّ بها بعضَ أكابر أمراء المئين يخْلَعها عليه (٥) .

ولصاحب مصر فى مثل هذا اليدُ الطُّولى حتَّى بَقِيَ بابُه سُوقاً يَنْفُقُ فيه كل مجلوب ، ويحْضُر إليه الناسُ من كل قُطْرٍ حتى كاد هذا يَنْهَك المملكة ويودى بمُتَحَصِّلاَتها عن آخرها . وغالب هذا مما قرَّرَه هذا السلطان ، ولقد يُتْعِب مَنْ يجيء بعده بكَثْرَة هذا الإحسان (٦) .

ولهذا السلطان عاداتٌ جميلة ، كلها من الخِلَع ، فى أوقات لعبه بالكُرَة على أناسٍ جَرَت لهم عنده عوائدُ بالخَلْع فى ذلك الوقت : كالجُوكَنْدَار (٧) ، والولاة ومَنْ يجرى مجراهم مما له خِدْمة فى

---

(١) فى صبح : الهيئة .

(٢) الجَاشْنَكِير . الذى يتصَدَّى لذَوَقان المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يُدَسَّ عليه فيه سُمٌّ ونحوه . وهو مركب من لفظين فارسيين : جَاشْنا ومعناه الذَّوْق ، وكير ومعناه المتعاطى لذلك . فيكون المعنى « الذى يذوق » أو « الذوَّاق » . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٦٠) . وكان يقف على السِّمَاط مع أستادار الصحبة ، وعادة ما يكون كبار الجاشنكيرية من الأمراء المقدمين . (القلقشندى : صبح ٤ : ٢١ وراجع ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٣٤٤ – ٣٤٦) .

(٣) القلقشندى : صبح ٤ : ٥٣ .

(٤) فى صبح : ومن عادة السلطان .

(٥) القلقشندى : صبح ٤ : ٥٣ .

(٦) القلقشندى : صبح ٤ : ٥٢ .

(٧) الجُوكَنْدَار وصوابه جوكاندار جـ جوكاندارية . لقب على الذى يحمل الجُوكَان مع السلطان فى لعب الكرة . مركب من لفظتين فارسيتين : جوكان ، وهو المِحْجَن الذى تُضْرب به الكرة ويقال له أيضاً الصَّوْلَجان ، ودار بمعنى مُمْسك . فيكون المعنى « ممسك الجوكان » . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٥٨ وراجع ، حسن الباشا : الفنون والوظائف ٣٧٣ – ٣٧٧) .

ذلك عادة ممَّا ينعم به ويطلقه . [٤٠٩] وإذا حصَّل له أحدٌ شيئاً مما يصيده فى صيوده خلع عليه . وأما إذا خَرَج إلى صَيْدِ الوَحْش وصادوا الغزلان والنعام فكل من أحضر له صيداً خَلَع عليه قَبَاءً مسنجباً بما يناسب خِلْعة مثله ، للكبير كبير وللصغير صغير كل واحدٍ على قَدْره ، وكذلك البازْدارية [(١)] وحَمَلَة الجَوَارِح ومن يجرى مجراهم ، عند كل صيدٍ إنعامات يُنْعِمُ بها عليهم . ولغلمانه فى الطشْتخَانَة والشَّرَابْخَانَات والفَرَاشْخَانَات ومَنْ يَجرى مجراهم عوائدَ فى كل سنة زمان الصيود ، كل هذه عوائد جارية لا تُقْطَع [(٢)] .

ولكل من يتَّصل بخِدْمة هذا السلطان ، ممن يرد عليه أو يُهَاجر من مملكة أخرى ، أنواع الإدْرَارَات ، والأرْزَاق والإنْعَام وغايات لا يبلغها قرارية بلاده واللائذين بظِلِّه . وكذلك التجَّار الذين يَصِلُون إليه ويبيعون عليه ، لهم عليه الرواتب الدائمة من الخبز واللَّحم والتوابل والحلواء والعليق والمُسَامَحات بنظير كل ما يبتاع عليه من الرقيق المماليك والجوارى ، مع ما يسامحهم به أيضاً من حقوقٍ تُطْلق أخرى . وكل هؤلاء إذا باعوا عليه ولو رأساً واحداً من الرقيق ، لهم خِلَعٌ مكمّلة لكل واحد بحَسَبه خارجاً عن الثمن وعمَّا ينعم به على بعضهم أو يسفر به من مال السلطان على سبيل القَرْض ليتاجر به [(٣)] .

فأما جلاَّبة الخيل ، من عَرَبِ الحِجَاز والشام والبَحْرَيْن وبَرْقة وبلاد المغرب ، فإن لهم من ذلك الحظَّ الوافر والنصيبَ الراجح . وربما أُعْطِيَ عن الفرس نظير ثمنها عشر مرَّات وأكثر ، غير الخِلَع والرَّواتب والعلوفات والأنزال ورسوم المقامات ، خارجة عن تثمين الخيول ، ومسامحات تُكْتَبُ لهم بالمقررات عن تجارات يتَّجرون بها مما أخذوه من أثمان الخيول [(٤)] .

---

(١) فى الأصول : البزدارية .
والبَازْدار جـ . بازْدارية . الذى يحمل الطيور - الجوارح المعدَّة للصيد على يده . وخُصَّ بإضافته إلى الباز - الذى هو أحد أنواع الجوارح - دون غيره ، لأنه هو المتعارف عليه بين الملوك فى الزمن القديم . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٦٩) .

(٢) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٨ .

(٣) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٨ .

(٤) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٨ .

* * *

قلت : وبهذه المملكة جميعُ قِبَل المِلَل . أما القِبْلَة الإسلامية فهو بيت مكة المعظَّمة ، وهو بها كما تقدَّم [١] . وأما اليهود فقِبْلَتهم البيت المقدَّس ، [٤١٠] وقد كان القِبْلَة الأولى فى المِلَّة الإسلامية ، وهو بها . وأما السَّامِرَة – وهم فرعٌ من اليهود – فقبلتهم إلى طور نابلس ، وهُوَ بها وعندهم أنه طور سينا . وأما النَّصَارى فلا قِبْلة لهم وتوجُّههم إلى الشرق لا لقِبْلَة ، وجميع معابدهم التى يعظِّمونها بها مثل : قُمَامَة وهى بالقدس وإليها حجهُّم من أقطار الأرض من البرارى والبحار . وبَيْت لَحْم ، وبه مولد عيسى المسيح عليه السلام . وكنيسة صَيْدَنَايا ببرِّ دمشق . وكنيسة صُور ، ومن ملوكهم مَنْ لا يَصِحُّ تمليكه حتى يُصَلَّى عليه فيها .

وكنيسه مريُحَنَّا بالإسكندرية هى معتقد اليَعَاقِبَة منهم [٢] وبها بَطْرَيْرك القِبْط [٣] ، وملوك الحَبَشة تعظِّم هذا البطريك وتُشير إليه بالتعظيم ، وإذا جاءهم كتابُه عملوا به لا خروج لهم عنه ولا مَنْدُوحة لهم عن حُكْمِه ، وهو يُوَلِّى عليهم مِطْرَاناً بعد مِطْرَانٍ [٤] ، كلَّما مات واحدٌ بَعَثَ غيره نائباً له فيهم ، وذلك المطران يقوم بالحبشة مقام البطريك فى الأمر والنهى فيهم وانقيادهم أجمعين إلى طاعته من غير مخالفة له ولا عليه فى شىء [٥] .

حَدَّثنى مَنْ أثِق به أن بعضَ التَّجار بمصر جَهَّز مالاً له مع مُسَفَّر به إلى الحَبَشَة فمات المُسَفَّر ، ويئس صاحبُ المال من ماله وكان مالاً كثيراً فعيل صبره ، وشكا إلى السَّلطنة بمصر حاله ، فقيل للبَطْريك فكتب كتاباً إلى ملك الحبشة يأمره بإعادة مال الرجل إليه . ثم إن

---

[١] العمرى : مسالك الأبصار ١ : ٩٢ – ١٠٩ .

[٢] اليعاقبة . هم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة . وعرفوا بذلك نسبة إلى أحد زعمائهم هو يعقوب البراذعى . ويمثل أتباع هذه الطائفة غالبية أقباط مصر وهم المعروفون اليوم بالأقباط الأرثوذكس . وكان مقر بطركهم بالإسكندرية . (القلقشندى : صبح ١٣ : ٢٧٨ – ٢٨٠ ، الخالدى : المقصد الرفيع ١٣٩ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٤٨٨ ، قاسم : أهل الذمة ١٠٦) .

[٣] البطرك أو البطريرك . لقب رئيس النصارى اليعقوبية بمصر المعروف ببطرك الإسكندرية . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٧٣) .

[٤] المطران : هو بمثابة القاضى الذى يفصل فى الخصومات بين الأقباط (نفسه ٥ : ٤٧٣) .

[٥] قارن القلقشندى : صبح ٥ : ٣٠٨ - ٣٠٩ .

صاحبَ المال سفَّر رجلاً اعتمد عليه فما طال به المكث حتى أتى بجوابه بالامتثال وأحضر معه جميع المال بعينه أصْلُه ورِبْحُه .

وحكى عن [١] تعظيم الحبشة لكتاب البطريرك أنه منذ دَخَل حدود بلادهم وعلموا بالكتاب تلقاه [٢] عمَّال الأطراف بها ورفعوا الكتاب على رُمحٍ وحملوه هو ومحْضَره ومَنْ حضر معه على أرفة الدواب ورتَّبوا له الإنزال والإقامات [٤١١] يوصِّله أهل كل عملٍ إلى الآخر على هذه الصورة حتى انتهى إلى حضرة الملك ، فبَالَغ فى إكرامه وإنزاله وإضافته . فلما كان يوم الأحد أخذ منه الكتاب وقرأه المِطْرَان فى الكنيسة على الملك وهو واقفٌ مكشوف الرأس إلى أن فَرَغ ، ثم أمَرَ بإحضار المال وتسليمه إليه ، ولم يخرج من مكانه حتى أوصل إليه المال ، ثم وصَلَهُ بصِلَة جيِّدة وأعاده مكرَّماً [٣] والإنزال جارٍ عليه من عملٍ إلى عملٍ إلى أن خَرَج من حدوده .

قلت : ولهذا جميعُ ملوك النصرانية ، الملكية [٤] واليَعَاقِبَة ، تُهَادى صاحب مصر وتراسله لاحتياجها تمكُّن المتردِّدين من عندهم من زيارة قُمَامة وبقية مزاراتهم . واليَعَاقِبَة أكثر حاجاتهم إليه لمقام بطريركهم عنده فإنهم لا باب لهم ، بخلاف الملكية فإن لأوْلئك الباب وهو برومية [٥] .

قلت : والباب [٦] هو طاغيتهم العُظْمى ، عندهم أن الحلال ما حلَّل والحرام ما حَرَّم ، ولا لأحدٍ عندهم مندوحة أن يتأخَّر عن أمره أو يتقدَّم .

---

[١] م : من .

[٢] ث : تلقوه .

[٣] ث : وإفاده مكرمة .

[٤] الملكية أو الملكانية . المعروفون اليوم بالروم الأرثوذكس وهم القائلون بالطبيعتين . وكان هو مذهب الإمبراطورية البيزنطية ، ولم يكونوا كثيرين بمصر كما كان أغلب الموجودين بمصر منهم من غير المصريين . (القلقشندى : صبح ١٣ : ٢٧٦ - ٢٧٧ ، المقريزى : السلوك ١ : ٩١٢ - ٩١٣ هـ٥ ، قاسم : أهل الذمة ١٠٣ - ١٠٥) .

[٥] قارن القلقشندى : صبح ٥ : ٣٠٨ .

[٦] الباب وهو البابا Le Pape . وهو القائم بأمور دين النصارى الملكانية وكرسيه بروما . (القلقشندى : صبح ٥ : ٤٨٢ وراجع المقريزى : السلوك ٢ : ٢٨٦ هـ٢) .

فَصْـل

ومن شِيعَةِ هذا السلطان طائفةٌ تُعْرف « بالإسْمَاعِيلِيَّة » مساكنهُم فى مِصْيَاف وما معها من قِلاَع الدعوة على مسامتة ما بين حِمْص وحَمَاة متَّصلة بالبحر الرومى إلى جانب طرابلس الشام ، هؤلاء هم الذين يُسَمَّون فى بلاد العَجَمِ تارةً بالبَاطِنِيَّة وتارةً بالمَلاَحِدَة [١] .

وملَخَّصُ معْتَقَدُهم التَّنَاسُخ ، وهم يسَمُّون أنفسهم أصحابُ الدَّعْوَة الهادية ، وهم شيعةُ الخُلَفَاء الذين كانوا بمصر وتسمَّوا بالفاطميين . وكان قد انتهت رئاسَةُ هذه الطائفة إلى رَاشِد الدين سِنَان [٢] ، وكان صاحبَ سِيمْيَاء أراهم بها ما أضَلَّ به عقولَهم من تخيُّل أشخاص ، فمَنْ مات على طاعةِ أئمتهم فى جنَانٍ ونَعِيم ، وأشخاص ممن مات على عِصْيَان أئمتهم فى النار والجحيم . وهم يعتقدون أن كلَّ مَنْ ملك مصر كان مُظْهراً لهم فلهذا تتولاَّه هذه الطائفة وترى إيلاف نفوسها فى طاعته لما ينتقل [٤١٢] إليه من النعيم الأكبر . ولصاحب مصر بتشَيُّع هؤلاء مَزِيَّة يخافه بها أعداؤه ، لأنه يُرْسِلُ من هؤلاء إليه مَنْ يقتله ولا يُبَالى أنْ يُقْتَل معه ، ومَنْ بعثَه صاحب مصر إلى عدوٍ له ليقتله فجَبُن قتله أهلُه إذا عَاد ، وإن هَرَب اتَّبعوه وقتلوه .

ولقد سألت المقدَّمَ عليهم والمشار إليه فيهم وهو : مُبَارك بن عُلْوَان عن مُعْتَقَدِهم وجاذَبْتُه فى هذا الحديث مرَّات ، فظهر لى أنَّ هذه الطائفة ترى الأرْوَاح مسجونةً فى هذه الأجسام المكَلَّفة

---

[١] عن إسماعيلية الشام راجع ، القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ١٤٦ - ١٤٧ و ١٣ : ٢٣٨ - ٢٣٩ ، برنارد لويس : الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) . نقله إلى العربية سهيل زكَّار (بيروت ١٩٧١) .

[٢] راشد الدين سنان بن سلمان بن محمد ، أبو محمد راشد الدين البصرى صاحب الدعوة الإسماعيلية فى قلاع الشام . (راجع أخباره عند ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١١ : ٤١٩ و ٤٣٦ و ١٢ : ٧٨ - ٧٩ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٤١٩ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ : ١٨٥ - ١٨٧ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ١٥ : ٤٦٣ - ٤٧٠ ، أبى المحاسن : النجوم الزاهرة ٦ : ١١٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٤ : ٢٩٤ - ٢٩٥ ، Guyard, M.S, « Un Grand maître des Assassins au temps de Saladin », JA 7 série IX (1877), pp. 324-489; Lewis, B., « Saladin and the Assassins », BSOAS XV (1954), pp. 239-245; id., « Kamal al-Din's biography of Rašid al-Din Sinan », Arabica 13 (1966), pp. 225-267 . ولمصطفى غالب : راشد الدين سنان شيخ الجبل الثالث (بيروت - دار اليقظة ١٩٥٧) .

بطاعة الإمام المُطَهَّر على زعمهم ، فإذا انتقلَتْ على الطاعة كانتْ قد تخَلَّصَت وانتقلت للأنوار العُلْويَّة ، وإن انتقلتْ على العِصْيَان هَوَتْ فى الظُّلُماتِ السُّفْلية [1] .

وعقيدتهم أن عليّاً ، رضى الله عنه ، كان المُطَهَّر ثم الانتقال منه . وليس هذا بمكان التطويل فيه .

---

[1] القلقشندى : صبح الأعشى ١٣ : ٢٣٨ - ٢٣٩ .

[المُدُن المشهورة بهذه المملكة]

وأكابر المدن المشهورة بهذه المملكة : قاعدة المُلْك الكبرى وهى « القَّاهِرَة » ، وقد تقدَّم القولُ على أنها هى والقلعة والفسطاط ثلاث مدن صارت مدينة واحدة [(١)] . وقُوص ، والإسكندرية ، ودِمْيَاط ، و « دِمشق » – وهى قاعدة الملك الثانية – ثم بَعَلْبَك ، ثم حِمْص ، ثم حَمَاة ، ثم حَلَب ، ثم طَرَابُلس ، ثم صَفَد ، والقُدْس ، والكَرَك ، وغَزَّة . وتقدَّم القول على مكة والمدينة المعظمتين وكيف دخولهما فى المملكة على ما بيَّنا هناك .

[قَلْعَةُ الجَبَل]

[(٢)]فأما قلعة الجبل [(٣)] ، فهى على نَشْز عالٍ يُسَمَّى الجبل الأحمر من تقاطيع جبل المُقَطَّم ، بناها قَرَاقوش للملك الناصر صلاح الدين أبى المظفَّر يوسف بن أيُّوب ، رحمه الله ، ولم يَسْكُنها حتى مَلَك أخوه الملك العادل أبو بكر فسكنها [(٤)] .

---

(١) السيوطى : حسن ٢ : ٣٣٣ وانظر أعلاه ص ٢٠ – ٢١ .

(٢ – ٢) من هنا وحتى نهاية العلامة فى صفحة ٨٤ نشره كازانوفا فى كتاب قلعة القاهرة Casanova, P., « Histoire et description de la Citadelle du Caire », MMAF VI (1891), pp. 667-672 .

(٣) عن قلعة الجبل وتاريخها راجع ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٨ – ٣٧٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠١ – ٢٣٢ ، أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٦ : ٥٤ هـ [١] ، Casanova, P., « Histoire et description de la Citadelle du Caire », MMAF VI (1891-92), pp. 509-781 نقله إلى العربية أحمد دراج وراجعه جمال محمد محرز بعنوان « تاريخ ووصف قلعة القاهرة » ، القاهرة – الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤ ، Creswell, K.A.C., « Archaeological researches at the Citadel of Cairo, BIFAO 23 (1924), pp. 89-158 وأعاد كتابته بتفصيل وزيادات قيمة فى كتابه : Creswell, K.A.C., « The Muslim Architecture of Egypt : Ayyubids and early Bahrit Mamluks 1171-1326 », Oxford 1959, pp. 1-40 ونقله إلى العربية جمال محمد محرز وراجعه عبد الرحمن زكى بعنوان « وصف قلعة الجبل » ، القاهرة – الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤ .

(٤) القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٩ ، السيوطى : حسن ٢ : ٢٣ وانظر أعلاه ص ٢١ .

وهى مبنيَّة على ذلك النَشْز ، ترتفع فى موضع منه وتنخفض فى آخر ، يدور بها سورٌ حجر بأبراج وبَدَنات إلى أن ينتهى إلى القصر الأَبْلَق [١] الناصرى المستجد بناؤه ، ثم من هناك تتَّصل بدور الملك وليست على أوضاع أبراج القلاع [٢] .

يُدْخل إلى القلعة من بابين : أحدهما [٤١٣] بابها الأعظم مواجه القاهرة [٣] ، والثانى ينفذ إلى القرافة [٤] ، بينهما ساحة فسيحة فى جانبيها قبلة بشَرْق وشمالاً بغرب بيوت ، وبالقبلى سوق للمآكل [٥] .

وينتهى من صدر الساحة إلى دِركاه جليلة يجلس بها الأمراء حتى يُؤْذَن لهم بالدخول . وفى وسطها باب القُلَّة [٦] ، يدخل منه فى دهاليز فسيحة إلى ديار وبيوت ومساكن إلى المسجد

---

(١) القصر الأبلق . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى شعبان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وانتهت عمارته فى سنة أربع عشرة وسبعمائة . وهو مشرف على الاصطبلات السلطانية التى كانت فى أسفل القلعة . (ابن أيبك : كنز الدرر ٩ : ٢٦٦ ، القلقشندى : صبح ٤ :٩٣ – ٩٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٩ والسلوك ٢ : ١٢٩ وفيه أنه بدئ بنائه فى أول سنة ٧١٣ وكمل فى سابع عشر رجب (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٧ : ٢٧٨ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٤٤٥) .

وقصد الناصر محمد أن يحاكى به القصر الأبلق الذى بناه الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٦٥ هـ . وقد أطلق عليه هذا اللفظ لأنه بنى بالحجر الأسود والأصفر بالتبادل ، ومعروف أن الأبلق فى اللغة يعنى الأبيض والأسود ، أو بصفة عامة الخليط من اللونين . (المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٩ وانظر فيما يلى ص ١١٤) .

ويرى كازنوفا أن هذا القصر هو الأثر الذى يعرف فى القلعة بقصر يوسف أو بيت يوسف ، والذى أصبح فى العصر العثمانى مقر صناعة كسوة الكعبة .

(Casanova, P., op. cit., p. 640). وحدَّد محمد رمزى موقع هذا القصر فى الجهة الغربية من القلعة حيث المكان الواقع على يمين الداخل من البوابة الوسطى للقلعة إلى الساحة التى بها جامع محمد على باشا ويشغل موضع هذا المكان السجن الحربى بالقلعة . (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ٣٦ هـ [٣] وانظر Creswell, K.A.C., MAE II, pp. 260-263) .

(٢) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٤ .

(٣) يقال له : باب المُدَرَّج . (القلقشندى : صبح ٣ : ٣٧٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٤ ، Creswell, K.A.C., op. cit., p. 33-35) .

(٤) يقال له : باب القرافة . (نفسه ٣ : ٣٧٠ ، نفسه ٢ : ٢٠٤ ، Ibid., p. 37-38) .

(٥) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٤ .

(٦) باب القُلَّة . يقع أمام الباب الشمالى لجامع الناصر محمد بالقلعة . عرف بذلك لوجود قلّة (برج مرتفع) بناه الظاهر بيبرس ، ثم هدمه المنصور قلاوون سنة ٦٨٥ وبنى مكانه قبة هدمها الناصر محمد وجدَّد موضعها باب القلة . (القلقشندى : صبح ٣ : ٣٧٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٨ : ٤٥ هـ [١] و ١٦ : ٣٢٠ – ٣٢١ ، Casanova P., op.cit., p. 646) .

الجامع [١] . وقد كان لها مسجدٌ لضيق بنائه فبناه هذا السلطان بناءً متَّسَع الأرجاء ، مرتفع البناء ، مفروش الأرض بالرخام ، مبطَّن السقوف بالذهب ، فى وسطه قبة عالية [٢] ، يليها المقصورة مستورة هى والرواقات بالشبابيك الحديد المُحْكَمة الصَّنْعة ، وتُحفُّ صَحْنه رواقات من جهاته [٣] .

ويُمْشى من دهليز باب القُلَّة - المقدَّم الذكر - فى مداخل أبواب إلى رَحْبَة فسيحة فى صدرها الإيوان الكبير [٤] المعد لجلوس أيّام المواكب ، وإقامة دار العَدْل . وبجانب الرَّحْبة ديارٌ جليلة ، وفى مُجَنَّبَته ممرٌ إلى باب القصر الأبْلَق ، تليه رَحْبَة صغيرة يجلس هناك خواصُ الأمراء قبل دخولهم إلى الخدمة الدائمة [٥] .

ويُمْشى من باب القصر فى دهاليز إلى قصر عظيم البناء شاهق فى الهواء بإيوانين أعظمهما الشمالى ، يُطَلُّ منه على الاصطبلات السلطانية [٦] ، ويمتد النظر إلى سوق الخيل والقاهرة وحواضرها إلى بحر النيل وما يليها من بلاد الجيزة وقُرَاها . وفى الإيوان الثانى القبلى بابٌ خاص لخروج السلطان وخواصه منه إلى الإيوان الكبير أيام المواكب [٧] .

ويدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جُوَّانية منها واحد مُسَامت لأرض هذا القصر الكبير ، واثنان مرفوعان يُصْعَد إليهما بدَرج فى جميعها شبابيك حديد تخترق إلى مثل منظر القصر الكبير [٨] .

---

[١] المسجد الجامع بالقلعة ويعرف بجامع الخطبة بناه الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٨ فى مكان مسجد قديم ربما كان من بناء الملك الكامل محمد (وهو أول من سكن بالقلعة) ، ثم أعاد بناء وتجديد أجزاء منه فى رواق القبلة سنة ٧٣٥ . وهذا الجامع كان بمثابة مسجد القصر الخاص طوال العصر المماليكى . (ابن أيبك : كنز الدرر ٩ : ٢٩٣ و ٣٨٢ - ٣٨٣ و ٣٨٨ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٧٠ - ٣٧١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٢ و ٣٢٥ والسلوك ٢ : ١٨٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٩ : ٥٦ هـ ٣ ، Casanova, P., op. cit., pp. 620-625 ، سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ٣ : ١٣١ - ١٣٩) .

[٢] قارن ابن أيبك : كنز الدرر ٩ : ٣٨٢ .

[٣] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٧٠ - ٣٧١ .

[٤] انظر أعلاه ص ٣٦ .

[٥] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٧١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٤ - ٢٠٥ و ٢١٠ .

[٦] Casanova, P., op. cit., p. 656 .

[٧] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٧١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٠ . وانظر أعلاه ص ٣٦ هـ ١ .

[٨] نفسه ٣ : ٣٧١ ، نفسه ٢ : ٢١٠ ، Casanova, P., op. cit., p. 641-644 .

وفى هذه القصور مجارى الماء [١] مرفوعاً من النيل بدواليب تديرها الأبقار من مقررة إلى أخرى حتى تنتهى إلى القلعة ، ثم يدخل إلى القصور [٤١٤] السلطانية ودور أكابر الأمراء الخواص المجاورين للسلطان ، يجرى فى دورهم وتدور به حمّاماتهم وهو من عجائب الأعمال لدفعته مما يقارب خمس مائة ذراع من مكان إلى مكان [٢] .

ويُدْخل من القصور الجُوَّانية إلى حَرَم الحريم وأبواب الستور السلطانية . وهذه القصور جميعها من ظاهرها بالحجر الأسود والأصفر ، مؤزَّرة من داخلها بالرخام والفَصّ المُذْهب والمُشَجَّر بالصَدَف والمعجون والمُطَرَّقات وأنواع الملونات ، والسقوف المَبَطَّنة ، بالذهب واللاَزَوَرْد . يخرق الضوء فى جدرانها بطاقاتٍ من الزجاج القُبْرُسى الملَّون كقِطَع الجوهر المؤلفة فى العقود . وجميع الأرض بها مفروش بالرخام المنقول إليها من أقطار مما لا يوجد مثله [٣] .

فأما الآدر السلطانية ، فعلى ما يصح عندى خبره ، ذوات بساتين وأشجار وساحات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور والدَّواجن [٤] . وباقى داخلها ، يعنى القُلَّة ،

---

[١] وهى القناطر التى أنشأها الناصر محمد بن قلاوون عوضاً عن القناطر العتيقة التى بناها صلاح الدين وكانت تمثل جزءاً من سور القاهرة الواصل إلى القلعة . (المقريزى : الخطط ٢ : ٢٣٠ ، على بهجت : حفريات الفسطاط ٢٦ و ٢٧) . وفى سنة ٧١٢ أنشأ الناصر محمد بن قلاوون أربع سواق على بحر النيل تنقل الماء إلى السور . وأدخل تعديلاً كبيراً على هذا المشروع فى سنة ٧٤١ وصار الماء يجلب من نواحى الرصد فى أبار أعدت لذلك ورُكّبت سواق فوق الآبار لنقل المياه إلى القناطر العتيقة التى تحمل الماء إلى القلعة . (المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٩ - ٢٣٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٩ : ١٦٠ - ١٦١ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٤٥٩ ، Casanova, P., op.cit., pp. 659-665) .
وكانت قناطر الناصر محمد تمر بمنطقة كوم الجارح حيث ضريح سيدى أبو السعود الجارحى اليوم . أما قناطر المياه القائمة اليوم عند منطقة فم الخليج فهى من إنشاء الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى أنشأها فى سنة ٩١٢ هـ (ابن إياس : بدائع الزهور ٤ : ١١٠) .
وما زالت آثار مجرى العيون التى أنشأها السلطان الغورى قائمة عند فم الخليج ومسجلة بالآثار تحت رقم ٧٨ . (Creswell, K.A.C., MAE, II, pp. 255-259 ، سعاد ماهر : « مجرى مياه فم الخليج » ، المجلة التاريخية المصرية ٧(١٩٥٨) ١٣٤ - ١٥٧) .

[٢] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٧١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢١٠ .

[٣] نفسه ٣ : ٣٧٢ ، نفسه ٢ : ٢١٠ .

[٤] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٧٢ .

للمماليك السلطانية وخواص الأمراء : نسائهم وحريمهم ومماليكهم ، ودواوينهم وطَشْت خاناتهم [١] ، وفَرَاش خاناتهم [٢] ، وشَراب خاناتهم [٣] ، ومطابخهم ووظائفهم .

والقلعة فيها مساكن لأكابر الأمراء ومن كبر من أمراء الطبلخانات والعَشَرات ، أو مَنْ خرج عن حكم الخاصكِيَّة إلى طبقة البرَّانيين [٤] ، ودار الوزارة ، ودار كاتب السر ، وديوان الإنشاء ، وديوان الجيوش ، وديوان الأموال ، والنقباء ، والزَّرْدخاناه [٥] ، والجيوش والأسرى وما يجرى هذا المجرى ، مقَسَّمة المساكن ، وفيها المساجد والحوانيت والأسواق فى جهاتها . هذه جملة العمارة .

ثم نذكر بقية ما يتعلَّق بالقصر السلطانية فنقول : إنه ينزل منه من جانب إيوان القصر إلى الاصطبلات السلطانية ، ثم إلى ميدان ممرَّج بالنجيل الأخضر ، فاصل بين الاصطبلات وبين سوق الخيل فى غربيه ، فسيح المدى يسافر النظر فى أرجائه . يركب السلطان من دَرَج يلى قصره الجُوَّانى [٤١٥] وينزل إلى الاصطبل الخاص ، ثم إليه راكباً وخواص الأمراء فى خدمته لعرض الخيول فى أوقات الإطلاق أو قبول القادم أو المشترى ، وفى أوقات طعم الطَّيْر . وربما وقف به راكباً ، وربما نزل فيه ولم ينصب عليه خيام ، وربما نصب عليه الخيام إذا طال مكثه وكان زمان حر أو برد وربما مدَّ به السماط ثم يطلع راكباً إلى قصره .

وبهذا الميدان أنواعٌ من الوَحْش المستحسن للنظر ، وتُرْبط به خواص الخيول للتفسُّح . وفى هذا الميدان يُصلى السلطان وخواصه ومن لا يقدر يفارقه من ذوى الخِدَم صلاة العيدين ، ونزوله إليه وطلوعه منه من باب خاص من دهليز القصر غير هذا المعتاد النزول منه لما قدَّمنا ذكره [٦] .

---

[١] الموضع الذى يكون فيه آلة الغسل والوضوء ، وآلة الحمام ، وآلات الوقود وكل ما يتعلّق بذلك . (النويرى : نهاية الأرب ٨ : ٢٢٥) .

[٢] حيث تكون أنواع الفُرُش والخيام والتخوت وما يتعلق بذلك . (نفسه ٨ : ٢٢٦ - ٢٢٧) .

[٣] حيث يوجد أنواع المشروب من المياه ، والسكر والدرياقات والسفوفات والمعاجين والأقراص ، وما يجرى هذا المجرى . (نفسه ٨ : ٢٢٤ - ٢٢٥) .

[٤] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٧٢ .

[٥] أى بيت الزرد ، وهى الدروع وربما أطلق عليها السلاح خاناه . (النويرى : نهاية الأرب ٨ : ٢٢٧ - ٢٢٨ و ٢٨٤ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١١) .

[٦] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٧٣ .

وللسلطان عدة أبواب سر إلى القرافة وإلى غيرها لا حاجة بنا إلى ذكرها .

قلت : هذه القصور ، والإيوان الكبير ، والميدان الأخضر ، والجامع ، وغالب العمائر الضخمة بالقُلَّة والقلعة عماره هذا السلطان [1] وبناؤه مطرَّزة الطُّرُز فيها بألقابه واسمه ، تَرُد الطرف كليلاً بأنوارها ، وترف القلوب على ما يفتح من نفوس نوَّارها [2] ، تقِرُّ الملوك بها لعلو همه وسعة إنفاقه وكرمه ، تقف عليها الأبصار ويعرف من رآها أنه هان عليه العدو والدينار .

والقَّاهِرَة

مدينة مبنية فى وطاة نائية عن دورة الجبل ، أرضها سِبَاخ ولأجل هذا يَعْجَل إلى مبانيها الفَسَاد [3] .

والفُسْطَاط

المسمَّى الآن على ألْسِنة العامة بمصر [4] ، مدينة مبنية على ضَفَّة النيل الشرقية . وقد بنى قُبَالتها فى الجزيرة المبنى بها المقياس ، أبنية كثيرة صارت كأنها فرضة من مصر . ومجرى النيل بينهما ، ولمنظره [5] عند امتداد ضوْ القمر أو إيقاد السُّرُج فى الليل منظر يجذب القلوب .

وكل من مصر والقاهرة وحواضرهما الممتدة ذات رِبَاع علية ، مبلغ بعضها أربع طبقات فى كل

---

(١) إلى هنا ينتهى ما نشره كازانوفا من نسخة باريس فى كتابه Casanova, P., « Histoire et description de la Citadelle du Caire », MMAF VI (1891), pp. 667-672 .

وعن منشأت السلطان الناصر محمد بن قلاوون راجع ، ابن أيبك : كنز الدرر ٩ : ٣٨٨ - ٣٩١ ، المقريزى : السلوك ٢ : ٥٣٧ - ٥٤٥ والمجلة التاريخية المصرية ٩ - ١٠ (١٩٦٠ - ٦١) ٢٤١ - ٢٥٠ ، أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ١٧٨ - ٢١٠ ، عبد الرحمن زكى : « أبو المحاسن وآثار القاهرة فى عصر الناصر محمد » فى كتاب « المؤرخ ابن تغرى بردى » (القاهرة ١٩٧٤) ١٦٥ - ١٧٥ ، Casanova, P., op. cit., pp. 619-665 .

(٢) فى ت : نفوذ زوارها .

(٣) القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٧ وانظر أعلاه ص ٢٠ هـ ٧ .

(٤) انظر أعلاه ص ٢٠ هـ ٦ .

(٥) فى الأصول : ومجرى النيل بينهما لمنظره بينهما .

طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومرافقها وسطح مقتطع لها من الأعلى بهندسة محكمة وصناعة [٤١٦] عجيبة ، مع كون البيوت بعضها تحت بعض ، لا يُرَى مثل صنّاع مصر فى هذا الباب [(١)] .

وفى كلٍ من هاتين المدينتين وحواضرهما القصور الشاهقة ، والديار العظيمة ، والمنازل الرحيبة ، والأسواق الممتدة ، والمدارس ، والخوانق ، والرُّبَط ، والزَّوايا . والجميع على اتساع رُقْعة البناء وفسحة الشوارع ، مزدحمة بالخلق سكناً وممشىً ، قد حُشِرت إليها الأمم واختلفت إليها أنواعُ الطرائف .

وقال لى غير واحد ممن رأى المدن الكبار والخطط العظام فى مشارق الأرض ومغاربها وبعيدها ومتقاربها ، إنه ما رأى مدينة اجتمع فيها من الناس ما اجتمع فى مصر والقاهرة وحواضرهما [(٢)] .

قال لى الصدر مجد الدين إسماعيل السَّلامى [(*)] ، وقد سألته عن بَغْداد وتُوْريز وهل يجمعان مثل مصر ؟ فقال : فى مصر خلق قَدْر كل من هو فى جميع البلاد منها إلى تُوريز [(٣)] .

وغالب من فيها من العوام والباعة وأهل المِهَن والصنائع ، كما قال القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى ، رحمه الله : أهل مصر كثرة عددهم ، وما ينسب من وفور المال إلى بلدهم ، مساكين يعملون فى البحر ، ومجاهيد يدانون فى البحر . وأحمله على أنه قَصَد السَّجْعَة ، إذ كل بلد فيها مجاهيد فى أعمالهم . وما زال هذا فى خاطرى لا زيادة عندى عليه ، إلى أن أقَمْت بمصر وسافرت فى صُحْبة السلطان غالب بلادها ، فرأيت خَلْقا ممن عليهم أرض مسجلة قد ركب المنخفض منها ولم يركب العالى ، وهم وقوف كل اثنين على مستنقع ماء وبأيديهما قُفَّة بخيط فى أذنيها وهما

---

(١) القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٦ .
وراجع وصف المبانى فى مصر منذ العصر الفاطمى وتعجب الرحالة من عدد طوابقها عند ، الاصطخرى : المسالك والممالك (القاهرة ١٩٦١) ٣٩ ، ابن حوقل : صورة الأرض ١٤٦ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ١٩٨ ، ناصر خسرو : سفر نامة ١٠١ ، ابن سعيد : المغرب ٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٤ و ٣٤١ وهذه الأوصاف كلها خاصة بالفسطاط .

(٢) القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٧ .

(٣) نفسه ٣ : ٣٦٧ .

(*) مجد الدين إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلامى (الوافى ٩ : ٢٢٠ - ٢٢١ ، الدرر ١ : ٤٠٨
دولة المماليك ثانية ١٤٦

يترفان الماء بها ضرباً باليد إلى ورائيهما فى مقررة محفورة يجتمع ما يُنْزح منها ثم يصرف فى مجارى إلى تلك الأعالى التى لم يركبها الماء يسقوها ، وهم من هذا فى جهد جهيد وأمر شديد . فعلمت أن هؤلاء الذين أراد القاضى الفاضل ، رحمه الله ، بقوله : مجاهيد يعملون فى البر ، فإنه ليس فى البلاد أشد جهداً منهم ، فإنهم [٤١٧] ملزمون بدرهم معين وإردب معين ، فإن لم يعملوا هذا أضنكهم الطلب ولم يجدوا جهة للوفاء .

* * *

وأما بَرُّ الديار المصرية فهو ريفٌ ممتد بين حاجزين واعقد رمل مفصل بالقرى [كذا] ، وهى مبنية بالطوب سود الظواهر يَجِفُّ بها نخل يقل فى بعض ويكثر فى الأخرى ، كلها على أنموذج واحد من رأى واحداً منها فكأنما رآها كلها .

وقُوص

مدينة [١] على شرقى النيل فى أعلا الصعيد واقعة فى المبانى ، ذات ديار جليلة ، وفَنَادق ، ورِبَاع ، وحمامات ، ومدارس . يسكنها جُلّة من التجار والعلماء وذوى الأموال . وهى أول محط رِكَاب تجار الهند والحبشة واليمن والحجاز الواصلون من البحر الملح من صحراء عَيْذاب [٢] . وبها المكاسب ، ولها البساتين والحدائق ومنابت البقول والخضراوات ، لكنها شديدة الحر كثيرة العقارب والسام أبْرَص ، وبها صنف من العقارب القتَّالات حتى إنه يقال فيها عن الملسوع [٣] : أكلته العقرب لأنه لا يُرْجى له إفاقة [٤] .

---

[١] راجع ، ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٢٠١ ، الحميرى : الروض المعطار ٤٨٤ - ٤٨٥ ، التجيبى : مستفاد الرحلة والاغتراب ١٧٣ - ١٧٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٦ - ٣٩٧ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٦ - ٢٣٧ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ٤/٢ : ١٨٧ - ١٨٩ ، Garcin, J.Cl., « Un centre musulman de la haute Egypte mediévale : QUS », Le Caire IFAO 1976; id., EI., art., « Kus », V, pp. 517-519 .

[٢] ابن جبير : الرحلة ٤١ - ٤٤ ، التجيبى : مستفاد الرحلة والاغتراب ١٧٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٦ .

[٣] فى ث : المسلوب وم وت : الملسوب ، والمثبت من صبح .

[٤] المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٦ .

قال لى عزُّ الدين حسن بن أبى المجد الصَّفَدى ، أحد العدول بالقاهرة : إنه عد فى يوم صيف على حائط الجامع [بها] سبعين سَامَّ أبْرَص على صف واحد [١] . والمستفاض أن أهل قوص إذا تمشَّى منهم أحد فى مكان أو خرج إلى بيته ، يأخذ بيده الواحدة مَسْرَجة وفى الأخرى مَشَك يشك به العقارب .

وبالصَّعِيد بقايا سِحْرٌ قديم ، يُحْكَى عنهم أشياء أصحُّ ما سمعت منها ما حكى لى من أثق به عن طَقْصبَا [٢] ، والى قوص ، قال : أمْسَكْتُ امراءةً ساحرة فقلت لها : أريد أن أبصر شيئاً من سِحْرك ، فقالت : أجْوَد عملى أنى أسحر العقرب ، فقلت لها : كيف تسحرى العَقْرَب ؟ قالت : أسحره على اسم شخص مخصوص فلا يزال ذلك العَقْرب يتتبَّع ذلك الشخص حتى يلْسَعَه فيقتله ، فقلت : أرينى هذا واسحرى العَقْرب على اسمى ، فأَخَذَت عَقْرَباً وسحرته وأرسلته فتبعنى فتعبت كلما أنتحى عنه وهو يتبعنى ، فجلست على تخت منصوب فى بِرْكَة ماء ، فجاءت العَقْرب إلى البركة وصارت [٤١٨] تحاول طلوعها إلىَّ ولا تقدر على اقتحام الماء ، فذَهَبت إلى الجدار وصَعَدت فيه وأنا أنظرها حتى ترقَّت إلى السقف وجاءت إلى مسامة مكانى ثم رَمَت بنفسها إلى أن نَزَلت إلى الأرض وقَصَدَتْنى فضربتُها بعصا فى يدى فقتلتها ، ثم أمْسَكْتُ تلك الساحرة فقتلتها لِمَا رأيت من سحرها العظيم [٣] . ويُحْكى كثيرٌ من هذا ليس هذا موضعُ ذكره .

ثم من قوص إلى أُسْوَان ومن أسوان المدخل إلى بلاد النُّوبة ، ومن أسوان شعبة إلى الصحراء إلى عَيْذاب على ساحل البحر يجاز منه إلى جُدَّة ، ميناء مكة المعظَّمة . ومن هذا البحر مسالك للتجَّار إلى عَدَن ثم إلى ما أرادوا من الهند واليمن والحبشة .

ولم نَذْكر قوص دون ما سواها فى الصَّعيد إلاَّ لأنها هى مدينتها الحاضرة وبها يحط مصعداً ومنحدراً زُمُر الرِّفاق المسافرة .

---

(١) القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٧ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٦ .

(٢) الأمير سيف الدين طقصبا الحسامى الظاهرى ، أحد المماليك الظاهرية بيبرس ، ترقى فى الخدم إلى أن وَلِىَ قوص وغزا النوبة فى سنة ٧٠٥ وعبر إلى دنقلة وعاد بعد أن مكث هناك بالعسكر تسعة أشهر . (المقريزى : المقفى (مخ . باريس) ١٤ و) .

(٣) المقريزى : الخطط ١ : ١٨٩ - ١٩٠ .

والإسكندرية

مدينة [١] قديمة جليلة ، وكانت فى القديم أكبر مما هى الآن وأعْظَم فى كثرة الأهل والبنيان . بناها الإسكندر ذو القرنين على شاطىء البحر الرومى ، وكان بها على ما يقال سريرُ ملكه ومستقر أمه . وجميع بنائها بالحجر والكَلْس مبيِّضة البيوت باطناً وظاهراً كأنها الحَمَامَةُ البيضاء ، ذات شوارع مُشْرعة ، وسيعة الأرجاء ، كل خط بذاته كأنها رُقْعة الشِّطْرَنْج ، يستدير بها أسوار ممَنَّعة وبروج محصَّنة عليها السهام المسترة ، والمجانيق المنصوبة ، وبها عسكر مستخدم لحفظها [٢] . وليس بالديار المصرية مدينة حاكمها مرسوم بنيابة السلطنة سوى الإسكندرية [٣] ، لا يزال أهلُها على يَقَظَة من أمور ومجالسة العدو .

وبها الديار الجليلة والجوامع والمساجد والرُبَط والخَوَانِق والمَشَاهِد والفَنَادق والرِبَاع والأَسْوَاق الممتدة ، ومعامل البزّ والقماش والطُّرْز الفائق المَثَل ، وإليها تهوى ركائب التجَّار براً وبحراً من كل فجٍّ عميق ومكانٍ سحيق ، وليس فى الدنيا نظير شَرَبِها وطِرَازها المعمول بها والمحمول إلى أقطار

---

(١) راجع عن الإسكندرية ، المسعودى : مروج الذهب ١ : ١١٤ - ١١٥ و ٢ : ٧٣ و ٩٩ - ١٠٩ ، ياقوت : معجم البلدان ١ : ٢٥٦ - ٢٦٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٠٣ - ٤٠٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٤٤ - ١٧٥ ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ١٢ - ٢٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٨٤ - ٨٨ .

« تاريخ الإسكندرية من أقدم العصور » ، مجموعة مقالات نشرتها محافظة الإسكندرية سنة ١٩٦٣ ، زكى على : « الإسكندرية ، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة » ، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ٢ (١٩٤٤) ١١٧ - ١٧٨ و ٤ (١٩٤٨) ١٢١ - ١٤٠ ، جمال الدين الشيَّال : « الإسكندرية - طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر » ، المجلة التاريخية المصرية ٢ (أكتوبر ١٩٤٩) ١٩١ - ٢٧١ وله أيضاً « تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى » (الإسكندرية ١٩٦٧) ، حسن عبد الوهاب : « الإسكندرية فى العصر الإسلامى » ، مجلة الكتاب (يناير ١٩٤٧) - ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى (الإسكندرية ١٩٦٩ و ١٩٨٢) .

Combe, E., «Alexandrie musulmane : Notes de topographie et d'histoire de la ville depuis la conquête arabe jusqu'à nos jours», BSRGE XV (1927), pp. 201-238; XVI (1928), pp. 111-171, 269-292; Labib, S.Y., EI., art. «al-Iskandariyya» . IV, pp. 137-143

(٢) القلقشندى : صبح ٣ : ٤٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ٣ : ٤٠٤ .

الأرض شرقاً وغرباً [١] ، منها من الحفير المنسرج بالذهب والفضة [٤١٩] والمقصَّب بالقصب وطَرْد الوَحْش المنوَّع ، والجر والمنقوش والممزج والمدفون والدَّبيقى والساذج والمفترح والمقاطع والممرس والشَّرْب الخام والمقصور وبدلات المقانع وأنواع المقصَّبات والملون بالذهب والفضة والملاءات والفوط من كلها لا شبيه لرَقْمه ولا نظير لحُسْنه ، يباع كل يوم فيها بألآف مؤلَّفة من الذهب الأحمر ولا ينفد متاعها ولا يقل موجودها .

وبالإسكندرية معاملة الدِّرهم السَّواد حقيقة مقصوراً عليها ، لا يخرج فى سواها ولا يتعدَّى حاضرة أسوارها ، وهو فيها كل درهمين سوداوين بدرهم واحد من نقد الدرهم المصرى . يوجد بها الدراهم السود حقيقة اسم على مسمَّى ، وأما فى بقية الديار المصرية ، فكما قدَّمنا ، يوجد اسماً لا مسمى كل ثلاثة سوداً بدرهم واحد من الدراهم المصرية [٢] .

والإسكندرية هى فُرْضَة الغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم ، وإليها ترد شوانيها وتُجْلب بضائعها ، ومنها تخرج أغراضها . فأما دِمْيَاط فهى وإن كانت رسيتها فى هذا الباب ، فإنه لا نسبة لها إلى الإسكندرية ، وسيأتى ذكرها .

والإسكندرية لها بحر خليج [٣] من النيل تصل فيه المراكب من مصر إليها ومنها إلى مصر ، وفى أوان زيادة النيل يمتلىء هذا الخليج ويمتد إلى صهاريج داخل المدينة معدَّة لاختزان الماء بها لشرب أهلها ، نافذة من بعض الدور إلى بعض ، يمكن النازل إلى صهريج منها الصعود من أى دار اختار ، وتحت تلك الصهاريج الآبار النبع بالماء الملح [٤] ، فهى طبقات ثلاث : طبقة الآبار ، عليها طبقة الصهاريج ، عليها طبقة البناء .

ولا يعتنى أهل الإسكندرية ببناء الطبقات على أعالى أبنيتهم لقوة الأمطار بها وتجويف قرارها .

وعلى الإسكندرية البساتين الأنيقة والغيطان الفساح ، وفيها لجلّة أهلها القصور الناهدة ،

---

(١) عن طراز الإسكندرية ، انظر أعلاه ص ١٩ هـ' .

(٢) انظر أعلاه ص ١٤ .

(٣) عن خليج الإسكندرية راجع المسعودى : مروج ٢ : ٧١ و ٦ : ١٤٩ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٠٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٦٩ - ١٧٢ ، عمر طوسون : تاريخ خليج الإسكندرية القديم وترعة المحمودية (الإسكندرية ١٩٤٢) .

(٤) فى ب : المملوح .

والجواسق الشاهقة محصنة جميعها بإحكام البناء وعلو الجُدُر خشية من طرَّاق الفِرنْج وذُعَّار العرب .

وبها من الفواكه المنتخبة الثمار ، وهى تفوق [٤٢٠] مصر بحسن ثمراتها ورِخَص الفواكه بها ، وليس للإسكندرية من إزدراع القمح والشعير والحبوب إلَّا ما قلَّ ، وغالبُ أقواتها محمولٌ من أرياف مصر إليها .

تنبيه

قد ذكرنا فيما تقدَّم أن الإسكندر هو الذى بنى الإسكندرية ، وذلك صحيح بمعنى أنه جدَّدها وجدَّد بناءها . وأما سببُ بنائها القديم فقد ذكره التيفاشى فى كتاب « سرورِ النَّفْس بمَدَارِكِ الحَوَاسِ الخَمْس » قال : ذكر أحمد بن مطرِّف فى كتاب « الترتيب » أن الذى بنى الإسكندرية أوَّل أمرها جبير المؤتفكى ، وأن الذى هداه إلى بنائها أنه غزا بعض النساء اللواتى ملكن مصر وكان اسمها حوريا بنت ألبرت ، وأنه لما طال بينهما الحرب أنفذت إليه تقول : إنِّى قد رغبت فى أن تتزوجنى فيصير ملكنا واحداً ودارنا واحدة ، وأصير أنا ومملكتى لك وذلك خيرٌ لك من أن تقيم علىَّ الحرب فتفقد مالَكَ ويَفْنَى رجَالُك ، فإن ظَفَرت بى لم يحصُل لك طائلٌ لأن الهزائم تُذْهب الأموال وتمحقها ، وإن أنت خذلت ذَهَبْتَ وذَهَب جميعُ مالك . فأعجبه مقالها وأجابها وعُقِدَ النكاحُ على ما كانوا يعتقدونه ؛ والتمس الدخول بها فقالت : إنه يصحُّ بى وبك أن نجتمع فى غير مدينة نبنيها لهذا الأمر فى أحسن موضعٍ وأجلِّ مكانٍ بحيث لم يكن فيه بناءٌ قطّ غير ما نبنيه . وإنما كان ذلك منها مكراً به لتَنْفَدَ أموالُه وتَبْلُغ منه ما تريد فى لُطْفٍ وموادعة . فأجابها وأنفذ المهندسين إليها ، وخيَّرها المواضع ، فاختارت موْضِعَ الإسكندرية ، وقسَّمت المدينة وصوَّرَها المهندسون ، ثم عرَّفته ذلك فأجاب إلى كل ما طلبت . وسار بجيشه فنزل على ذلك الموضع وشَرَع فى البناء ، فكان كلَّما بنى بناءً خرجت دوابُّ البحر وعبثت به وهدمته ، فأقام زمانا ونفدت الأموال وضاق ذرعاً ، فوفق له أن دُلَّ على بعض السَّحَرة ، فأحضره وشكا إليه ذلك الأمر ، فوضع له طَلْسَمَات وجعلها فى آنية زجاج كالتوابيت فكانت فى الماء حذاء [٤٢١]

الأبنية ، فإذا جاءَت دواب البحر قرأت الطَّلْسَمَات والتوابيت نفرت فثبت البناء ، وبنيت المدينة وتمّت بعد زمان طويل . ثم راسلها فى المسير فسارت بجميع مُلْكها وعساكرها حتى نزلت حذاء عسكره ، ورَاسَلَتْه أنّى قد أحْبَبت أن أحمل عنك مؤنة الإنفاق على العَسْكَرَيْن فى أطْعِمَة تصلح وأشْرِبة ، وقد أعددت لوجوه الأمراء والقواد خِلَعاً وتحفاً حملاً عنك لما لزمك فى بناء المدينة ، فأحب أن تجيبنى إلى ذلك ، فأجابها وأمرت بذلك ، فعُمِل وأنفذت إليه أن أحب أن أرَاكَ وأرَى سائرَ عسكركَ فى الميدان يلعبون ضروب اللعب ويكون منصرفكم بعد ذلك إلىَّ لحضور الطعام والخلع فأجابها . وتقدَّم بركوب الجيش وحمل السلاح واللعب ، فلما فعل واشتدَّ عرق القوم انصرفوا إليها جميعاً فتلقَّاهم أصحابها بالخِلَع المسمومة فلبسها وجوه العسكر ، ولبس الملك جبير خلعته – وكانت أقلّ سُمّاً من غيرها – إبقاءً عليه لتبقى فيه بقية لخطابها ، فما أقاموا إلّا ساعةً بالخِلَع حتى طفئوا وماتوا ، ورأى ذلك بقيَّة العسكر فعلموا موضع الحيلة فتبادروا مستأمنين فنودى فيهم بالأمان وبقى فى الملك بقية من الحياة فأمرت أن يُحْمل إليها ، فلما رأته فى السياق قالت له : إن مَلِكاً أنْفَق مالَه وأفْنَى زمانَه وترَكَ ملكه رجاءَ شهوةٍ ، لا يدرى أينالها أم لا ، لملك سخيف . وكان آخر كلامها بخروج روحه فمات ودخلت هى المدينة وأقامت بها زماناً وعادت إلى مصر .

ثم ملك الإسْكَنْدر فزاد فى بنائها وأطال فى منارتها وجَعَل فيها مرآةً كان يرى منها مراكبَ العدوِّ عن بعدٍ ، فإذا صارت بإزائها وصَدَمها شعاعُها أحرقتها كما تحرق المهاه فى الشمس ما قابلها من الحرق وإن لم تتَّصل بها ، فسميت الإسكندرية من حينئذٍ . وكان اسمها قبل ذلك رَقُودَة ، وبذلك يعرفها القِبْط فى كتبهم القديمة [1] .

وأقامت المرآة على ذلك زماناً ، وشَقَّ ذلك على الروم فاحتال حكيمٌ من حكمائهم بأن وافق متملكهم على أن يبعث أموالاً مع أصحابٍ له فيدفنوها فى مواضعَ متفرِّقة [٤٢٢] من ثغور الإسلام ثم عادوا بعد دفنها فَوَضَع [2] كتاب مَطَالِب ذكر فيه المواضع وختمه بأن تحت المرآة

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٨٧ .

(٢) ث : فصنع .

التى فى منارة الإسكندرية كنزاً لا يُحْصَى ما فيه من الأموال ، وعتق ذلك الكتاب ودفعه إلى إنسان ذكى وأَمَرَ أن يسير به إلى بلدٍ بلدٍ وأن يكون قَصْدُه إلى سلطان [١] كل بلد فيعرفه ما فى ذلك البلد ويخرجه ويأخذ منه جزءً يسيراً ، [٢] ففعل ذلك بأول [من] لقيه وصَحَّ قوله فأخرج المال وأخذ منه جزءً يسيراً [٢] .

واتَّصلت الأخبار إلى سائر الثغور بذلك ، فكان سلطانُ كل بلدٍ يُنْفِذ إليه من يتسلَّمه بعد أن يحضر إخراجه الكنز فى البلد الذى هو فيه ، فلم يزل إلى أن وَصَل إلى الإسكندرية فقال لملكها ما قال فى المرآة ، وقال له : إذا قَلَعْتَها وأَخَذْتَ الكنز أنا أردُّها إلى أفْضَل ما هى عليه الآن ، فأجابه وقُلِعَت المرآة وشَرَع فى هَدْم ما تحتها والنسل الانسان وترك ونزلت تلك الأموال التى أخذها من الكنوز المتقدِّمة ليطمئنوا ولا يجدوا فى طلبه وفاتهم ، وحفروا فلم يجدوا شيئاً ، فعلموا أن ذلك كله كان حيلةً على قَلْع المرآة فلم يقدروا على ردِّها لأن واضعيها كانوا حكماء قد نصبوها بطالعٍ مختار .

واختلف الناسُ فى هذا القول ، فمنهم مَنْ ذكره ومنهم مَنْ ذكر غيره ، قال : غير إنى قرأت فى بعض كتب التواريخ أن أعاجيب الدنيا أربعة : فرسٌ من نُحَاس بأقصى غرب الأندلس لا يتجاوزه أحدٌ إلَّا ابتلعه الرمل ، وشجرةٌ من نُحَاس برومية عليها صورة طائر من نحاس وهو الذى يُسَمَّى الزَّرْزُور ؛ إذا كان أوان نضج الزيتون فلا يبقى طائر من جنسه – وهو الطائر المعروف – إلَّا أتى حاملاً زيتونة فى منقاره وزيتونتين فى رجليه فيلقيه عند الطائر النحاس المذكور فيعصر أهل رومية من ذلك ما يكفى أدمهم وسيرج عامهم ، ذلك لأن رومية ليس بها زيتون . ومنارةٌ من نحاس عليها راكب من نحاس بأرض عَاد ، إذا كان فى الأشْهُر الحُرُم جرى منها الماء ولا يجرى من غيرها . ومرآة بمنارة الإسكندرية ترى بها القطائع الحربية إذا تجهَّزت من القسطنطينية العُظْمى فيرى أهل الإسكندرية أهل [٤٢٣] القسطنطينية وبينهما عرضُ البحر .

قال : وأما مساحة المنارة فهى ثلاث طبقات ، ومساحتها على ما ذكره بعض المُتصِّلين مائتا

---

(١) فى الأصول : السلطان .

(٢ - ٢) ساقطة من ث .

ذراع وثلاث وثلاثون ذراعاً ، فالطبقة الأولى مربعة وهى مائة ذراع وإحدى وعشرون ذراعاً ، والطبقة الثانية مثَمَّنَة وهى إحدى وثمانون ذراعاً ونصف ذراع ، والطبقة الثالثة مستديرة وهى ثلاثون ذراعاً ونصف ذراع .

قلت : أما ما حكاه عن منارةِ الإسكندرية [1] فقد أصْبَحَت كلها أثراً بعد عين ، سقطت أعلامها ومُحِيَت أثارُها ولم يَبْق من المنارة إلَّا دون العشرين ذراعاً ، وأمر السلطان لها بالبناء ولم يصرف إليها وجه الاعتناء ، وليس الناظور الآن إلَّا فى منارة استحدثت على كوم عال داخل السور يُعْرف بكوم معلى لا له أساسٌ ثابت ولا جدار معلى . وأما عمود الصوارى فباقٍ على حاله والطلل هائل ولا طائل ، وهو من الإسكندرية على مسافة نصف يوم من غربيِّها البر الأقفر المتَّصل ببَرْقَة إلى الغرب الأقصى .

والرطل الإسكندرى يسمَّى الجَرْوى [2] وهو رطلان وأوقيتان بالمصرى ، وإردَبُّها ثمان وَيْبَات بإردب وثُلْث بالمصرى . وأسعارُها أقرب إلى الرخاء ولولا الحجير زادت رخاؤها وعظمت أجلابها .

ودِمْيَاط

مدينة [3] عى ضَفَّة البحر عند مصب أحد فرقىّ النيل بناؤها الآن غير مُوثَق يطوف بها جسر النيل إلى مصبِّه . وهى موضع غِرَّة للعدو من قِبَل البحر ، وقد علقت بها حمة الكفر زماناً طويلاً حتى نَصَرَ الله عليهم فى أخريات الدولة الأيوبية .

---

[1] عن منارة الإسكندرية راجع المسعودى : مروج الذهب ٢ : ١٠٤ - ١٠٨ ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ١٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٥٥ - ١٥٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٨٩ - ٩٣ .

[2] راجع عن الرطل الجروى ابن مماتى : قوانين ٣٦١ .

[3] راجع عن دمياط ، ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٦٠٣ - ٦٠٦ ، الحميرى : الروض ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ٢٣ - ٢٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٠٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢١٣ - ٢٢٦ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ١/٢ : ٨ ، جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط سياسياً واقتصادياً (الإسكندرية ١٩٤٩) .

حَدَّثنى من رأى دمياط أنها مدينة لطيفة فيها مدرسة واحدة وأسواق ليست بالكثيرة . ومنها الإفضاء إلى بحيرة تِنِّيس [(١)] المذكورة فى القديم بحسن الأوضاع وجودة القماش والمَتَاع ، وإنما هى الآن جون من البحر الملح أو كالجون .

وبِدمْيَاط وما يليها شَجَر الموز الكثير ومنه مَدَرُ مصر والقاهرة وبلادهما .

فائدة

قال [٤٢٤] التِّيفَاشى فى « سرور النفس » : يقال إن تِنِّيس [(٢)] ودِمْيَاط والفَرَما ثلاثة إخوة ملكوا هذه المدن الثلاث ، وسمَّى كل واحد منهم مدينته باسم نفسه . وكانت تنيس يقال لها تِنِّيس الأخصاص ، ويقال إن المسيح عليه السلام دخلها فأكرمه أهلُها ، فدعا أن يبارك الله لأهلها فيها وأن يأتيها الرزق من كلِّ مكان لمَّا رآها وسط بحيرة ، ولم يدخل دمياط .

وأما « الجِفَار » [(٣)] فهى خمس مدن : الفَرَما [(٤)] والبقَّارة والورَّادة والعَرِيش ورَفَح [(٥)] .

والجِفَار كله رمل وإنما سمى جفاراً لشدة المشى فيه على الناس والدواب لكثرة رمله وبُعد مراحله . والجفار تحفر فيه الإبل وغيرها فتهلك فاتخذ له هذا الاسم ، كما قيل للحبل الذى يُهْجر به البعير هجَّار ، والذى يُحْجر به حجَّار ، والذى تُعقل به عقَّال ، والذى تبطن به بطَّان ، وكذلك خطَّام وزمَّام ونحوه [(٦)] .

---

(١) القلقشندى : صبح ٣ : ٣٠٤ .

(٢) راجع عن تنيس ، ابن بسام التنيسى : « أنيس الجليس فى أخبار تنيس » نشر وتحقيق جمال الدين الشيال فى مجلة المجمع العلمى العراق ١٤ (١٩٦٧) ١ - ٧٣ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٨٩ - ٩١ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ١ : ٤١ - ٤٢ .

(٤) الفَرَما . من المدن المصرية القديمة ، وهى من أقدم الثغور العربية فى مصر . ويبدو أنها لم تكن على ساحل البحر المتوسط ولكن على بعد قليل منه . (البكرى : جغرافية مصر ٦٠ هـ٢ و ٩٢ - ٩٣ ، ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٨٨٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢١١ - ٢١٢ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ١ : ٩١ - ٩٢) .

(٥) رَفَح . راجع عنها ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٧٩٦ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/٤ : ٢٦٣ .

(٦) المقريزى : الخطط ١ : ١٨٩ وهو ينقل عن العمرى .

والبقّارة من البقر ، والورّادة من الورود [١] ، والعَرِيش أُخِذ من العَرْش [٢] ، ويذكر أنه نهاية التخوم من الشام وأن إليه كان ينتهى رعاة إبراهيم الخليل عليه السلام بمواشيه ، وأنه اتخذ به عريشاً كان يجلس فيه ومواشيه تُحْلب بين يديه فسمى بذلك . ورَفَح اسم رجل نُسب إليه المكان .

* * *

قلت : هذه جملة الكلام فى مدن الديار المصرية الشهيرة ، وأما برها فيأخذ بخناقه جبلان تضايقا فى أوله بأعلا الصعيد ثم أخذا فى التفليس إلى الجزيرة [٣] فانفرجا واتسع مدى ما بينهما حتى انقطع بالبحر الرومى إلى آخر الأعمال . فأوسعه مدىً نحو يومين وأضيقه نحو ساعة وغالبه نحو ساعتين وما بين ذلك .

وهذا هو عرض الديار المصرية حقيقة إلّا إن نَظَرت إلى قِفَار موحشة يهاب الجن سلوكها ويخاف الظلام اقتحامها ، على أن مدى العرض الذى ذكرناه عطَّل الجانبين عن الحَرْث والنَسْل والزَرْع والغروس ، خال من الأنيس إلّا سار فى سبيل أو ضالٍ عن طريق ، والعامر الآهل من هذا المدى ثُلُثه والثلث كثير لكنه ذو ربع رابع [٤٢٥] ومتحصّل كثير .

وبمصر من أنواع الثعابين والأفاعى والحيات والعقارب والفأر وسائر الحشرات ما لولا يهلكه النيل الفائض على البلاد فى كل سنة ، وما يفرُّ من النيل فيقف أهل البلاد له على الطرق بأيديهم العمد والعصى لقتل ما يهاجمهم منها ، لما سُكِنَت مصر ولا تأهّلت لها ديار ولا استقر بها لأحد قرار .

وأما زمان ربيعها وما يبقيه من المقطعات بنيلها ، وما يُوَشى حُلَلَها من نَوَّار البرسيم والكتان ،

---

(١) نفسه ١ : ١٨٤ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ١ : ١٢٤ – ١٢٥ .

(٢) العريش راجع عنها ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٦٦٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢١٠ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/٤ : ٢٦٣ .

(٣) م : الجيزة .

ويُحْشر فى أرضها من الطير على اختلاف ذوات الجناح فما يملأ عينيك وسَامةً وحُسْناً ويروقك صورة ومعنىً ، كأن نباتها زُمُرُّدة خضراء ، ومقطَّعاتها فيروزجة زرقاء ، ونَوَّارها لكل قرط منه لؤلؤة بيضاء ، عليها للطيور ظُلَلٌ من الغمام قد نُصبت على فروشها للاستبرق خيام . ولما رأيت منظرها البديع فى زمان الربيع وبين أكنافها المخضرَّة فوَّارات الماء كأنها النجوم فى السماء قلت [1] :

لِمصْرَ فَضْلٌ باهِرٌ لعيشها الرَّغْدِ النَّضرِ
فى سفح روضٍ يلتقى ماءُ الحياة والخَضَرِ

---

[1] المقريزى : الخطط ١ : ٣٧٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٥٢ .

[كُوَرُ الدِّيارِ المصريةِ وأعمالها] [١]

ونحن نقول : إن الديار المصرية وَجْهَان : قِبْلى وبَحَرى ، جملتها خمسة عشر ولاية .

فالوجه القِبْلى

أكبرهما وهو تسعة أعمال [٢] وهى

عمل « قُوص » . وقوص شرقى النيل ، وهو أجَلُّها [٣] . ومنه أُسْوَان وعرب قمُّولة ، وأسوان نهاية حَدِّ المملكة من الجنوب .

وعمل « أخْمِيم » . وهى شرقى النيل أيضاً [٤] .

وعمل « سُيُوط » [٥] .

وعمل « مَنْفَلُوط » [٦] .

---

[١] راجع لمعلومات تفصيلية عن كور الديار المصرية وأعمالها ، أبا عبيد البكرى : جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك ، بحث وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم (الكويت ١٩٨٠) ، عبد العال عبد المنعم الشامى : مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى (الكويت ١٩٨١) ، الوطواط الكتبى : مباهج الفكر ومناهج العبر ، صفحات من جغرافية مصر دراسة وتحقيق عبد العال عبد المنعم الشامى (الكويت ١٩٨١) ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ (دار الكتب المصرية ١٩٥٣ - ١٩٦٣ و ١٩٦٨) ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٢ - ٤٠٦ .

[٢] انظر رسالة أمين محمود عبد الله : تطور الوحدات الإدارية فى مصر العليا منذ العهد العربى ، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ١٩٦٣ .

[٣] انظر أعلاه ص ٨٦ - ٨٧ ، والوطواط : مباهج الفكر ٩٦ - ٩٨ .

[٤] ياقوت : معجم ١ : ١٦٥ ، البكرى : جغرافية مصر ٨١ ، الوطواط : مباهج ٩٥ - ٩٦ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٩ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/٤ : ٨٩ - ٩٠ .

[٥] البكرى : جغرافية مصر ٨١ ، ياقوت : معجم ١ : ٢٧٢ ، الحميرى : الروض ٥٨ ، الوطواط : مباهج ٩٤ - ٩٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٥ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/٤ : ٢٥ - ٢٦ ، وتعليقاته على النجوم ٩ : ٣٩ هـ٣ .

[٦] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٥ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/٤ : ٧٨ ، وتعليقاته على النجوم ٩ : ٣٩ هـ٤ .

وعمل « الأُشْمُونَيْن » ، وبها الطَّحَاوِيَّة [١] .

وعمل « البَهْنَسَا » [٢] ومنه الغرابى ، وهو عبارة عن قرى على عرى المَنْهَىٰ [٣] الماد إلى الفيُّوم .

وعمل « الفَيُّوم » [٤] . وهو منقطع .

وعمل « أَطْفِيح » [٥] . وهو شرقى النيل .

وعمل « الجِيزة » [٦] .

والوجه البحرى

وهو ستة أعمال [٧]

عمل « البُحَيْرة » . وهو مُتَّصل البر بالإسكندرية وبَرْقة [٨] .

---

(١) الوطواط : مباهج ٩٠ - ٩٤ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٨ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/٤ : ٥٩ - ٦٠ وتعليقاته على النجوم ٩ : ٤٠ هـ ٤ ، ٢ .

(٢) الوطواط : مباهج ٨٥ - ٩٠ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٧ . وتعليقات محمد رمزى على النجوم ٩ : ٣٩ هـ ١ .

(٣) عرى المنهى هو بحر يوسف (القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٧١ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٣/٢ : ٢١١) .

(٤) البكرى : جغرافية مصر ٨٠ - ٨١ ، النابلسى : تاريخ الفيوم وبلاده (القاهرة ١٨٩٩) ، ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٩٣٣ ، الوطواط : مباهج ٨١ - ٨٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٤١ - ٢٥٠ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٣/٢ : ٩٦ .

(٥) الوطواط : مباهج ٧٦ - ٧٨ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٣ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٣/٢ : ٢٥ - ٢٦ .

(٦) الواطواط : مباهج ٧٨ - ٨١ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٠٥ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٣/٢ : ١ - ١٢١ .

(٧) قال القلقشندى : « وقد وقع للمقر الشهابى بن فضل الله فى « التعريف » فى بلاده وأعماله من الوَهْم ما لا يليق بمصرى » . (صبح ٣ : ٣٩٨) .

ولمعلومات أدق عن مدن الوجه البحرى وأعماله راجع ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٨ - ٤٠٦ ورسالة عبد العال الشامى : مدن الدلتا فى العصر العربى (رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة) .

(٨) الوطواط : مباهج ١٣٠ - ١٣٣ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٠٢ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/٢ : ٢٢٩ - ٣٤٤ وتعليقاته على النجوم ٩ : ٤٣ هـ ١ .

وعمل « الغَرْبِيَّة » . جزيرة واحدة تشتمل على ما بين البحرين ، [٤٢٦] البحر المار ومَسْكَبه عند دِمْيَاط وهو المسمَّى بالشرق ، والبحر الثانى ومسكبه عند رشيد وهو المسمَّى بالغربى [١] .

و « المُنُوفِيَّة » . وكانت مَنْف المنسوب إليها هذا العمل هى مصر قديماً [٢] ، ومنها إبْيَار المسمَّاة بجزيرة بنى نَصْر [٣] ، وهى جزيرة وتأخذ فى وسط البحر الغربى [٤] .

وعمل « قَلْيُوب » . وقليوب شرق النيل [٥] .

وعمل « الشَّرْقية » . وهو متصل البر ببرِّ الشام والقُلْزُم والحجاز [٦] ، وكذلك أُشْمُوم ويعرف بأشموم طَنَاح [٧] .

ومنها « الدَّقَهْلِيَّة [٨] والمُرْتاحِيَّة » [٩] . وهنا موقع ثغر البُرُلُّس وموقع ثغر رَشِيد [١٠]

---

(١) الوطواط : مباهج ١٢٣ - ١٢٧ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٠٦ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/٢ : ١ - ١٥٣ وتعليقاته على النجوم ٩ : ٤٢ هـ٤ .

(٢) هذا غير صواب فمنف عاصمة مصر كانت فى المنطقة المعروفة اليوم بالبدرشين على الضفة الغربية للنيل بمحافظة الجيزة .

(٣) الوطواط : مباهج ١١٧ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/٢ : ١١٩ - ١٢٠ وهى اليوم من أعمال الغربية لا المنوفية .

(٤) الوطواط : مباهج ١١١ - ١١٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٠٥ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/٢ : ١٥٥ - ٢٢٧ وتعليقاته على النجوم ٩ : ٤٢ هـ٦ .

(٥) الوطواط : مباهج ١٠٥ - ١٠٧ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٩ - ٤٠٠ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ١/٢ : ١١ - ٦١ وتعليقاته على النجوم الزاهرة ٩ : ٤٠ هـ٣ .

(٦) الوطواط : مباهج ١٠٨ - ١١١ ، القلقشندى : صبح ٤٠٠ - ٤٠١ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ١/٢ : ٦٣ - ١٦٤ وتعليقاته على النجوم ٩ : ٣٨ هـ٢ ، ولمحمد فتحى عوض الشاعر : « إقليم الشرقية فى عصرى الأيوبيين والمماليك » ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة .

(٧) هى مدينة تقع اليوم فى الدقهلية قرب دمياط وتعرف أيضاً بأشمون الرمان . وهذا من ضمن أوهام العمرى . (القلقشندى : صبح ٣ : ٤٠١ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/١ : ١٢٩) .

(٨) فى الأصول : الدهقلية وجاءت بهذا الرسم فى أغلب المصادر القديمة .

(٩) كانت مصر فى زمن الفاطميين مقسمة إلى اثنين وعشرين إقليما (كورة) منها ثلاث عشرة إقليماً بالوجه البحرى من بينها « المرتاحية » واستمرت كورة المرتاحية قائمة بذاتها منذ أيام الفاطميين إلى سنة ٧١٥ هـ التى عُمِل فيها الروك الناصرى ، فأصدر الملك الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً يضم بلاد المرتاحية إلى بلاد الدقهلية وجعلها إقليماً واحداً باسم « الدقهلية والمرتاحية » . واستمر الإقليم بهذا الاسم إلى سنة ٩٣٣ هـ التى عمل فيها فك الزمام فى أوائل الحكم العثمانى بمصر فحُذِف اسم المرتاحية من الأقاليم وبقى الإقليم باسم الدقهلية فقط ، وعرف من تلك السنة بولاية الدقهلية وعاصمتها المنصورة . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى ١ : ١٠٩) . =

والمَنْصُورة (١) المبنية زمان حصار دمياط .

وفى هذا الوجه الإسكندرية ودِمْيَاط ، وهما مدينتان تندران على البحر لا عمل لهما .

[الواحات]

وأما الواحات (٢) فمنقطعة وراء الوجه القبلى فى مغاربه ولا تعد فى الولايات ولا فى الأعمال ، ولا يَحْكُم عليها من قِبَل السلطان والٍ (٣) ، وإنما يحكم عليها من قبل مقطعها . وبلاد الواحات بين مصر والإسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة (٤) بعضها داخل بعض . قال البكرى : وهو بلدٌ قائم بنفسه غير مُتَّصل بغيره ولا مفتقر إلى سواه . وفى هذه الأرض شَبِّيَة وزَاجِيَّة وعيون حامِضَة الطعوم من الحَامِض والقابض والملح ، ولكل نوعٍ منها منفعة وخاصية (٥) .

وممَّا يتعلَّق بذَيْل هذه المملكة
ذِكْر بَرْقَة (٦)

قال ابن سعيد : هى سَلْطَنَةٌ طويلة ، وإنْ لم يكن يمكن لها استقلال لأنه قد استولَتْ عليها العَرَب . وكان سريرُها فى القديم مدينة طُبْرُق (٧) . قلت : وليس لها سلطانٌ بل ولا سوى أهل العُمَد سكان . وقربُها إلى إفريقية أكثر من قرّبِها إلى مصر ، ولكن ما دون العقبة لصاحب مصر وأمرها إليه .

= والمرتاحية نسبة إلى طائفة من المغاربة الذين قدموا مع الفتح الفاطمى لمصر ، ولرغبتهم فى الزراعة أنزلهم جوهر ببلاد تلك الكورة فعرفت بهم . (المقريزى : الخطط ٢ : ١٤) .
وراجع ، الوطواط : مباهج ١٢٧ - ١٢٩ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٠١ - ٤٠٢ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/١ : ١٦٥ - ٢٦٨ .

(١٠) الوطواط : مباهج ١٣٧ .

(١) المقريزى : الخطط ١ : ٢٣١ - ٢٣٢ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ٢/١ : ٢١٥ - ٢١٦ ، محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (القاهرة ١٩٦١) ٣٧ - ٥٩ .

(٢) المقريزى : الخطط ١ : ٢٣٤ و ٢٣٥ ، تعليقات محمد رمزى على النجوم ٨ : ١٥٠ - ١٥١ .

(٣) القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٠ .

(٤) نفسه ٣ : ٣٨٩ .

(٥) القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٠ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ١ : ٥٧٣ - ٥٧٥ ، الحميرى : الروض المعطار ٩١ .

(٧) القلقشندى : صبح ٤ : ٣٩١ .

أخبرنى الأمير الفاضل ناصر الدين محمد بن المحسنى : أنَّها بلادٌ كثيرة الماء صحيحة الهواء ، وأرضها مَعَادِن وجرون وَعِرة فى الغالب ، وبها المُرُوج والأشجار الكثيرة . وبها المُدُنُ المبنية الباقية [٤٢٧] البناء إلى الآن ، وهى خالية من السكان ، وبها القُصُور العِليَّة والآثار الدالَّة على ما كانت عليه من الجَلاَلة [١] . وهى اليو بيدِ العرب وهم أصحاب ماشية ودواب سائمة كثيرة من الإبِل والغَنَم [٢] ، ومنهم مَنْ يَزْرَع فى بعض أرضها فتخصب زروعها ، ولكنهم أهل بادية لا عناية لهم بعمارة ولا زَرْع [٣] .

وحدَّثنى غير واحد ممَّن دَخَلَها من العَسْكر المصرى ، ممَّن كان جُرِّد إليها ، أنَّها شبيهة بأطراف الشام وجبال نابُلُس فى منابت أشجارها وكيفية أرضها وما كانت عليه ، وأنَّها لو عَمُرَت بالسكَّان وتأهَّلت بالزرَّاع كانت إقليماً كبيراً يُقَارب نصف الشام [٤] .

وقد كانت بَرْقة مقطعة بمناشير صاحب مصر لابن المُحْسِنى وكان يتوجّه إليها ويأخذ من العربان بهائم أقْطِعَت لأمراء عُرْبان مِصر من سليم ، وهم الآن يستأدون من عرب بَرْقَة العداد .

وحدَّثنى الأمير فائد بن مقدّم السُّلَمِى ، المُقْطَعة له الآن ، أن بَرْقة من أزْكى البلاد أرضاً للدواب وأمراها مرعاً لها . وأما خَيْلُ برقة فهى من أقوى الخيل بناءً ، وإذا قيل الخيل البرقية كفى ، وهى [٥] مدوَّرات ليست بمفرطات العلو ولكنها عِراض مردَّدات صَلْبة الحوافر ، قد جمعت بين سبق العربيات وقوة صدماتها وكمال تخاطيطها ، وصلابة حوافر البراذين وثَبَاتها على الجبال والوُعُور وإدمان الركوب . وأمَّا صورُها فهى بين العِراب والبراذين ، عليها منها سمات الشَّبه ، وهى إلى مَحَاسن العِرَاب أمْيَل . وفحول الخيل البَرْقية أنجب من إناثها ، ولجُنْد مصر بها عناية ، وتُبَاع بالأثمان الغالية ولكنها لا تبلغ مبلغ خيل البَحْرين والحِجَاز والشام .

وطُولُها بالمسافة مقدار شهرين . وكانت قاعِدَة بَرْقَة مدينة أنطابُلُس . ومن مدنها طبرق وقد

---

(١) نفسه ٤ : ٣٩١ .
(٢) القلقشندى : صحيح ٣ : ٣٩١ .
(٣) نفسه ٣ : ٣٩٢ .
(٤) نفسه ٣ : ٣٩١ .
(٥) ث : وهم .

تقدَّم ذكرها . وطُلْمَيْثَة [(١)] ولَبَدَة [(٢)] وهى ذات رخام كثيرة عُمُدٍ وألواح ، وبها إلى الآن الرخام قائماً ونائماً . ومن مُدُنها المشهورة سُرْت .

وحدَّثنى قاضى الجماعة أبو إسحاق إبراهيم بن أبى سالم عن لَبَدَة أنها مملوّة بالرخام الأبيض الفائق حتى شوارعها ومَمْشَى الناس فى أسواقها ، وأنها [٤٢٨] لا يعُوزها من العمارة إلَّا السكان .

وحدَّثنى الشيخ شرف الدين عيسى الزَّواوى قال : مَرَرْتُ ببلاد بَرْقة فرأيتها كلها خراباً يباباً مقفرة ما فيها إلَّا بادية العرب ، وبها القصور المبنية ليس بها إلَّا غلال مخزونة لهم . وقال لى : إن فى جبال بَرْقة أشجاراً مثمرة من الزيتون والفواكه الكثيرة ، ولكن ليس بها مدينة معمورة تُذْكر لها أخبار . وسكَّان بَرْقَة كلهم أهل بادية لا يتبايعون إلَّا بالأمتعة حتى إن منهم من يكون معه دراهم فيعرضها للبيع فيقول : مَنْ يشترى منى هذه الدراهم ، لأنها ليست عندهم نقداً ولا معاملة .

---

(١) القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩١ .

(٢) العمرى : مسالك الأبصار ١ : ٢٤٣ .

ذكر المملكة الثانية
وهى مملكة الشام

وقَاعِدتُها مدينةُ دِمَشْق . وكانت الشامُ يقال لها « أرضُ كَنْعَان » ، ثم جاء بنو إسرائيل فقتلوهم بها ونفوهم عنها ، وبقيت الشام لبنى إسرائيل إلى أن غَلَبَت عليهم الرُّوم وانتزعوها منهم .

قال التِّيفَاشِى فى كتاب « سرور النفس » [(١)] : قال الشريف الإدريسى فى حدود الشام إنها من المَشْرِق الجزيرة بينه وبين العِرَاق ، وسمِّيت الجزيرة لأنها بين نهر دِجْلَة والفُرَات ، وهى أدْنى الأرض التى ذكرها الله عزَّ وجَلَّ فى سورة الروم [(٢)] .

ومن بلاد الجزيرة نِينَوَى – مدينة يونس عليه السلام – وقاعدتُها اليوم المَوْصِل . ومنها الرِّقَّة ، ونَصِيبِين ، ودِيَار رَبِيعَة وبنى تَغْلِب . والجزيرة هى التخوم الفاصلة بين الشام والعراق ، وحدُّها النَّهْرَان : دِجْلَة والفُرَات . وحدود الشام من الجنوب وادى القُرَى ، ومن الغرب عَسْقَلان ، والحاجز الذى بين البحرين حيث مَدَائن لُوط ، عليه السلام ، وطوله أكثر من شهر ونحوه ، بعضه فى الإقليم الرابع وبعضه فى الثالث ، والتوجه فى قِبْلته إلى الميزاب إلى الركن الشامى من جهة الشرق ، وأكثر أهله يمن وفيهم معدنه .

ثم قال : روى الحافظ أبو القاسم على بن الحسن بن عَسَاكِر فى تاريخ الشام بسَنَدِه إلى الشَّعْبِى قال : لمَّا هَبَط آدم من الجنَّة وانتشر ولده أرَّخ بنوه من هبوط آدم ، وكان [٤٢٩] ذلك التاريخ حتى بَعَث الله نُوحاً فأرَّخوا بمَبْعَث نوح حتَّى كان الغَرَق فَهَلَك مَنْ كان على وَجْه الأرض . فلَّما هَبَط نُوح وذرِّيته وكل منْ كان فى السفينة إلى الأرض ، قسَّم الأرضَ بين ولده

---

(١) لا أدرى سبباً واضحاً جعل العُمَرِى ينقل أخبار الشام ودمشق عن التِّيفَاشى عن ابن عساكر ، وعدم رجوعه مباشرة إلى تاريخ دمشق لابن عساكر ! . وانظر أعلاه ص ٦٣ هـ° .

(٢) يقصد الآية : ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِى أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبُون ﴾ [الآية ٢ و ٣ سورة الروم] .

أثلاثاً . فجعل لسَام وسط الأرض ، فيها بيت المَقْدِس والنِّيل والفُرَات والدِّجْلَة وسِيحَان وجِيحَان وذلك ما بين قيسيون إلى نهر النيل ، وما بين مَنْحَر الرِّيح الجنوب إلى منحر الشمال . وجعل لحَام قسمة غربى النيل ممَّا وراءه إلى منحر ريح الدبور . وجَعَل قسمة يافث فى قيسيون فما وراءه إلى منحر ريح الصَّبَا . ثم تفرَّق بنو نُوح من بَابِل إلى سائر جهات الأرض ، فلحقت كل طائفة منهم بجهة .

وفى رواية الحافظ من طريقٍ آخر عن هشام بن محمد عن أبيه قال : كان الذين عقد لهم الألوية – يعنى ولد نوح عليه السلام – فنزل بنو سَام المَجْدَل سُرَّة الأرض وهو ما بين ساندما إلى البحر ، وما بين اليمن إلى الشام ، وجَعَل الله النُبُوَّة والكتاب والجمال والأُدْمة والبياض فيهم . ونَزَل بنو حَام مجرى الجنوب والدبور ، ويقال لتلك الناحية الداروم ، وجَعَل اللهُ فيهم أدْمَة وبياضاً قليلاً وأغْمَر بلادَهُم ورَفَع عنهم الطاعون ، وجَعَل فى أرضهم الأثل والأراك والعسر والغار والنخل ، وجَرَت الشمس والقمر فى سمائهم . و[نزل] بنو يافث القصور مجرى الشمال والصَّبَا وفيهم الحُمْرَة والسنا وأخلا الله أرضهم فاستدبروها وأخلا سماهم فليس يجرى فوقهم شيء من النجوم السبعة الجارية لأنهم صدروا تحت بنات نَعْش والجَدْى والفَرْقَدَيْن وابتلوا بالطاعون . ثم لحقت عَاد بالشِّحْر فعليه هلكوا بوادٍ يقال له مغيث . ولحقت عتيل بموضع يَثْرب . ولحقت العَمَاليق بصَنْعَاء قبل أن تسمَّى صنعاء ، ثم انحدر بعضهم إلى يَثْرب فأخرجوا منها عتيلاً ونزلوا موضع الجُحْفَة وأقْبَل سيل فاجْتَحَفهم فَذَهب بهم فسُمِّيت الجحفة . ولحقت ثَمُود بالحجر وما يليه فهَلَكُوا . ثم لحقت طُسَم وجَدِيس باليَمَامة ، وإنما سمِّيت اليمامة بامراءة منهم فهلكوا . [٤٣٠] ولحقت أُمَيْم بأرض أَبَار فهلكوا بها ، وهى بين اليمامة والشِّحْر ولا يصل اليوم إليها أحدٌ غلبت عليها الجِنّ وسميت أَبَار بأَبَار بن أُمَيْم . ولحقت بنو يقطن بن عابر باليمن فسميت اليمن حين تيامنوا إليها . ولحق قومٌ من بنى كَنْعَان بن حَام بالشام فسمِّيت الشام حين تَشَائموا إليها .

وكانت الشام تسمَّى أرض كَنْعَان ، ثم جاء بنو إسرائيل فقتلوهم بها ونفوهم عنها . وكانت الشام لبنى إسرائيل ووَثَبَت الرُّوم على بن إسرائيل فقتلوهم وأجْلوهم إلى العراق إلَّا قليلاً منهم . وجَاءَت العرب فغلبوا على الشام .

قال أبو بكر محمد بن القاسم الأنْبَارى : الشام فيه وجهان يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشومى ، وهى اليسرى ، ويجوز أن يكون فعلى من الشوم . ويقال : أنْجَد أتى نجداً ، وأعْرَق دخل العراق ، وأعْمَن أتى عُمَان ، وأشأم أتى الشَّام ، ومَصَّر وكَوَّف . وفى التنزيل العزيز ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ [الآية ٩ سورة الواقعة] ورجُلٌ مشأم من أهل الشام . وسمِّيت اليمن لأنها عن يمين الكعبة ، وسمِّيت الشام لأنها عن شمال الكعبة . قيل كان اسم الشام أوّل الأمر سدرية .

ذِكْرُ دِمَشْقَ وبِنَائِها [١]

رُوِىَ عن كَعْب الأحْبَار قال : أوَّل حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حرَّان ودمشق ثم بَابِل [٢] .

وفى رواية أخرى أن نوحاً لمَّا نَزَل من الجبل أشْرَفَ فرأى تلّ حرَّان ما بين نَهْرى جُلاَّب ودَيْصَان ، فأتاه فبنى حائط حرَّان ، ثم سار فبنى دمشق ثم رجع إلى بَابِل فبناها [٣] .

وفى رواية أخرى أن جَيْرون بن سَعْد بن عَاد بن عوص نزل دمشق وبنى مدينتها وسمَّاها جَيْرُون ، وهى إِرَم ذَات العِمَاد ، وليس أعمدة الحجارة فى موضع أكثر منها بِدمَشْق [٤] .

---

(١) عن تاريخ مدينة دمشق بالإضافة إلى « تاريخ مدينة دمشق » لابن عَسَاكِر و « فضائل الشام ودمشق » للرَبَعى ، راجع :
Sauvaget, J., «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas», REI 8 (1934), pp. 421-480 نقله إلى العربية فؤاد أفرام البستانى بعنوان « دمشق الشام – لمحة تاريخية » ، بيروت ١٩٣٦ ، صلاح الدين المنجد : مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحَّالين المسلمين (بيروت ، دار الكتاب الجديد ١٩٦٧) ، نقولا زيادة : دمشق فى عصر المماليك (بيروت ، مكتبة لبنان ١٩٦٦) ، Elisséeff, N., EI., art. «Dimashk», II, pp. 286-299 .

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ١ : ١٠ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة دمشق) ٢٥ .

(٣) ابن عساكر : المصدر السابق ١ : ١١ ، ابن شداد : المصدر السابق ٢٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ٩٢ .

(٤) ابن عساكر : المصدر السابق ١ : ١١ ، ابن شداد : المصدر السابق ٢٥ ، الهمدانى : صفة جزيرة العرب ١٤٦ ، القلقشندى : صبح ٤ : ٩٢ .

قال الحافظ : وَجَدْتُ فى بعض الكتب أن جَيْرُون وبريدا كانا أخوين وهما ابنا سعد بن لُقْمَان بن عاد ، وهما اللذان يُعْرف باب جَيْرون وباب البريد بدمشق بهما [١] .

وفى رواية عن وَهْب بن مُنَبِّه قال : دِمَشْق بناها العاذر غلام إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، وكان حَبَشياً [٤٣١] وهَبَهُ له نَمْرُود بن كنْعَان ، حين خرج إبراهيم من النار . وكان اسم الغلام دِمَشق ، وكان متصرِّفاً فى جميع مال إبراهيم [٢] .

وروى الحافظ أنه وَجَد فى كتاب أبى عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى المسمَّى « بفَضَائل الفُرْس » أن بيوراسب الملك الكيروانى [٣] بنى مدينة بَابِل ومدينة صُور ومدينة دمشق [٤] .

قال الحافظ : وبَلَغنى من وجهٍ آخر أنه لما رَجَع ذو القَرْنَيْن من المَشْرِق وعمل السدَّ بين أهل خُرَاسَان وبين يأْجُوج ومأْجُوج وسار يريد المغرب ، فلما بلغ الشام وصَعَد على عقبة دُمَّر أبْصَر هذا الموضع الذى فيه اليوم مدينة دمشق ، وكان هذا الوادى الذى فيه نهر دمشق غَيْضَة أرز ، قيل إن الأرزة التى وجدت فى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة من بقايا تلك الغيضة . فلما نَظَر ذو القرنين إلى تلك الغيضة ، وكان هذا الماء الذى هو فى هذه الأنهار اليوم مفترق ، مجتمعاً فى وادٍ واحد . فأخذ ذو القرنين يفكر كيف يبنى فيه مدينة ! وكان أكثر [ما] فكَّر فيه وتعجَّب منه أنه نَظَر إلى جبلٍ يدور بذلك الموضع وبالغيضة كلها ، وكان له غلامٌ يقال له دِمَشْقش على جميع ملكه . ولمَّا نَزَل ذو القَرْنَيْن من عقبة دُمَّر سار حتى نزل فى موضع القرية المعروفة بيَلْدَا ، من دمشق على ثلاثة أميال ، فأمر ذو القرنين أن يُحْفَر له فى ذلك الموضع حفرة ففعلوا ذلك ، ثم أمر بردِّ التراب الذى أخْرِج منها . فلمَّا رُدَّ التراب لم تمتلىء الحفرة ، فقال لغلامه دمشقش : ارحل فإنِّى كنت نويت أن أؤسِّس فى هذا الموضع مدينة ، فأمَّا إذْ بان لى منه هذا ، فما يصْلُح

---

[١] ابن عساكر : المصدر السابق ١ : ١١ ، ابن شداد : المصدر السابق ٢٦ ، القلقشندى : صبح ٤ : ٩٢ .

[٢] ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ١ : ١٢ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ١ : ٢٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ٩٢ .

[٣] فى الأصول : سواسب ... الكيونانى والتصويب من المصادر .

[٤] ابن عساكر : المصدر السابق ١ : ١٢ ، ابن شداد : المصدر السابق ١ : ٢٧ ، القلقشندى : المصدر السابق ٤ : ٩٢ .

أن يكون هٰهنا مدينة . قال : ولم ؟ قال ذو القرنين : إن بُنى هٰهنا مدينة فإنها لا يكون زرعها يكفى أهلها . قال : ثم رحل ذو القرنين حتى وَصَل إلى البَثَنِيَّة [١] وحَوْران وأشرف على تلك السعة [٢] ونظر إلى تلك التربة [٣] الحمراء . فأمر أن يُنَاول من ذلك التراب فلما صار فى يده أعجبه لأنه نَظَر إلى تربة كأنها الزَّعْفَران ، فنزل هناك وأمر أن يحفر حفرة فحُفِرت وأمر بَرَدّ التراب إلى المكان الذى أخرج منه فملأه وفضل منه تراب كثير . فقال ذو القرنين لغلامه دمشقش : ارجع إلى ذلك الموضع الذى فيه الأرز فاقْطَع ذلك الشجر وابن على حافَة الوادى [٤٣٢] مدينة وسمِّها على اسمك فهناك يَصْلُح أن يكون مدينة ، وهذا الموضعُ منه قوَّتها وعليه ميرتها . قال الحافظ : وعلامَةُ صحة ذلك أن أهل غَوْطة دمشق لا تكفيهم غلاَّتهم حتى يتكفُّوا من البَثَنِيَّة وحَوْران . فرجع دمشقش وبنى المدينة وعمل لها حِصْناً ، وهى المدينة الداخلة وعمل لها أربعة أبواب [٤] : جَيْرُون مع باب البَرِيد مع باب الحَدِيد فى سوق الأُسَاكِفَة ، مع باب الفَرَادِيس الداخلة . هذه كانت المدينة ، إذا غُلِّقت هذه الأبواب فقد أُغْلِقَت المدينة . وخارج هذه الأبواب كان مرعى ، فبناها دمشقش وسكنها ومات فيها . وكان قد بنى المَوْضِعَ ، الذى هو الآن مسجدها الجامع ، كنيسة يَعْبُد الله فيها إلى أن مات [٥] .

ورَوَى أن باقى دمشق بنَاها على الكواكب السبعة وأن المُشْتَرى كان طالعُ بنائها ، وجَعَل لها سبعة أبواب ، وصوَّر على كل باب أحد الكواكب السبعة ، وصوّر على باب كَيْسَان صورة زُحَل ، فخرجت الصور التى على الأبواب كلها إلَّا باب كَيْسَان فإن صورة زُحَل باقية عليه إلى الآن [٦] .

وروى الحافظ عن أبى القاسم تَمَّام بن محمد قال : قرأت فى كتابٍ عتيق : باب كَيْسَان

---

[١] البثنية ويقال لها البثنة . قرية بين دمشق وأذرعات . (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٤٩٣ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ٣ : ٤١ و ٦٦) .

[٢] فى الأعلاق الخطيرة ١ : ٢٩ : البقعة .

[٣] فى الأعلاق الخطيرة : البرية .

[٤] فى تاريخ دمشق لابن عساكر : وعمل لها ثلاثة أبواب .

[٥] ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ١ : ١٤ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ١ : ٢٨ - ٢٩ .

[٦] ابن عساكر : المصدر السابق ١ : ١٥ ، ابن شداد : المصدر السابق ١ : ٣٠ .

لزُحَل ، باب شَرْقى للشمس ، باب تُوما للزُهَرَة ، باب الصغير للمُشْتَرى ، باب الجابية للمرِّيخ ، باب الفَرَاديس لعُطَارد ، باب الفَرَاديس الآخر المسدود للقمر [١] .

وروى الحافظ عن أبى مِسْهَر قال : إن ملك دمشق بنى حِصْنَ دمشق الذى حولَ المسجد داخل المدينة على مساحة مسجد بيت المَقْدِس ، وحَمَل أبواب مسجد بيت المقدس فوضعها على أبوابه . فهذه الأبواب التى على الحصن هى أبواب مسجد بيت المقدس [٢] .

أسْمَاء بَعْضِ جِهَاتِهَا

خرَّج الحافظ مرفوعاً أن إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما السلام ، ولد اثنا عشر ولداً فسمَّى منهم دوما وبه سمِّيت دَوْمَة الجَنْدَل [٣] .

وفى رواية أخرى أنه كان للُوط أربعة بنين وابنتان : مآب وعَمَّان وجلان [٤] ومَلْكَان ، والبنات زُغَر [٤٣٣] والريَّة . فعمَّان مدينة البَلْقَاء سميت بعمَّان ، ومآب من سائر البلقاء سميت بمآب ، وعين زُغَر سمِّيت بزُغر بنت لوط ، والريّة سميت بالريّة [٥] .

قال الشَّرْقىُّ بن القُطَامى : وسمِّيت صَيْدا بصيدوق بن صدوقا بن كنعان بن حام بن نوح . وسمِّيت أرِيحَا بأرِيحَا بن مالك بن أرفخذ بن سام بن نوح . وسمِّيت البَلْقاء بأبْلَق بن عمَّان بن لُوط لأنه ملكها وسكنها . قال : وقيل إن الكُسْوَة سميت بذلك لأن غَسَّان قتلت بها رُسُل ملك الروم ، قدموا عليهم فى طلب الجزية فقتلوهم وأخذوا كسوتهم [٦] . هذا آخر ما نَقَلَهُ التِّيفَاشى .

---

[١] ابن عساكر : المصدر السابق ١ : ١٥ ، ابن شداد : المصدر السابق ١ : ٣٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ٩٢ .

[٢] ابن عساكر ، المصدر السابق ١ : ١٦ .

[٣] ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ١ : ١٩ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ١ : ١٧ .

[٤] عند ابن عساكر : خلان ، وعند ابن شداد : جولان .

[٥] ابن عساكر : المصدر السابق ١ : ١٩ ، ابن شداد : المصدر السابق ١ : ١٨ .

[٦] ابن عساكر : المصدر السابق ١ : ١٩ (وهو فيه المستوفى بن قطامى) ، ابن شداد : المصدر السابق ١ : ١٨ ، ياقوت : معجم البلدان ١ : ٧٢٨ .

* * *

قلت : وبدمشق مهبط عيسى ، عليه السلام ، وهى أن الخُوَارزمى قال : طُفْت جوانب الأرض الأربعة فكان فضل غوطة دمشق عليها كفضلها على غيرها ، كأنها الجنَّة صوِّرت على وجه الأرض .

[١] وأما وصفها فكثير جداً يعجبني منه قول ابن عُنَيْن [٢] :

دمشقُ فبى شوقٌ إليها مبرّح — وإن لجّ واشٍ أو ألحّ عذولُ
بلادٌ بها الحصباءُ درٌ ، وتربُها — عبيرٌ ، وأنفاسُ الشمال شمولُ
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلَقٌ — وصحّ نسيمُ الروض وهو عليل[٣]

وقول عَرْقَلة [٣] :

ما بين « سَطْرا » و « مَقْرى » جنةٌ عرضَت — أنهارُها من خلال الآس والبان
يظل منثورهُا فى الأرض منتثراً — كأنما صيغ من درّ ومرجان

وكذلك قول ابن عُنين وقد نفُى منها [٤] :

فسقى « دمشقَ » ووادِيَهْا والحمى — متواصلُ الإرعاد منفصمُ العُرى
حتى ترى وجهَ الرياضِ بعارضٍ — أحوى ، ووجْهَ [٥] الدوح أزهر نيّرا

---

[١] من هنا وحتى صفحة ١١٧ نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ، أولاً فى مجلة معهد المخطوطات العربية ٣ (١٩٥٧) ١١٨ – ١٢٦ ، ثم فى كتاب « مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين » ، بيروت – دار الكتاب الجديد ١٩٦٧ ، ٢١٩ – ٢٣١ .

[٢] ديوان ابن عنين ، تحقيق خليل مردم ، دمشق ١٩٤٦ ، ٦٨ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ١ : ٣٥٦ – ٣٥٧ .

[٣] هو عرقلة الكلبى ، أبو الندى حسَّان بن نمير الأعْوَر المتوفى سنة ٥٦٧ هـ . (العماد الكاتب : خريدة القصر (قسم الشام) ١ : ١٧٨ – ٢٢٩ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٢٨٦ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ١١ : ٣٦٤ – ٣٦٨ ، ابن شاكر : فوات الوفيات ١ : ٣١٣ – ٣١٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦ : ٦٤) .

[٤] الديوان ٣ ، ابن شداد : الأعلاق ١ : ٣٥٧ – ٣٥٨ .

[٥] الديوان : وفود .

وأعـاد أيامـاً قَطَعْــنَ [١] حميــدةً ... ما بين حرّة « عالقين » و « عكبرا »[٢]

[٤٣٤] تلك المنازل لا أعقّه « عالج » ... ورمال « كاظمة » ولا « وادي القرى »

أرضٌ إذا مرَّت بها ريحُ الصَّبا ... حملتْ على الأغصان مسكاً أذفرا

فارقتُهــا لا عن رضاً وهجــرتها ... لا عن قِلى ورحلتُ لا متخيّرا

وقول البحترى [٣] :

العيش فى ظلّ [٤] « داريّا » إذا بردا ... والراحُ نمزجها بالراح من « بردا »

إذا أردتَ ملأتَ العين من بلدٍ ... مُسْتَحْسَنٍ وزمانٍ يشبه البلدا

أما « دمشقُ » فقد أبدتْ محاسنَها ... وقد وفى لك مُطْرِيها بما وعدا

يمشى السحابُ على أجبالها فِرَقاً ... ويصبحُ النبتُ فى صحرائها بددا

فلست تُبصر إلا وادياً خضراً ... أو يانِعاً خِضِلاً [٥] أو طائراً غردا

كأنما القيظ وَلّى بعد جيئتهِ ... أو الربيعُ أتى من بعد ما بَعُدا

ومدامتها هى الموصوفة فى الآفاق ، المعروفة فى مغارسها بكرم الأعراق ، تنشر كاساتها ألوية حُمْرا ، تتوقد فى صفحات الخدود جَمْرا ، فمن حمراء كنار تتلهَّب ، ومن صفراء كالزجاج المذْهب ، ومن بيضاء كأنها نقطة غدير ، أو فضة طافت بها قوارير ، أو ورديّة تتضاحك فى الشفاه اللُّعْس ثغورها المفتَّرة ، ويخالطها الصفار كخدٍ أبيض تشرّبَ بحمرة ، تضىء فى دجى الليل مصباحاً ، وتهدى إلى الجلساء بريحها تفاحاً ، وببلاد « الشوف » [٦] منها ما يرقُّ عن الزجاج ، ويخفُّ عن مخالطة الامتزاج ، فيعلق فوق الماء على الأقداح ، وتتعلى حمرتُه عليه كالشفق

---

[١] الديوان : مضين .

[٢] الديوان : عشترا .

[٣] ديوان البحترى ، تحقيق حسن كامل الصيرفى ، دار المعارف ١٩٦٣ ، ٧٠٩ - ٧١٠ ، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ٢ : ١٧١ ، ابن شداد : الأعلاق ١ : ٣٣٥ .

[٤] الديوان وتاريخ دمشق والأعلاق : ليل .

[٥] الديوان وتاريخ دمشق والأعلاق : .... إلاَّ واكفاً خِضِلاً ... أو يانعاً خَضِرا .

[٦] بلدة فى جبل لبنان .

على المصباح ، يطيرُ عليها الشعاع ، ويطيب إلى قهقهة قيانها السماع . و « صيدنايا » معدن ذهبها ، وأفق كوكبها ، وإليها أشار ابن عُنين بقوله [١] :

ومدامةٍ من « صيدنايا » نَشْرُها من عنبر وقميصُها من صَنْدَل
مسكيَّة النفحات يشرفُ أصلُها عن « بابلٍ » ويجلُّ عن « قُطربُّل »

وقد خالف القاضى الفاضل الناس حيث قال يذم دمشق : « ودخلت دمشق وأنا [٤٣٥] ملتاثٌ لتغيُّر مائها وهوائها وأبنيتها وأبنائها وأوديتها ، ومَنْ لى بمصر فإنى أبيع بردى بشربة من مائها ، فالطَّلَل هايل ولا طائل ، وما سمعناه من تلك الفضائل متضائل » .

وقال وقد وقع عليها الثلج : وأما دمشق فآدُرّها اليوم للثلج قوالب ، وقد أخذ فى أن يذوب ، فالشوارع تحتاج إلى مراكب .

وبدمشق من كل ما فى مصر من الوظائف . وليس هذا فى بقية بلاد الشام . مثل قضاء القضاة الأربعة من المذاهب الأربعة ، وقاضى العسكر [٢] ، وخزانة تخرج منها الانفاقات والخِلَع [٣] ، وخزائن سلاح وزَرْدَخانات ، وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختصرة ، حتى لو حضر السلطان إليها جريدة وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته [٤] .

وكل أمير أمِّر فيها أو فى غيرها من الشام أو رب وظيفة وُلِّىَ وظيفةً [٥] من عادة متوليها أن يخلع عليه ، أو خَدَم فى مهم من المهمَّات أو أمْرٍ من الأمور يستوجب عليه خِلْعَة أو إنعاماً ولم يُخْلع عليه من مصر أو لم يُنْعم عليه من مصر ، كان من دمشق خلعته وإنعامه [٦] .

ومنها تخرج أعلام الأمراء [٧] وطلائعهم وشعار الطَّبْلَخانات . وفى خزائن السلاح بها يعمل

---

(١) الديوان ٨٤ .

(٢) راجع عن هاتين الوظيفتين ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٩٢ .

(٣) فى صبح : الانعامات والخلع .

(٤) القلقشندى : صبح ٤ : ١٨٣ .

(٥) فى الأصول : أو أولى رب وظيفة . وهو تحريف والمثبت من صبح .

(٦) القلقشندى : صبح ٤ : ١٨٣ . وهذه الفقرة ساقطة من نشرة الدكتور المنجد .

(٧) فى الأصول : أعلام الإمرة .

المجانيق والسلاح والزردخانات ، ويحمل إلى جميع الشام وتعمر به البلاد والقلاع ، ومن قلعتها يجرد الرجال وأرباب الصنايع إلى جميع قلاع الشام ، ويندب فى التجاريد والمهمات (١) .

وهى مدينة جليلة . وقلعتُها مرجلة على الأرض ، يحيط بها وبالمدينة أسوار عليّةٌ ، يحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة ، وإذا دعت الحاجة أطلق على جميع الخندق المحيط بالمدينة فيعمها (٢) .

وهى فى وطاءَة مستوية من الأرض ، بارزة عن الوادى المنحطّ عن منتهى ذيل الجبل ، مكشوفةُ الجوانب لمر الهواء ، إلاَّ من الشمال فإنه محجوب بجبل قاسيُون ، وبهذا تعاب وتنسب إلى الوَخامة ، ولولا جبلها الغربىّ الملبَّسُ بالثلوج صيفاً وشتاءً لكان أمرها فى هذا أشدّ وحال سكانه أشقّ ، ولكنه دِرْياقُ ذلك السم ، ودواءُ ذلك الداء (٣) .

وهى مدينة حسنة الترتيب ، جليلة الأبنية [٤٣٦] بالحجر والخشب . والآجرُّ مُضبَّب بين مداميك البناء بالخشب الملبن . وأخشابها من خير أخشاب الأرض يسمى الحُور (٤) ، يُنصب فى بساتينها ويُربّى ويقُطع فى انتهائه يعطى الليان ، فإذا انكسر عود منها يبقى فى مكانه متماسكاً عدة سنين وأكثر ، ولو أنه متعلق بقدر شعرة واحدة .

ولهذه المدينة حواضرُ فسيحةُ من جهاتها الأربع ، والماء حاكم عليها من جميع نواحيها بإتقان محكم ، على ما نذكره فى صفة نهرها .

وهذه المدينة مقسَّمة على جوانب الجامع بها ، لا على أنه واسطتها من كل الجهات . فإنَّ ما بينه وبين نهاية المدينة من القبلة وما بينه وبين نهاية المدينة من الشرق أوسع مدى مما بينه إلى نهاية المدينة من الجانبين الآخرين الشمالى والغربى . وأشرف هذه المدينة ما قرب إلى جامعها .

---

(١) القلقشندى : صبح ٤ : ١٨٣ .
(٢) نفسه ٤ : ٩٣ .
(٣) القلقشندى : صبح ٤ : ٩٣ .
(٤) نفسه ٤ : ٩٣ .

وبها الديار الجليلة ، المُذْهَبَة السقوف ، المفروشة بالرخام ، ومنها ما هو مؤزَّر الحيطان بالرخام المنوع المفصَّل بالصَّدف والذهب ، والبِرَك الجارية . وقد يجرى الماء فى الدار فى أماكن .

وبها الطِّباقُ الرفيعة ، والأَفْنِيَة الوسيعة ، والأسواق المليحة الترتيب ، والقياسر الحصينة .

وبها الصُنّاع المهرة فى كلِّ فن من البنَّائين ، وصُنّاع السلاح ، والمصوغ ، والزَّركش ، وغير ذلك . وتُعْمَلُ بها لطائف الأعمال من كل نوع ، وصنَّاعها تفخر على بقية صنَّاع هذه المملكة إلا فيما قل ، مما بمصر والشام والعراق والروم ، فتستمد من لطائفها خصوصاً فى القسىِّ ، والنحاس المطعَّم ، والزجاج المذهب ، وجلود الخراف المدبوغة بالقرظ المضروب بها المثل .

هى إحدى جنات الدنيا الأربع . قال الخُوَارزمى : رأيت جنات الدنيا الأربع ، وكان فضل غوطة دمشق عليها كفضلها على سواها ، كأنها الجنة على وجه الأرض [1] حسبما ذكرناه .

وبها البساتين الأنيقة تَتَسَلْسَل جداولها ، وتغنى دوحاتُها ، وتتمايل أغصانها ، وتغرّد أطيارها ، وفى بساتين النزهة بها العمائر الضخمة ، والجواسق العليَّة ، والبرك العميقة ، والبحيرات [٤٣٧] الممتدة ، عليها العُرُش الممددة المظلِّلة ، تتقابل بها الأَوَاوين والمجالس ، وتحفُّ بها الغِراس والنصوب المطرزة بالسرو الملتف البرود ، والحور الممشوق القدود ، والرياحين المتأرجة الطيب ، والفواكه الجنيَّة ، والثمرات الشهية ، والبدائع التى تغنيها شهرتها عن الوصف [2] .

وبها فى سفح قاسيون الصالحية [3] ، وهى مدينة ممتدة فى سفح الجبل بإزاء المدينة فى طول مدى . ذات بيوت ، وجنائن ، ومدارس ، وربط ، وترب جليلة ، وعمائر ضخمة ، ومارستان ، وأسواق حافلة بالبزّ وغيره . وبأعاليها من ذيل الجبل المقابر العامة . وجميع الصالحية مشرف على

---

(١) انظر أعلاه ص ، وقارن الغزولى : مطالع البدور ١ : ١١٣ .

(٢) القلقشندى : صبح ٤ : ٩٥ .

(٣) راجع عنها ، ابن طولون : القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية ، تحقيق محمد أحمد دهمان فى قسمين ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٨٠ - ١٩٨١ .

دمشق وغوطتها وكل بساتينها وشرفَيْها وميادينها ومجرى واديها . وبجانبها الغربى كان دير مرّان المشهور . ومكانه الآن من المدرسة المعظمية (١) إلى قريب عقبة دُمَّر . ومنه هناك بقايا آثار .

وأمّا حواضرُ دمشق فهى كما قدَّمنا القول جليلة من جميع جهاتها ، وأجلُّها ما هو فى جانبيها الغربى والشمالى . فأما الغربى فإنها تفضى من تحت القلعة بها فى ساحة فسيحة هى سوقُ الخَيْل ، على ضفة الوادى ، ويُخرج إليها من جوانب المدينة من أمتعة الجند ، فتباع فى أيام المواكب بها ، وتنتهى فيما يليها من الوادى إلى شرفَيْن محيطين به قبلة وشاماً ، فى ذيل كل منهما ميدان أخضر بالنجّيل ، والوادى يشق بينهما (٢) .

وفى الميدان القبلى منهما القصرُ الأَبْلَق ، بناه الملك الظاهرُ بيبرس البندقدارى الصالحى (٣) . مبنىٌّ من وجه الأرض إلى نهاية أعلاه بالحجر الأسود والأصفر مدماكاً من هذا ومدماكاً من هذا ، بتأليف غريب وإحكام عجيب . ويدخل من دركاه له على جسر راكباً بعقد على مجرى الوادى إلى إيوان برّانى يطل على الميدان القبلى ، استجده آقوش الأفرم (٤) زمان نيابته بها . ثم يدخل إلى القصر من دهاليز فسيحة تشتمل على قاعات ملوكية تستوقف الأبصار ، وتستوهب الشموس من أشعتها الأنوار ، بالرخام الملون ، قائماً ونائماً ، فى مفارشها وصدورها ، وأعاليها وأسافلها ، مموّهة بالذهب [٤٣٨] واللاَّزَوَرد والفصّ المذهب ، وأُزُر من الرخام إلى سجف السقوف (٥) .

وبالدار الكبرى بها إيوانان متقابلان تطل شبابيكُ شرقيهما على الميدان الأخضر الممتد ، وغربيهما على شاطىء الوادى المخضرّ ، والنهر به كأنه ذوائب الفضة (٦) .

---

(١) راجع عنها ، ابن شداد : الأعلاق ١ : ٢٢٠ ، النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ١ : ٥٧٩ .

(٢) القلقشندى : صبح ٤ : ٩٣ .

(٣) كان بناؤه فى سنة ٦٦٥ هـ . (المقريزى : السلوك ١ : ٥٦١ وقارن أبا المحاسن : النجوم ٧ : ١٧٤ و ١٩٥ و ٢٧٨ هـ٤ ، محمد كرد على : خطط الشام ٤ : ١٢٢ و ٥ : ٢٨٥ - ٢٨٦) وعلى مثاله بنى الملك الناصر محمد ابن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر (انظر أعلاه ص ٨٠) .

(٤) راجع فى ترجمته ، الصفدى : الوافى ٩ : ٣٢٦ - ٣٣٥ ، أبا المحاسن : المنهل الصافى ١ : ٢٤٤ والدليل الشافى ١ : ١٤٤ والنجوم ٩ : ٢٣٦ .

(٥) القلقشندى : صبح ٤ : ٩٣ - ٩٤ .

(٦) نفسه ٤ : ٩٤ .

وله الرفارف العالية المناغية للسحب ، تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغوطة [١] .

والوادى كامل المنافع بالبيوت الملوكية والاصطبلات السلطانية ، والحمامات ، والمنافع المكملة لسائر الأغراض [٢] .

وتجاه باب القصر باب يُتوصل من رحبته إلى الميدان الشمالى ، وعلى الشَّرَفَيْن المقدَّم ذكرهما أبنية جلية من بيوت ومناظر ومساجد ومدارس وربط وخوانق وزوايا وحمامات ، ممتدة على جانبي ممتدين طول الوادى [٣] .

وقد بنى فى هذه السنين نائب السلطان بها على الشرف القبلى منهما جامعاً بديعاً — تليه تربة ضخمة — وداراً ملوكية . ومدَّ قبالة الجامع سوقاً لطيفاً وحماماً فائقاً زاد المكان حسناً على حسن ، وإبداعاً على إبداع .

وأما حاضرها الشمالى ويسمى العُقَيْبة ، فهو مدينة مستقلة بذاتها ذات جوامع ومساجد ومدارس وربط وخوانق وأسواق جليلة وحمامات . وبها ديار كثيرة للأمراء والجند [٤] .

وأما نهر دمشق [٥] وهو بَرَدَى فمجراه من عَيْنَين : البعيدة منهما دون قرية الزَّبَدانى ، ودونها عينٌ بقرية تسمى الفِيجَة بذيل عَزّتا ، والماء خارج من صدع فى نهاية سفل الجبل ، وقد عُقد على مخرج مائة قبو روميُّ البناء ، ثم ترفده منابع فى مجرى النهر ، ثم يقسم نهر أربعة : اثنان عن اليمين واثنان عن الشمال ، مرفوعان على مجرى النهر فى قرارة الوادى ، دائمة بمقسم معلوم [٦] .

---

(١) نفسه ٤ : ٩٤ .

(٢) نفسه ٤ : ٩٤ .
وأورد كاترمير فى كتابه Histoire des Sultans Mamlouks I/2, p. 44 ترجمة فرنسية لكل النص الخاص بالقصر الأبلق ، كما أورده كازانوفا فى كتابه عن قلعة الجبل Casanova, P., op.cit., pp. 638-639 .

(٣) القلقشندى : صبح ٤ : ٩٤ .

(٤) نفسه ٤ : ٩٤ .

(٥) راجع ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ١ : ٨١ ، صلاح الدين المنجد : خطط دمشق (بيروت ، المطبعة الكاثولكية ١٩٤٩) ٢١ — ٣٨ . ورسم بردى فى كل النسخ : بردا .

(٦) القلقشندى : صبح ٤ : ٩٥ مع بعض خلاف مع نص العمرى .

وعليه ألفاف البساس ممتدة من الجانبين ، إلى أن يمرّ على المكان المسمى بالرَّبْوة [١] . وقد بنى الملك العادل الشهيد نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله بها المقام المعروف بمهد عيسى . يقال إن مريم أوت إليه بولدها عيسى عليه السلام ، وإن هذه الربوة هى المعنيَّة بقوله تعالى ﴿ وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومَعين ﴾ [الآية ٥٠ سورة المؤمنون] . ومنظر هذا الوادى [٤٣٩] من أعجب المناظر لتراكم الظل والماء ، وإظلال الشمس والهواء ، وافتراش الجبلين المحدقين به فى أرضه بالبنفسج ، تحت الأشجار المتمايلة على غصون البان ، تتفتح بينهما خدود الورد ، وتفترُّ مباسم الياسمين ، وتندلق ألسنُ السوْسن ، ويتجاوب فيها هدير الماء والحَمام ، وتتلاقى خيول النسيمين الطائر من الشمال على منابت الشيح ، ومن القبلة على الحدائق الفيح .

وإلى جانب هذا الوادى فى قبليّه بشمال سطح يمتد على ظاهر المزَّة كأنه قطعة بيداء مقفرة ينبت بها الشيح والقيصوم ، وتتلاعبُ بها الصَّبا والدَّبور ، عُرفت بصحة الهواء وفسحة الفضاء ، فطاب به ما جاورها ، وصحّ لأجله ما قاربها .

ثم نعود إلى ذكر النهر ونسمِّى الأنهار السبعة : مجرى الوادى والستة المقسومة . فمجرى الوادى بردى أفاق عليه هذا الاسم لا يعرف بغيره . وعلى سمت بردى فى الجانب الغربى الأعلى الآخذ قبلة نهر داريّا ، ودونه المزة ، ودونه نهر القنوات ، ودونه نهر باناس . وعلى يَسْرة بردى فى الجانب الشرقى الآخذ شمالاً نهرُ يزيد ، ودونه نهر ثورا . فأما القنوات وباناس فهما نهرا المدينة حاكمان عليها ومسلّطان على ديارها . يدخل باناس القلعة بها ثم ينقسم قسمين : قسم للجامع وقسم للقلعة ، ثم ينقسم كل قسم منهما على تقاسيم تتفرق فى المدينة بأصابع مقسومة وحقوق معلومة . وكذلك تنقسم القنوات فى المدينة ، ولا مدخل له فى القلعة ولا الجامع . ويجرى الماء فى قُنىّ مدفونة فى الأرض إلى أن يصل إلى مستحقاتها وتتسع فى منافعها . ثم تنصبُّ فضلات الماء والبُرَك ومجارى الميضاوات والمرتفقات إلى قُنِىّ وسخ معقودة تحت أزجات الماء المشروب . ثم تتجمع وتتنهر وتخرج إلى ظاهر المدينة لسقى الغيطان [٢] .

---

(١) راجع ، ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ١ : ٢٠٦ - ٢٠٨ .

(٢) القلقشندى : صبح ٤ : ٩٥ - ٩٦ .

وأما بقية الأنهر خلا مجرى بردى فإنها تنصرف إلى البساتين والغيطان ، وعليها القصور والبنيان ، خصوصاً ثورا ، فإنه نيل دمشق ، عليه أجلُّ مبانيهم ، وبه متنزهاتهم ، وإليه أكثر تسيارهم وتوجهاتهم ، يخاله من يراه زمردة خضراء لتراكم الأفياء عليه ، والتفاف الدوح من جانبيْه [١] .

ويجرى [٤٤٠] يزيد فى ذيل الصَّالحية ليشق خيطاً فى عمارتها [٢] .

وأما مجرى بَرَدَى فإنه تتفرق منه فرقة بجانب المدينة تدخل إلى داخل سورها وتدور به أرحاؤها ، وينصبُّ بقايها إلى مجرى الوادى ، إلى أن يخرج من حدود العمارة والأرحاء المنصوبة عليه إلى تتمة الوادى ، تحفّ به الغياض المتكاثفة من السفرجل والحور ، والبساتينُ . ثم يرمى إلى ظاهر قرى دمشق يسقى ما يحكم عليه ، ثم ينصبّ فى بحيرة هناك متصلة بالبرية .

هذه أمهات الأنهار من بردى وما ينقسم منه . على أن كل نهر من هذه الأنهار ينقسم منه أنهار كبار وصغار . ويتشعب من تلك الأنهار جداول ، ثم تتفرق فى البساتين والغيطان لسقى أراضيها وإدارة أرحائها مما لا يكاد يعدّ كثرة .

فأما مسجدها الجامع [٣] فصيته طائر فى الدنيا . كان هيكلاً لعبَّاد الكواكب ، ثم كنيسة للنصارى إلى أن فتحت دمشق على أيدى أبى عبيدة بن الجرَّاح وخالد بن الوليد ، رضى الله عنهما . فجرى عليه حُكْم المناصفة فوقع نصفه الشرقى للمسلمين وبقى نصفه الغربى بأيدى الروم إلى خلافة الوليد بن عبد الملك فاستخلَصَه وأتمَّه جامعاً للمسلمين . فهو بيت عبادة من قديم [٤] . وقد ذكرناه فيما تقدَّم [٥] .

---

(١) نفسه ٤ : ٩٦ .

(٢) نفسه ٤ : ٩٦ .

(٣) عن الجامع الأموى بدمشق راجع ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة (تاريخ مدينة دمشق) ٤٣ - ٨٨ ، تاريخ مسجد دمشق لعلّه للبرزالى (تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٤٩) ، العمرى : مسالك الأبصار ١ : ١٧٨ - ٢٠٣ ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ٧١ - ٧٥ ، القلقشندى : صبح ٤ : ٩٦ .

(٤) القلقشندى : صبح ٤ : ٩٦ .

(٥) مسالك الأبصار ١ : ١٧٨ - ٢٠٣ . وإلى هنا انتهى ما نشره الدكتور المنجد عن دمشق .

أما جُمْلَة أعْمَال دِمَشْق
فهى ثمانية وعشرون عملاً وهى ما يذكر

عمل ضواحيها وتُسَمَّى « بولاية البر » وهو الغُوطَة والمَرْج وجبة عسَّان والإقليم . كل هذا عمل واحد [١] .

والبلاد الساحلية القبلية وما يتبعها وهى عبارة عن بلاد غَزَّة وما جاورها سَهْلاً ووعْراً [٢] وهى تسعة أعمال :

فخاصة غزّة ثلاثة أعمال وهى : عمل غزّة ، وعمل فَرْنيا ، وعمل بيت جبريل . والسَّاحل ثلاثة أعمال [٣] وهى : عمل الرَّمْلَة ، وعمل لُدّ ، وعمل فاقون .

والجبل وهو ثلاثة أعمال : عمل نَابُلُس ، وعمل القدس الشريف ، وعمل بلد الخليل عليه السلام [٤] .

فهذه جملة هذه الأعمال . والمشاهير منها مذكور فى عمله من موضعه إلاَّ نابُلُس فإننا نذكرها هنا فنقول : إنها مدينة متمدِّنة يُحتاج إليها ولا تحتاج إلى سواها [٥] .

والصفقة القبلية وهى
بلاد حَوْران والغَوْر وما مع ذلك [٦]
[٤٤١] وهى عشرة أعمال وهى

عمل « بَيْسان » . وبيسان لها قليعة من بناء الفرنج [٧] وهى مدينة الغور .

---

[١] القلقشندى : صبح ٤ : ٩٧ .
[٢] نفسه ٤ : ٩٨ .
[٣] فى صبح ٤ : ٩٨ أنها أربعة أعمال وأضاف إلى ما ذكره العمرى عمل غزّة .
[٤] نفسه ٤ : ١٠٠ - ١٠٣ .
[٥] القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٣ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٢٤٣ - ٢٤٩ .
[٦] العمرى : التعريف ١٧٧ - ١٧٨ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٣ .
[٧] القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٣ .

وعمل « بانياس » وهى مدينة الجَوْلان [١] وبها قلعة الصبيبة .

وعمل « الشَّعْراء » [٢] .

وعمل « نَوَىٰ » وهى مدينة قديمة وبها قبر أيُّوب عليه السلام [٣] .

وعمل « أذْرعات » وهى مدينة البَثَنِيَّة [٤] . قال البلاذرى : ولما فتح المسلمون بُصْرىٰ أتاهم صاحب أذرعات فصولح على مثل ما صولح عليه أهل بصرى على أن تكون البثنية خراجاً ، ومضى يزيد بن أبى سفيان حتى دخلها [٥] .

وعمل « عجْلون » ومنه الصويت وقلعة عجلون [٦] بين الأردُن وبلاد السَّرَاة ، وهى محدثة صغيرة المقدار مبنية على جبل مطل على الغَوْر يعرف بجبل عوف ، لأنه كان به قوم من بنى عَوْف أهل عتو ، فلما أقطع الملك العادل أبو بكر بن أيوب هذا الجبل عزّ الدين أسامة [بن مُنْقذ] [٧] بنى هذه القلعة لتحصين نوّابه منهم بعد ممانعة منهم وإباء ، فلما تكاملت مدَّ سماطاً وحضره مشائخ بنى عَوْف فقبض عليهم وحبسهم . وكان مكانها ديرٌ يسكنها راهب اسمه عجلون فسميت به [٨] .

وأما البَاعُونة فكان مكانها أيضا ديرٌ به راهب اسمه باعونة ، فلما بنيت سميت باسمه [٩] .

وعمل « البَلْقاء » [١٠] ومنه الصَّلْت . قال البلاذرى : ومن البلقاء كورة الشَّرَاة ، وفيها الحميمة

---

(١) نفسه ٤ : ١٠٣ .
(٢) نفسه ٤ : ١٠٤ .
(٣) نفسه ٤ : ١٠٥ .
(٤) ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٤١ و ٦٦ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ١٥٠ .
(٦) ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٨٦ .
(٧) زيادة من صبح الأعشى وفيه : أنه أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأنه بناها فى سنة ثمانين وخمسمائة .
(٨) ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٨٦ - ٨٧ ، العمرى : التعريف ١٧٨ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٥ - ١٠٦ .
(٩) القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٦ .
(١٠) ياقوت : معجم البلدان ١ : ٧٣٨ ، الحميرى : الروض ٩٦ - ٩٧ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٨٣ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٦ .

وفيها كان منزل على بن عبد الله بن العبّاس . ومن البلقاء مُآب وعَمَّان ، فأما عمَّان فإن يزيد بن أبى سفيان فتحها ، وأما مُآب فإن أبا عبيدة ، رضى الله عنه ، فتحها [١] .

وأما الصَّلْت فإن قلعتها من بناء الملك المعظم عيسى بن العادل ، وكان السبب فى بنائها أنه عَبَرت له جوار هناك فخرج عليهنَّ طائفةٌ تعرف ببنى دَحْمَان من أهل قرية كفر يهودا فسبوهن وأخذوا جماعة منهن ، فبناها على قِنَّة جبل يعرف برأس الأمير وكان مكانها شَعْراء مُلْتَفَّة [٢] .

وعمل « صَرْخَد » وهى مدينة قديمة [٣] وقلعتها محدثة بنيت قبل الشهيد نور الدين محمود بن زنكى ، رحمه الله ، وآخر ما انتهت إليه فى الدولة الأيوبية إلى يد نوَّاب الظاهر على بن العزيز ، كان بها من قِبَله مسعود بن فليح النقيب ، [٤٤٢] فلما جاءها عسكر هولاكو ، بعد أخذ دمشق ، هدموا شرفاتها وأبقوها بيده ، فجدّد الملك الظاهر بيبرس تحصينها وتحسينها [٤] . وصَرْخَد مدينة حَوْران العليا .

وعمل « بُصْرَىٰ » وهى مدينة حَوْران السفلى [٥] ، بل حوران كلها ، بل الصفقة جميعها [٦] ، قال البلاذرى : وبصرى قصبة حَوْران وهى مدينة على سيف البرية ولها ذكر فى حديث النبى ﷺ ، ودخل إليها قبل بعثته وهو تاجرٌ لخديجة بنت خُوَيْلد الأَسَدِيَّة ، رضى الله عنها ، وفيها لقى بَحِيرا الراهب ، وبها قبره إلى عصرنا هذا [٧] .

وقال البلاذرى : اجتمع المسلمون عند قدوم خالد بن الوليد على بصرى ففتحوها صُلْحاً ، ولبثوا على حوران فغلبوا عليها [٨] .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ١٣٤ و ١٥٠ .

(٢) ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٨٣ - ٨٤ : التعريف ١٧٨ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٦ وفيه : وكلامه فى « التعريف » قد يخالف كلامه فى « مسالك الأبصار » .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٣٨٠ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٥٥ ، العمرى : التعريف ١٨٧ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٧ .

(٤) القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٧ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان ١ : ٦٥٤ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٥٥ و ٢٧٢ ، الحميرى : الروض ١٠٩ ، العمرى : التعريف ١٧٨ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٧ - ١٠٨ .

(٦) القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٨ .

(٧) ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٥٥ .

(٨) البلاذرى : فتوح البلدان ١٣٤ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٥٥ .

وقال ابن جرير ، وقد ذكرها فى هذه الكورة : قلعة صرخد وهى محدثة ثم كان بها مملك بعد مملك [١] . قلت : وهكذا جَرَت العادة فى عصرنا وما تقدمه مما قاربه أن تكون لمن أنزل عن رُتْبَة سَلْطَنَة أو ما قاربها .

وعمل « زُرَع » [٢] .

فهذه جملة الأعمال [القبلية]

والصَّفْقَة الساحلية

والجبلية الشمالية [٣] وهى أربعة أعمال وهى

عمل « البِقَاع العزيزى » [٤] .

وعمل « البِقَاع البَعْلَبكية » [٥] .

وعمل « بَيْروت » [٦] وهى تطل على ضفة البحر وعليها سور من حجارة ، وبها جبل فيه معدن حديد ، ولها غَيْضة من أشجار الصَّنَوْبَر تكسيرها إثنا عشر ميلا يتصل بلبنان . وشرب أهلها من الآبار وهى بَنْدر فرضة دمشق [٧] .

وعمل « صَيْدَا » [٨] وعليها سور حجر ، وهى تُنسب لرجل من ولد كَنْعَان بن حام ، وكُورتها

---

[١] لعله يقصد ابن جرير الطبرى ولم اهتد إلى هذا النص فى كتاب التاريخ .

[٢] العمرى : التعريف ١٧٨ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٨ .

[٣] القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٨ وراجع ما ذكره العمرى فى تحديد حدودها (التعريف ١٧٨ - ١٧٩) .

[٤] العمرى : التعريف ١٧٩ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١١٠ .

[٥] نفسه ١٧٩ ، نفسه ٤ : ١١٠ .

[٦] ياقوت : معجم البلدان ١ : ٧٨٥ ، الحميرى : الروض ١٢٢ - ١٢٣ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ١٠١ - ١٠٣ ، العمرى : التعريف ١٧٩ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١١٠ - ١١١ , Elisséeff, N., EI., art . « Bayrut» I, 1171-1173 .

[٧] القلقشندى : صبح ٤ : ١١١ .

[٨] ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٤٣٩ ، الحميرى : الروض ٣٧٣ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٩٨ - ١٠٠ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١١١ .

كثيرة الأشجار ، غزيرة الأنهار ، وهى ولاية جليلة واسعة العمل ممتدة القرى تشتمل على نيّف وستمائة ضيعة ، [١] وشُرْب أهلها من ماء يجرى إليهم من قناة .

فهذه جملة هذه الأعمال .

والصَّفْقة الشرقية الشمالية

وهى البلاد الحِمْصية وهى أربعة أعمال [٢] وهى

عمل « حِمْص » [٣] .

وعمل « قارا » [٤] .

وعمل « سَلَمْية » [٥] .

وعمل « تَدْمُر » [٦] . وتدمر مدينة شامية عراقية لاتصالها ببَرِّ العراق وبرِّ الشام . وهى مدينة جليلة سليمانية البناء ، وبها بساتين جليلة ومتاجر مفيدة ولأهلها يَسَار ومنها تجَّار تضرب فى الأرض .

فهذه جملة المملكة الدمشقية

وبَعْلَبَك

مدينة [٧] قديمةُ البناء شمالى دمشق ، يقال إنها من بناء سليمان بن داود عليهما السلام ، لها

---

[١] ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٩٨ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١١١ .

[٢] انظر ما ذكره العمرى فى تحديد هذه الصفقة فى التعريف ١٧٩ .

[٣] القلقشندى : صبح ٤ : ١١٢ وفيما يلى ص ١٢٤ – ١٢٥ .

[٤] نفسه ٤ : ١١٣ .

[٥] ياقوت معجم ٣ : ١٣٣ – ١٣٤ ، الحميرى : الروض ٣٢٠ ، العمرى : التعريف ١٨٠ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١١٤ ، Demombynes, G., « La Syrie », p. 77 .

[٦] ياقوت : معجم ١ : ٨٢٨ ، الحميرى : الروض ١٣١ ، العمرى : التعريف ١٨٠ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١١٤ ، Demombynes, G., op. cit., p. 78 .

[٧] ياقوت : معجم البلدان ١ : ٦٧٣ ، الحميرى : الروض ١٠٩ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٤٢ – ٥٤ ، العمرى : التعريف ١٧٩ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٩ – ١١٠ ، Demombynes, G., op. cit., p. 70-73; Sourdel - Thomine, J., EI., art. « Ba‘labakk », I, p. 1000-1001 .

قلعة عظيمة مرجَّلة على وجه الأرض مثل قلعة دمشق ، يستدير بها وبالمدينة سورٌ منيع محصَّن عظيم البناء بالحجارة الثقل الكبار من الصخر الشديد المانع ، وبه ثلاثة أحجار عظيمة ممتدة تحت برج وبدنتين كوامل ذوات أطوال وعروض وسُمْك مرتفع كأفلاق الجبال . وفى القلعة عُمُدٌ عظيمة شواهق وسيعة الدور منيفة العلو . وفى هذه القلعة من عمائر من تفرَّد بها من الملوك الأيوبية آثار ملوكية جليلة القدر جلية الحسن كالدار الأمجدية والبحيرة .

وأما المدينة فمخْتَصَرَة من دِمَشْق فى كمال محَاسِنِها فى حُسْن الترتيب والبناء ، وجهات الوَقْف العامرة من الجَامِع والمَسَاجد والمَارِسْتَان ودار الحديث والمَدَارِس والرُّبَط والخَوَانِق والزَّوايا والأسواق النظيفة المشتملة على أنواع المبيعات ، ويجرى [١] الماء فى ديار هذه المدينة ومَشَارعها وأسواقها . ويُعْمَل بها الدِّهَان الفائق فى الماعون مما يُسْتَحْسَن ويُحمل منه إلى كثيرٍ من البلاد [٢] .

ويحِفُّ بالمدينة غُوطَة عظيمة أنيقةٌ ذات بساتين مُشْتبكة الأشجار بأنواع الثمرات الحِسَان والفواكه المختلفة الألوان [٣] .

وبَعْلَبَكُّ فى ظاهرها عينُ ماء سَارِحَة متَّسِعة الدائرة مشهورة بالزينة ، ماؤها فى غاية الصَّفَاء ، عليها بَهْجَة الحُسْن بين ممَّرج أخضر وبستان مُونِق [٤] . وعليها مسجدٌ واستُجِدَ إلى جانبها مسجد جامع كَمُل به طِرَازها المذهب وجمالها المبدع . يمدُّ منها نهر يتكَسَّر الحَصْبَاء فى خلال تلك المروج كنصل سيف يُسَنُّ فوق مَسَن إلى أن يدخل للمدينة وينقسم منه فى بيوتها وجهاتها ، ويسمَّى « ماءُ رأْسِ العَيْن » .

ولبَعَلْبَك عَيْنٌ أخرى أبعد من هذه الأولى مدًى يقال لها « عَيْنُ اللوجُوج » [٥] فى طرف بساتينها البعيدة خفيفة الماء هاضمة ، لا يَشْرب أكابرُ بعلبك وأهلُ النِعْمَة بها إلاَّ من مائها ،

---

(١) فى الأصل : ويخرق الماء .
(٢) القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٩ .
(٣) المصدر نفسه ٤ : ١١٠ .
(٤) المصدر نفسه ٤ : ١١٠ .
(٥) فى صبح : اللحوج .

ويتّصل منها فرعٌ إلى الجانب الشمالى [٤٤٤] من بَعْلَبَك ويصب منه فى قناة هناك ويدخل إلى القلعة منه ، وهو من الماء المُستَطَاب الموصوف فى البلاد [١] .

وبَعْلَبَكُّ بلدٌ لطيفٌ ظريفٌ كثيرُ الخير والأرزاق أرْخى أسعاراً من دمشق ، كثيرة الأطايب وبها المَلْبَن المعمول على أنواع يقلُّ وجود [٢] مثلها فى الأرض ، لا يكاد يفوتها من دمشق فائت .

وبها جَبَلُ لُبْنَان المشهور المبارك البُقْعَة [٣] موطن الأولياء والصُلَحَاء والسُوَّاح ، يأوى إليه كثيرٌ ممن انقطع إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ ، وهو مدرج طريق الفقراء وقطب مدار الأولياء يقر بهذا من عَرَفَه ، ولا يستطيع الكاره من جَهْله .

ومع ما ذَكَرنا من حُسْنها قد زَمَّها القاضى الفاضل فقال : « وكتابى إليها من إحدى المَضَايق بل المَطَابق المسمَّاة بَعْلَبَك ، وأنا نازلٌ على عَيْنٍ يصمُّ السَّمع هديرُها فوق جبال يقمر العين صديرُها ، تحت سماء قد رَابَنى منها الغَدَاة سفورها أمامى قتال يدير كأس المَنُون فيه مديرها ، ورأى أحجار المنجنيقات التى إذا رأت نفطها حُرُوف البروج مُحيت سطورها . والله المستعان على ما يصفون » .

حِمْصُ

مدينةٌ قديمةٌ [٤] اسمها القديم سُورِيَا كانت معظَّمة عند ملوك الروم ، كرسى مُلْكٍ لهم ، ولم تزل يُشَار إليها بينهم بالتعظيم . وهى فى وطاءة ممتدَّة على جانب نهر العَاصِى [٥] فى شماليه مبنية بالحَجَر الأسود الصغير ، وبها قَلْعة لا تَمْنَع ، ويستدير بها سور هو أمْنَع من القلعة [٦] وأسْمَح

---

(١) القلقشندى : صبح ٤ : ١١٠ .

(٢) فى الأصول : موجود .

(٣) القلقشندى : صبح ٤ : ٨٥ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٣٣٤ - ٣٣٨ ، الحميرى : الروض المعطار ١٩٨ ، العمرى : التعريف ١٨٠ ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ٥٣ - ٥٤ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١١٢ - ١١٣ ، G., Demombynes, op. cit., p. 75-77, Elisséeff, N., EI, art. « Ḥimṣ », III, pp. 409-415 .

(٥) العمرى : مسالك الأبصار ١ : ٨١ ، القلقشندى : صبح ٤ : ٨٠ .

(٦) القلقشندى : صبح ٤ : ١١٣ .

من أبراجها فى الرِّفْعَة ، ولها من العَاصِى ماءٌ مرفوعٌ يجرى إلى دار نائب السَّلْطَنة [١] بها وبعض مواضع بها . ولها من برٍّ بَعْلَبَكّ أنواع البرّ ، وظاهرُها أحسن من باطنها ، لا سيما فى زمان الربيع ، وما تلبس به ظواهرها من حُلَل الربيع الموشَّعة بالأزهار ما مدّ النظر ، ترنو بأَحْدَاق النرجس وثغور الأَقَاح ، وتتوسَّط بها البُحَيْرة الصافية الماء الضافية النماء ذات السَّمَك المنقول من الفرات إليها حتى تولَّد فيها ، والطير مبثوثٌ فى نواحيها .

وبها إلى جانب مسجدها الجامع قُبَّة العَقَارب لا يوجد [٤٤٥] لها نظيرٌ يقال إنها طَلْسَم قديم موضوعٌ لدَفْع العَقَارب عنها ، ولأجل هذا لا يوجد بها شخص عقرب ، ولا يُحمل عقرب إليها إلَّا ويمُوت بها . ومَنْ أَخَذَ تراباً من أرض حِمْص وخَلَطَه بماءٍ حتى تصير طيناً ثم أُلْصَق تلك الطينة ببعض جدران تلك القبة من داخلها وتركها حتى تسقط بذاتها من غير أن يلقيها أحد ، ثم أَخَذَها ووَضَع شيئاً منها فى بيته لا تدخله عَقْرَب ، فإن ذُرَّ على عقربٍ منه أحدث بها مثل السُّكْر وربما زاد عليها فقَتَلها [٢] . هذا لا يحتاج يسأل عن تحقيقه ، ولا يأبى من هو فى غاية المشرق أو المغرب من تصديقه ، بل والذى يقال إن هذا الأمرُ لا يختصُّ بهذه القُبَّة وإنما هو خاصَّةٌ فى عامَّةِ أرضِ حِمْص لا تقرب عَقْرَبٌ ثيابَه وأمتعته ما دام عليه من غُبَار ترابها [٣] .

حدَّثنى خَلْقٌ بهذا ، ورأيت بعينى وجرَّبت ما يتعلق بالطين المُلْصَق بالقبة ، وإلى هذا أشَار الفاضل فى البُشْرَى بفتوحها : « ودَبَّ إليها من عَقَارب المجانيق ما خالف عادة حِمْصَ فى العَقَارب ، ورُمِيَت بها الحجارة على الحجارة فظهرت العداوة المعروفة بين الأقارب » [٤] .

وحِمْصُ تتلو الإسكندرية [٥] فيما يُعْمَل فيها من القماش الفائق على اختلاف الأنواع وحُسْن الأوضاع لولا قلَّة مائه وفحولة جسمه ، مع أنه يبلغ الغاية فى الثَّمَن ، وإن لم تَلْحق اسكندرية مصر فإنها تفوق صنعاء اليمن .

---

[١] عن نيابة السلطنة راجع ، القلقشندى : صبح ٤ : ٢١٧ .

[٢] القلقشندى : صبح ٤ : ٧٣ و ١١٣ .

[٣] المصدر نفسه ٤ : ٧٣ .

[٤] قارن النص هنا بما أورده القلقشندى : صبح ٤ : ٧٣ .

[٥] فى كل النسخ : تتلو اسكندرية .

حَمَاة

مدينةٌ قديمةٌ [١] وهى فى وَهْدَة حمراء ممتدة عليها نَشْزَان عاليان مطلان عليها يسميان قرون حماه . ذكرها امرؤ القَيْس هى وشَيْزَر فى شعره لما مرَّ بهما فى طريقه إلى قيصر [٢] .

وهى مدينةٌ على ضفة العاصى بناءً مكيناً بالحجارة ، ولها قَلْعة ملَوَّنة الأحجار يستديرُ بها سُورٌ ، وبيوت ملوكها وسَرَواتها [٣] مطلَّة على النهر . بها القصور الملوكية ، والدور السرية والمَسَاجِد والمَدَارِس والرُّبَط والزَّوايا والأسواقُ التى لا تَعْدَم نوعاً من الأنواع ولا صنفاً من الصنوف جليلها وحقيرها . وغالبُ مبانيها العليَّة ، وآثار الخير الباقية فيها من فواضل نِعَم [٤٤٦] الدولة الأيوبية فيها . ولها النواعيرُ المركَّبة على العَاصِى ، تدور بذاتها وتَرْفَع الماء إلى الدور السلطانية ودور الأمراء والبَسَاتين والغيطَان . وفى بساتينها الأشجارُ والغِرَاسُ المفنَّن الأفْنَان ، وبها بقايا الناس وأُنْمُوذج الكِرام يخدمهم العُلَمَاءُ بتصانيفهم والشُّعَراءُ بمدائحهم ، ويقصدهم الفقراء والسُّؤَّال وطوائف بنى الأمال ، ويتفنَّن أربابُ الصنائع فى دقائق الأعمال وتقدَّم إليهم التحف ويختصُّهم التجَّار ببدائع الطُّرَف ، وكرمهم يربى على الأمل ويزيد على الرجاء ، حتى إن كل أحد ليعلق من ملوكها للطماعية بنصيب ويفردهم بقَصْدٍ ، وهم أجْوَد من الغَمَام السكوب وأندى من الرياح ندًى عند الهبوب [٤] .

ثم نعود إلى ذكر حماة فنقول : إنها لم تكن فى القَديم نبيهة الذكر ، وكان الصِّيت دونَها لِحمْص ، ثم تنبَّه فى الدولة الأتابِكيَّة ذكرها . فلما جاءَت الدولة الصَّلاَحية الناصرية وانتقلت

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٣٣٠ – ٣٣٢ ، الحميرى : الروض المعطار ١٩٩ ، العمرى : التعريف ١٨١ ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ٥٤ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٣٩ – ١٤٠ وفيه : « وقد ذكرها فى « مسالك الأبصار » بعد دمشق وهو أَلْيَق لقربها منها ، ولكنه قد ذكرها فى « التعريف » بعد حلب فتبعته على ذلك » ، Sourdel, D., art. « Ḥamāt », III, pp. 122-124 .

(٢) فى قوله :

تَقَطَّعَ أسبابُ اللُّبَانة والهَوَى
عَشِيَّةَ جاوَزْنا حَمَاة وشَيْزَرَا

(ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ١٩٦٩ ، ٦٢) .

(٣) فى صبح : وشرفاتها .

(٤) القلقشندى : صبح ٤ : ١٤٠ .

حَمَاةُ إلى ملوك بنى أيُّوب مَصَّروا مدينتها بالأبنية العظيمة والمساكن [١] الفَاخِرَة ، وتأمير الأمراء فيها وتجنيد الجند بها ، وعظَّمُوا أسواقها وزادوا فيها القصور والغِرَاس وجلَبوا إليها من أرباب الصنائع كل من فَاقَ فى فنِّه ، وبقى كل ما لمحاسنها يكبر ويزداد إلى أن أضْحَت الآن تامة المَحَاسِن معدودةً فى أمَّهات البلاد وأحَاسِن الممالك [٢] .

وبها الفواكه الكثيرة والخيرات الغزار . وأسْعَارُها حيَّة وسمتها ملوكية ، خلا أنَّها ذات وَغْرٍ فى الصيف لحَجْب الهواء عن اختراقها ، ويَعْرِض لها فى الخريف تغيُّر يُنْسَب إلى الوَخَم ، ولا يبقى بها الثَّلْج كما يبقى فى بقية الشام مدَّخَراً إلى الصيف ولكنه يُجْلَب إليها مما جاوَرَها [٣] .

وحول حَمَاة مروجٌ ممتدَّة وبرٌّ فسيح يكثر به مَصَائد الطَّيْر والوَحْش . وليس بعد دمشق فى الشام لها شبيه ، ولا يدانيها فى لُطْف ذاتها من مجاورتها قريب ولا بعيد [٤] . وليس لها سوى عملين : عمل « بارين » وعمل « المَعَرَّة » [٥] .

وحَلَب

مدينةٌ عظيمةٌ قديمة [٦] ، أمُ أقاليم وبلاد وأغْوَار وأنجاد ، وبها معظم قِلاَع الشام ومعَاقِله وحصونه [٤٤٧] وثغوره وتسمى « حَلَب الشَّهْبَاء » وهى ذات القلعة البديعة العلِيَّة المنار ، وهى – أغْنى حلب – فى وسط وَطَاءةٍ حمراء ممتدَّة ، والقلعة على تلٍّ علىٍّ [٧] . كانت قد عظُمت

---

[١] م : المساجد .

[٢] القلقشندى : صبح ٤ : ١٤٠ .

[٣] المصدر نفسه ٤ : ١٤٠ .

[٤] نفسه ٤ : ١٤٠ .

[٥] فى التعريف ١٨١ وصبح ٤ : ١٤١ أن لها ثلاثة أعمال : ولاية برِّها الخاص بها نفسها ، وعمل بارين ، وعمل المَعَرَّة .

[٦] ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٣٠٤ ، الحميرى : الروض المعطار ١٩٦ – ١٩٧ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج ١ ق ١ (دمشق ١٩٥٣) ، ابن العديم : زبدة الطلب فى تاريخ حلب ج ١ (دمشق ١٩٥١) ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ٥٦ – ٥٩ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١١٦ – ١٣٩ ، Sauvaget, J., « Alep, Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX Siècle », Paris 1941, ، محمد أسعد طلس : الآثار الإسلامية والتاريخية فى حلب ، دمشق – مديرية الآثار العامة ١٩٦٥ ، Sauvaget, J., EI., art. « Ḥalab », III, pp. 87-92 .

[٧] القلقشندى : صبح ٤ : ١١٦ .

أيام بنى حَمْدَان ، وتاهت بهم شَرَفاً على كِيوان ، ثم جاءت الدولة الأُتابكِيَّة فزادت فخَاراً واتَّخَذت لها من بروج السماء مَنْطَقَةً وأسوارا ، ولم تزل على هذا يُشَارُ إليها بالتعظيم ويأبى أهلُها فى الفَضْل عليها لِدمَشْق التسليم ، حتى وطئها هُولاَكُو بحوافر خيْله وأقام عليها مفرّقاً فى أقطار الشام بعوثَ سَرَاياه وجنْدِه فهُدِمَت أسوارُها وخرِبَت حواضرُها [١] ، فأصبحت يَرْثى لها الشَامت ويبكى بها اللاَّهِى ، وهى على ما توالى عليها من المِحَن وأطَاف بها من نوَبِ الأيام ، مصر جامع ومبصر رائع ، مبنيةٌ بالحجر الأصفر الذى لا يوجد مثله فى البلاد [٢] ، كأنَّها به رَافِلَةٌ فى حُلَلِ الديباج ماثلة فى ذهبيه الأصيل .

وبها الديارُ العظيمة والجامع ذو المأذنة العليا الفائقة ، والمَارِسْتَان والمَسَاجد والمَدَارِس والرُّبَط والخَوَانِق ، ووجوه البرِّ الدائم والصدقات الجارية . ويجرى إلى داخل المدينة فرعُ ماء يتَشَعَّب فى دُورِها ومساكنها وهو قليل نزر لا يبُلُّ صداها ولا يكفى نقيتها [٣] . ولها الصَّهَاريج المملوّة من ماء الأمطار ، صافية النطاف باردة الزلال ، منه شُربُ أهلها ويدخل إليها الثَلْج من بلادها ، وليس لأهلها إليه كثير التفاف لبَرْد هوائهم ومائهم وقربِ اعتدال صيفهم وشتائهم [٤] .

وبها نهر قُوَيْق ، وهو نهرها القديم [٥] . ونهر السَّاجُور [٦] ، مسْتَجَدٌّ فيها ساقه هذا السلطان إليها وحكمه جارياً عليها [٧] .

وحَلَبُ أوسعُ الشام بلاداً وأوطأ أكنافها لخيل الأمل مجالاً . ولها المُرُوج الفِيحُ والبرُّ الممتدُّ حاضرة وبادية ، ومنازل عرب وأتراك بها جند كثيف وأمم من طوائف العرب والتُركان [٨] . وبها البطيخ القليل فى الشام مثله ، وأنواع من الفواكه أكثرها مجلوبة من بلادها ، متَّصلة بسِيس والرُّوم وبلاد ديار بَكْر وبَرِّيَّة [٤٤٨] العراق [٩] .

---

[١] نفسه ٤ : ١١٧ .
[٢] القلقشندى : صبح ٤ : ١١٦ .
[٣] فى صبح : ولا يشفى غُلَّتها .
[٤] القلقشندى : صبح ٤ : ١١٧ .
[٥] عن نهر قويق راجع ، العمرى : مسالك الأبصار ١ : ٨٠ ، ابن شداد : الأعلاق ١/١ : ١٣٨ - ١٣٩ .
[٦] راجع العمرى : مسالك الأبصار ١ : ٨٠ وقارن أبا الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ٣ : ١١١ .
[٧] القلقشندى : صبح ٤ : ١١٧ .
[٨] المصدر نفسه ٤ : ١١٧ .
[٩] المصدر نفسه ٤ : ١١٨ .

وفى أعمالها وادى البَابِ وبُزَاعَة [١] ، الوادى المشهور ، نزل به المَنَازِى الشاعر [٢] ووصفه بقوله [٣] :

وقانا لَفْحَة الرَّمْضَاء وادٍ وقَاهُ مضاعَفُ النبتِ العميم
نزلنا دَوْحَهُ فَحَنَا علينا حُنُوَّ الوالدات على الفَطِيم
وأرْشَفَنَا على ظمأٍ زُلالاً ألذَّ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى فتلْمُسُ جانبَ العقد النَّظِيم[٤]
تصله الشمس أنَّى واجهتها [٥] فيحجبها ويأذن للنَّسيم

وأما عملُها فهو كثيرٌ منه قلاع وحصون ، ومنه ما ليس له قلعة ، وعدَّة الجميع ثلاثة وعشرون عملاً وهى :

عمل « شَيْزَر » المدينة المشهورة .

وعمل « الشُّغْرِ وبَكَاس » وهى قلعة .

وعمل « القُصَيْر » وهى قلعة .

وعمل « دَبَرْكوش » .

وعمل « حَارِم » .

وعمل « أنطاكية » المدينة العظيمة المشهورة المذكورة .

وعمل « بَغْرَاس » . وهى قلعة حصينة ثغر الأرمن .

و « الدَرْبَسَاك » وهى قلعة .

---

(١) فى صبح ٤ : ١٢٨ : بُزَاعا .

(٢) هو أحمد بن يوسف المَنَازى المتوفى سنة ٤٣٧ هـ . (ابن خلكان : وفيات ١ : ١٤٣ - ١٤٥ ، الذهبى : العبر ٣ : ١٨٧ ، الصفدى : الوافى ٨ : ٢٨٥ - ٢٨٨ ، ابن العماد : الشذرات ٣ : ٢٥٩) .

(٣) الأبيات فى الوفيات ١ : ١٤٣ - ١٤٤ والوافى ٨ : ٢٨٥ وقارن المقرى : نفح الطيب ٤ : ٢٨٨ وفيه أنها لحمدة العوفية .

(٤) فى كل المصادر جاء ترتيب هذا البيت الخامس .

(٥) فى كل المصادر : يصد الشمس أنَّى واجهتنا .

وعمل « حَجَر شُغْلاَن » وهى قلعة .

وعمل « الرَّونْدَان » وهى قلعة .

وعمل « عَيْنتاب » وهى مدينة مليحة جليلة .

وعمل مدينة « بَهَسْنى » وهى مدينة جليلة على ما يُذكر .

وعمل « كَرْكَر » وهى قلعة .

وعمل « الكَخْتا » وهى قلعة .

وعمل « الْبِيرَة » وهى القلعة الجليلة المشهورة .

وعمل « قلعة المسلمين » وهى قلعة جليلة .

وعمل « مَنْبَج » .

وعمل « الحَبُّول » .

وعمل « تيزين » .

وعمل « عزَاز » .

وعمل « سَرْمين » ومعها الفُوعَة وقِنْسْرين .

وعمل « كَفرطاب » .

وعمل « الباب وبَزَاعة » المقدم الذكر [١] .

---

[١] راجع تفصيل هذه الأعمال عند القلقشندى : صبح ٤ : ١١٩ - ١٣٩ .

أطْرَابُسُ

قد قدَّمنا القول على أنها بُنِيَت عند الفَتْح عِوَض أطْرَابُلُس العتيقة [١] ، وكانت تسمَّى قديماً بدار العِلْم وتداولها ملوكُ بنى عمَّار وكانوا فى الأوَّل لهم القَضَاء بها . ولمَّا بُنِيت هذه المدينة الجديدة ، كانت وَخِيمَة البُقْعَة ذميمة المسكن ، فلمَّا طالت مدَّة سَكَنِها وَكَثُر بها الناسُ والدَّوَاب ، وصُرِفَت المياه الأجِنَة التى كانت حولَها نَقَائع وعُمِلَت بساتين ، ونصب بها المنصوب والغِرَاس فخفَّ بَقْلُها وقلَّ [٤٤٩] وخَمُهَا [٢] .

وقد كان بها أُسَنْدَمُر الكرْجى [٣] نائباً ، وبقى لا يستقل من لوثة وخم [٤] ، فشكا إلى الحكيم الفاضل أمين الدين سليمان بن داود المتطبِّب [٥] وَخَامَتها ، وسأله عمَّا يخَفِّف بعض ذلك ، فأشار عليه أن يستكثر بها من الجمال وبقية الدوابِّ ففَعَل ذلك ، وأَمَر به الأمراء والجند فخَفَّ ما بها وكان الأمر كما أشار به الحكيم . وسألت عن تعليل هذا كثيراً من الأطباء فقال : إنه لا يعرفه . وفوق كل ذى علمٍ عليم [٦] .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ١ : ٣٠٧ - ٣٠٩ و ٣ : ٥٣٣ ، الحميرى : الروض ٣٩٠ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ١٠٤ - ١١٢ ، العمرى : التعريف ١٨٢ ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ٥٢ - ٥٣ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٤٢ - ١٤٣ وفيه : « قال السمعانى : وقد تسقط الألف منها فرقاً بينها وبين طرابلس التى فى الغرب ، وأنكر ياقوت فى « المشترك » سقوطها وعاب على المتنبى حذفها منها فى بعض شعره » ، Demombynes, G., op.cit., pp. 110-112 ، السيد عبد العزيز سالم : « طرابلس الشام ، تاريخها وأثارها فى العصر الإسلامى » ، مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٦ (١٩٦٢) ٤٣ - ١٢٧ ، عمر عبد السلام تدمرى : تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس فى عصر المماليك (طرابلس - دار البلاد ١٩٧٤) ، نفسه : تاريخ طرابلس السياسى والحضارى - عصر دولة المماليك (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات ١٩٨١) ، ولعبد العزيز محمود عبد الدايم : إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى (رسالة ماجستير بجامعة القاهرة) .

(٢) القلقشندى : صبح ٤ : ١٤٣ .

(٣) فى الأصول وصبح : أستدمر وهو خطأ ، وراجع فى ترجمته ، الصفدى : الوافى ٩ : ٢٤٨ - ٢٤٩ ، ابن حجر : الدرر ١ : ٤١٤ - ٤١٥ ، أبا المحاسن : المنهل ٢ : ٤٤٣ - ٤٤٥ والدليل ١ : ١٣٢ .

(٤) فى صبح : من كونه وخما .

(٥) كان رئيساً لأطباء دمشق وتوفى سنة ٧٣٢ هـ (راجع فى ترجمته ، الصفدى : الوافى ١٥ : ٣٨٠ ، ابن حجر : الدرر ٢ : ٢٤٦) .

(٦) القلقشندى : صبح ٤ : ١٤٣ .

وأما ما قاله لى الصدرُ بهاء الدين أبو بكر ابن غانم ، رحمه الله ، فإنه قال : إن السببَ فيما يَعْرَض للأجسام بها أنها لمجاورة البحر وَعِرَة حارّة فتكون فى أوَّل الليل كذلك فلا يُقْبل فيها تقبُّل الغطاء ، فإذا نام النائم قليل الدِّثَار يفاجئه البرد الشديد فى آخر الليل من قِبَل الجبال المجاورة لها ، فيجىء البرد عُقَيْب الحرّ والمسام مُفَتَّحة والنائم فى غفلته فيحدث له ما يحدث .

ولها نهرٌ يحكم على ديارها وطِبَاقها يتخرَّق الماء فى مواضع من أعالى بيوتها التى لا يُرْقى إليها إلَّا بالدرج العلِيَّة . وحولها جبالٌ شاهقة صحيحةُ الهواء خفيفة الماء ذوات أشجار وكُرُوم ومُرُج وأغْنَام ومعز [1] . ومجتمعٌ بها الجوز والموز وقَصَب السُّكَّر والثَّلْج ، ويُعْمل بها السكر ، ويَهْوَى إليها وفود البحر ترْسى بها مراكبهم موضع زرعٍ وضَرْع [2] .

وهى الآن مدينةٌ ممتدة كثيرة الزِّحَام ، ذات مارِسْتَانَيْن ، ومَسَاجِد ، ومَدَارِس وزَوَايا ، وأسوار جليلة ، وحمَّامات حِسَان موصوفة وجميع أبنيتها بالحَجَر والكلْس مبيِّضاً ظاهراً وباطناً ، تحيط بها غُوطَتها ويحيط بغوطتها مواضع مزدرعاتها [3] بديعة المُشْتَرَف تحسن بعين من يُشْرِف من هضبة عليها .

وهى مملكةٌ ذات جيش وتُرْكُمَان . وخاصَّة لأهل الجبال بها يدٌ فى الرَّمْى على القوس الثقيل بالنشَّاب الخارق .

ولها حصونٌ وقِلاَع وتجاورها قلاع الدَّعْوة المعروفة ، وقاعدتها مِصْيَاف ومن جملتها :

« قلعة القَدَمُوس » . وبها حمَّامٌ يخرج بها أنواعَ حيَّاتٍ [٤٥٠] كثيرة لا تحصى ، حتى إن القاعد فى داخلها ليغتسل والحيَّات طافرة من الأنبوب مع الماء ، حتى إن الخارج من الحمَّام ليرفع قماشه من الأرض ليَلْبَسه والحيَّات تتساقط منه ، ولكنها لا تؤذى أحداً ولا عُرِف هذا عنها فى وقت من الأوقات [4] .

---

[1] القلقشندى : صبح ٤ : ١٤٣ .
[2] المصدر نفسه ٤ : ١٤٣ .
[3] المصدر نفسه ٤ : ١٤٣ .
[4] القلقشندى : صبح ٤ : ٧٤ و ١٤٧ .

وبالقرب من هذه القلعة « قَلْعة الخَوَابى » . حدَّثنى الأديب بدر الدين حسن الغَزِّى أن فى سورها – أعنى قلعة الخَوَابى – مكاناً إذا لَدَغَت أفْعَى أو حيَّة أحداً وحُمِل لكى يشاهد ذلك الموضع من سور الخَوَابى بعينه ، أو كان الملدوغ عاجزاً فأرْسَل رسولاً له فى ذلك الموضع فأتى إليه وشاهده بعينه قبل عَطَب السليم الملدوغ [١] ، نجا السليم وكانت عاقبته إلى سلامة [٢] . وهذا من عجائب ما يُحَدَّث به فى الآفاق ، فما أدرى أهذا لطَلْسم هناك أو لخاصية فى ذلك الحجر . وعلى كل الحالين هذا السرُّ عجيبٌ غريب وأغرب ما فيه هذا يفيد نفع اللديغ برؤية رسوله له إذا لم يره هو بنفسه . فسبحان من له الحُكْم وإليه مرجع الأمر كله .

و « وادى الفوَّار » قريب حصن الأكْرَاد [٣] غرباً بشمال على الطريق السالكة ، صفته هناك صفة بئر قائمة فى الأرض . وفى سُفْل البئر سرداب ممتد إلى الشمال يفور فى كل أسبوع يوماً واحداً لا غير ، فتسقى به أرضٌ ومزدرعات ، وينزل عليه التركمان ويردوه ، وبقية الأيام يابسٌ لا ماء فيه ، ويسمع له دوىٌ كالرَّعْد قبل فورانه ، والسرداب خلفه البناء . وذكر لى مَنْ دخل السرداب أن فى نهايته نهراً كبيراً آخذاً من الغرب إلى الشرق تحت الأرض وله جَرَيان مُعَيَّن وبه موجٌ وريح عاصف ولا يُعْرف إلى أين يجرى ولا من أى جهة يجيء [٤] .

وداخل البحر الشامى بطَرابُلُس عند برج الخصاص بقدر رمية حجر فوَّارة ماء حلو عذْب يطلع على وجه الماء علو ذراع أو أكثر يبين ذلك عند سكون البحر لكل أحد [٥] .

وصَـفَد

مدينةٌ [٦] فى سفح جَبَلٍ ، صحيحة الهواء ، خفيفة الماء ، يُحمل إليها [٤٥١] الماء على

---

(١) هكذا وردت العبارة فى الأصول فيما عدا ث ونصها : قبل أن عطب السليم الملدوغ ! .

(٢) القلقشندى : صبح ٤ : ٧٤ و ١٤٧ .

(٣) عن حصن الأكراد راجع ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ٣ : ١١٥ – ١٢٠ ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ٥٣ .

(٤) القلقشندى : صبح ٤ : ٧٤ .

(٥) نفسه ٤ : ٧٤ .

(٦) راجع ، ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٣٩٩ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ٣ : ١٤٦ – ١٥١ ، العمرى : التعريف ١٨٢ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٤٩ – ١٥٠ ، Lewis, B., « An Arabic account of the province of Safed », BSOAS XV (1953), pp. 477-488 نقلا عن =

الدَّواب من واديها ، وبها عَيْن ماء لو أنها دمعٌ لما بلَّت الآماق ولا ملأت بِلى البكاء به الأحداق . وأكثر ما يدخل أهلُها حمَّامات الوادى بها ، ولا ترضى حمامات المدينة لقلّة مائها وسوْ بنائها .

وبها عَسْكر من الجند والحَلْقة ، وهى على مسافة يومين من دمشق ، فحكمها حكمها وكل ما يوجد بدمشق فيها مما هو من صَفَد وبلادها ومما هو مجلوب من دمشق إليها [١] . وهى إلى جانب عكًّا وقد خربت عكا وبقيت هى مدينة ذلك الساحل وقاعدة ذلك .

ولها قلعة قلّ أن يوجد لها شبيه ، كأنما عليها من ذهب الأُصيل تمويه ، لا تروم السحب إلَّا من ضَبَب ، ولا يطوف عليها سوى الشَّفق لمدام عليه من مواقع النجوم حَبَب ، ولا تجاوز الأرض إلَّا وهى إذا رامت السماء لا يعوقها سبب . ولما فتحها الملك الظاهر بيبرس عظَّم أمرها ، وهى تستحق التعظيم وتستوجب الرِّفْعة بما رفع الله من بنائها العظيم [٢] .

ولقد ذكرها ابن الواسطى الكاتب فقال : وقَلْعة صَفَد بَنَتْها الفرنج ، وكانت أولاً تلاً عليه قرية عامرة تحت برج اليتيم بنتها الدَّاوِيَّة فى سنة خمس وتسعين وأربعمائة [٣] ، وقال : وهى قلعة حصينةٌ على جبل تحفُّ به جبال وأودية .

ولها أحد عشر عملاً [٤] وهى :

ولاية « برِّها » .

= مخطوطة جامعة استامبول رقم ٤٥٢٥ . وصاحب هذا الكتاب ينقل عن العمرى وأظنه العثمانى صاحب « تاريخ صفد » الذى ينقل عنه القلقشندى (صبح ٤ : ١٤٩) وليس الكاتب الواسطى الذى سينقل عنه العمرى بعد قليل .

ولطه ثلجى الطراونة : مملكة صفد فى عهد المماليك (بيروت ، دار الآفاق ١٩٨٢) .

(١) القلقشندى : صبح ٤ : ١٥٠ .

(٢) نفسه ٤ : ١٥٠ .

(٣) نفسه ٤ : ١٥٠ .

وابن الواسطى هو أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد المقدسى كان موجوداً فى القرن الخامس الهجرى ونقل عنه ابن فضل الله فى الجزء الأول من المسالك ١ : ١٤٨ . ألّف حوالى عام ٥٠٠ هـ كتاباً فى فضائل بيت المقدس حققه أ . حسُّون ونشره معهد الدراسات الأسيوية والإفريقية - بالجامعة العبرية بالقدس سنة ١٩٧٩ .

(٤) ذكر صاحب « تاريخ صفد » الذى نشره لويس أن لها عشرة أعمال فقط هى : عمل المدينة ويسمى الزنَّار ، بلاد الشقيف والنحارير ومرج العيون ، بلاد تبنين ، ولاية صور ، ولاية عكا ، ولاية عثليث ... وبها جبال الكرمل ، مرج بنى عامر وبه ولايتان : اللجون وجنين ، ولاية الناصرة ، ولاية الشاغورين ، ولاية طبرية .

وولاية « النَّاصِرَة » [١] منبع الطائفة النصرانية .

وولاية « طَبَرِيّة » [٢] ذات البحيرة المشهورة [٣] والحمَّة العجيبة [٤] . وطبرية فى سفح جبل مطل على البحيرة ، وطول البحيرة إثنا عشر ميلاً وحمَّتها يقصدها المبرودون للاستشفاء [٥] ويكاد أن يُسْلَق بها البيض والجدا [٦] . وماؤها حلو ويخرج منها نهر الأردن . ومن عملها قَدَس ، وكان بها قديماً السَّواد وبَيْسَان ثم خرجا عنها [٧] .

وولاية « تِبْنين » ومنها هُونين [٨] . وهما حصنان منيعان بناهما الفرنج بعد الخمسمائة ، وهما من جبل عَامِلَة بين بانياس وصور [٩] .

وولاية « عَثْليث » [١٠] .

[٤٥٢] وولاية « عَكَّا » [١١] .

وولاية « صور » [١٢] . وشهرتهما تغنى عن ذكرهما .

وولاية « الشَّاغور » [١٣] .

وولاية « الإقليم » [١٤] .

---

[١] ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٧٢٩ ، الحميرى : الروض المعطار ٥٧١ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ٣ : ٢٨٤ .

[٢] ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٥٠٩ ، الحميرى : الروض ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ١٢٩ - ١٣٥ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٥١ .

[٣] راجع عن البحيرة ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ١٣٠ - ١٣١ ، العمرى : المسالك ١ : ٨٩ ، القلقشندى : صبح ٤ : ٨٣ .

[٤] راجع عنها ، نفسه ٣ : ١٣٠ ، نفسه ١ : ٨٩ ، نفسه ٤ : ٧٣ .

[٥] القلقشندى : صبح ٤ : ٧٣ .

[٦] فى الأعلاق ٣ : ١٣٠ : يسمط فيه الجلد ويسلق فيه البيض .

[٧] القلقشندى : صبح ٤ : ١٥١ و ١٥٥ .

[٨] ابن شداد : الأعلاق ٣ : ١٥٢ - ١٥٣ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٥١ - ١٥٢ .

[٩] القلقشندى : صبح ٤ : ١٥٢ .

[١٠] القلقشندى : صبح ٤ : ١٥٢ .

[١١] ابن شداد : الأعلاق ٣ : ١٧٢ - ١٧٦ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٥٢ .

[١٢] نفسه ٣ : ١٦٣ - ١٧١ ، نفسه ٤ : ١٥٣ .

[١٣] القلقشندى : صبح ٣ : ١٥٣ - ١٥٤ .

[١٤] نفسه ٤ : ١٥٤ .

وولاية « شَقِيف أُرْنُون » [١] . وعلى الشقيف قلعة حصينة يقاربها شقيف نيرون [٢] ، وهو حصن جله مغارة منيعة وما هى من صَفَد [وأهل هذا العمل رَافِضَة] [٣] .

وولاية « جينين » [٤] .

فهذه جملة أعمال صَفَد .

ومما يذكر فيها :

« حِيفَا » وهى خراب على الساحل [٥] .

و « قلعة كَوْكَب » وهى [التى] قال فيها العِمَاد الأصفهانى : راسيةٌ راسخة ، شمَّاء شامخة [٦] .

و « قلعة الطُّور » [٧] وهى مفردة على جبل الطور بناها العادل أبو بكر بن أيوب ثم غالَبه عليها الفِرنج فهدمها [٨] .

والقُدُس الشريف

الأرض المقدسة [٩] مشتملة على مدينة القدس وما حوله إلى نهر الأُرْدُنّ المسمى بالشَّريعة ،

---

[١] نفسه ٤ : ١٥٤ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ١٥٤ - ١٦٠ .

[٢] ابن شداد : الأعلاق ٣ : ١٥٩ - ١٦٠ .

[٣] القلقشندى : صبح ٤ : ١٥٤ وما بين المعقوفتين زيادة منه .

[٤] نفسه ٤ : ١٥٤ .

[٥] ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٣٨١ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ١٧٧ - ١٧٨ .

[٦] ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٣٢٨ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ١٦١ - ١٦٢ ، القلقشندى ، صبح ٤ : ١٥٥ .
وورد قول العماد فى الأعلاق وصبح الأعشى .

[٧] ياقوت : معجم ٣ : ٥٥٦ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ١٦٢ .

[٨] القلقشندى : صبح ٤ : ١٥٥ وراجع ابن واصل : مفرج الكروب ٣ : ٢٠٢ .

[٩] اكتسبت مدينة القدس مكانة خاصة عند المسلمين ، فهى أول قِبْلة ولّى المسلمون وجههم شطرها ، وهى ثالث الحرمين التى لا تشد الرحال إلّا إليها يفوقها فى ذلك مكة والمدينة .
وعندما نشأت الحركة الصليبية فى أواخر القرن الخامس =

إلى فلسطين المسماة بالرَّمْلَة طولاً ، ومن البحر الشامى إلى مدائن لوط عَرْضاً . غالبها جبال وأَوْدية ، إلَّا ما هو فى جنباتها [١] .

وأما مدينة « القُدُس الشريف » [٢] فعلى جبل مدينة مستديرة فى وسطها السور المحيط على « الصَّخْرَة » والمسجد المسمى الآن « المسجد الأَقْصَىٰ » [٣] ، وإنما حقيقة المسجد الأقصى جميع ما يحيط به السور المذكور وهو المعروف بالسور السليمانى . ويشرف عليها من شرقيها جبل أعلا منها يفصل بينهما الوادى المعروف بوادى جَهَنَّم ويعرف بالطُّور ، وبه إلى الآن بناء جليل رومى يقال إن منه كان صعودُ المسيح ، عليه السلام ، إلى السماء . وبهذا الوادى عَيْنُ سُلْوَان وهى تخرج من مكان فى الجبل الذى عليه بناء مدينة القدس ، ويجرى إلى داخل ذلك الجبل أَزْيَد من علوة نِشَاب تقديراً ، ثم يخرج من صَدْع فى الجبل إلى ساحة لطيفة فى انفراجه فى الجبل لا يرى إلَّا جدولاً جارياً ، والنَّبْع من داخل الصَّدْع ثم يَسْرح على وجه الأرض ويرمى إلى الوادى ويسقى المباقل . وماؤها قليلٌ ليس بالكثير .

= من الهجرة ، قادت مصر والمدن الشامية ، خاصة منذ عهد الأيوبيين وفى زمن خلفائهم ، قادت حركة تحرير فلسطين والأرض المقدسة من الاحتلال الصليبى .

وواكب هذه الحركة التحريرية ازدهار المؤلفات الخاصة بالتعريف بالأرض المقدسة فى فلسطين سواء منها ما جاء على نمط الفضائل ، وهو الذى يرجع فى أغلبه إلى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، أو ذو الطابع الطبوغرافى التاريخى الذى ازدهر ابتداء من القرن السابع الهجرى ، وبلغ ذروته فى القرن العاشر الهجرى بمؤلف مجير الدين العُلَيْمى « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » .

(راجع ، كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ٥٠٦ – ٥١٦ ، Sivan, E., « The beginnings of the Fada'il al-Quds Literature » in Israel Oriental Studies I (1971), pp. 263-271 ، مقدمة حَسُّون لكتاب « فضائل البيت المقدس » للواسطى (الجامعة العبرية ١٩٧٩) ، Grabar, O., EI², « al - Ḳuds », V, 321-345 .

[١] القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٢ .

[٢] القُدُس بضم القاف والدال لفظ غلب على مدينة بيت المَقْدس بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهملة . (نفسه ٤ : ١٠٠) .

وراجع ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٣٨ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ١٨٥ – ٢٣٨ ، الحميرى : الروض ٣٤٤ و ٥٥٦ – ٥٥٧ والكتب الخاصة بتاريخ بيت المقدس .

وعن آثار بيت المقدس راجع Marguerite Van Berchem et Solonge Ory, « La Jérusalem musulmane dans L'oeuvre de Max Van Berchem »,Lausanne 1978 .

[٣] انظر أعلاه ص ٦٣ وراجع Creswell, K.A.C., Early Muslim Architecture, I/1, pp. 65-131; 1/2, pp. 373-380 .

ومدينةُ القُدْس مبنية بالحَجَر والكِلْس ، وغالبُ حجرها أسود [١] . وهى وَعِرَة المسالك . وكان بها آثار [٤٥٣] قلعة قديمة خَرِبة جدِّدَت فى أيام هذا السلطان سنة عشرة وسبع مائة على يد بَكْتَمُر الجوكَنْدَار [٢] ، إذْ كان كافل الممالك ، ووجودها وعدمها سواء إذْ لا نَفْعَ بها ولا تحصين لها [٣] .

وبالقدس مَدَارِس وخانْقَاه ورُبَط وزوايَا وتُرَب . وللمسجد الأقصى بها وقوفٌ كثيرة جارية على مصالحه والمؤذِّنين به وخَدَمِه وجماعة من العلماء والقرَّاء به . وقد تقدَّم فى أوَّل هذا الكتاب على أن فى القُدْس لكل المِلَل مُعْتَقَدا وإليه توجُّهها ، وأن اليهود تزوره ، والنَّصَارى تحجُّ به قُمَامة وتزور كنيسة بيت لَحْم مكان مولد عيسى ، عليه السلام [٤] .

وقد كانت مدينة القدس ، بعد تولى أيدى الفِرِنْج عنها ، تغلَّب عليها الهَدْم والخَرَاب إلى هذه المدة القريبة ، انصرفت الهِمَم إلى عمارة أماكن بها ، وتوفَّرت الدواعى عليها ، ووفَّر نائب السلطان بالشام الآن الاهتمام بذلك ، وساق إليها قناة بَسَطَها إلى بركة ، هو مجتمع يرْفدها بالماء زمان قِلَّة الماء ، وتجرى إلى مدينة القدس وتدخل إلى سور المسجد الأقصى وتجرى به .

وعمَّر نائب السلطان إلى ما جاور الرباط المنصورى قلاون مدرسة جليلة وَقَفَها على مدرس وفقهاء ومتفقِّهَة على مذهب الإمام أبى حنيفة ، رضى الله عنه . وبأعلاها خَانْقَاه مشرفة ، وبحضرتها مكتب أيتام حَصَل له به الأجرُ التام وللناس الرِّفْق العام وأثَابَه الله وتقبَّل منه .

وعمَّر بها حمَّامين جليلين ، كانت أحْوَجَ شىء إليه ، لأنه لم يكن بها حمَّامات مرضية . ونشأ بها الأسواق والعمائر ، وأصبحت مدينة القدس ضاحية المرآى آهِلة الرِّحَاب ، وعادت إلى ما كانت إليه من التمدُّن بعد أن كانت لا تعدُّ من القرى ولا يَنْدى فى جوانبها الثَّرى .

---

[١] القلقشندى : صبح ٤ : ١٠١ .

[٢] الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار . (راجع فى ترجمته ، الصفدى : الوافى بالوفيات ١٠ : ١٩٨ - ١٩٩ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٢ : ١٨ ، أبا المحاسن : المنهل الصافى ١ : ٣٤٨ و ، الدليل الشافى ١ : ١٩٤) .

[٣] القلقشندى : صبح ٤ : ١٠١ .

[٤] المصدر نفسه ٤ : ١٠٢ وانظر أعلاه ص ٦٣ و ٧٥ .

وأمّا بَلَدُ « الخَلِيل » عليه السلام [١] ، وهى مَزْرَعة إبراهيم ، فإنها بلْدَة غير مسوَّرة على نحو يومٍ من القُدْس بالسير المعتاد [٤٥٤] وهى منطوية بين جبال ، لا هِىَ فى صحراء ولا فى واد ، وهى قرية أم عمل ، ولولا مكان الخَليل ، عليه السلام ، بها لم تُذْكر فيما يُذْكر ، وأنما عادت عليها بركات ذلك المثوى الكريم ، فَباهَتْ الأقطار بفضلها ، وتاهلت الأمصار بأهلها . وأجرى بَكْتَمُر الجُوكَنْدَار [٢] ، قبل أن يكون كَافِلَ الممالك ، إليها عَيْن ماء كانت على بُعْدٍ منها . ولقد شاهدت بها الماء جارياً فى طبقة عليَّة يُصعَد إليها من نحو عشرين درجة فى العلو . و [قبر] الخليل [٣] ، عليه السلام ، بها يحيط به سورُ هو داخل ذلك المُسَوَّر ، ولا يصحُّ مكان القبر به على التخصيص . وبه سِرْدَاب الخليل ، المنسوب إليه ، داخل ذلك السور يُوقَدُ عليه قنديل ، ولهذا يقول العامة : صاحب السرداب والقنديل ، وقد أشَرْنا إلى ذلك فيما تقدَّم [٤] .

والكَرَكُ

مدينةٌ [٥] ذات قلعة تعرف بكَرَك الشَّوْبَك ، والشَّوْبَكُ أقدم منها . والكَرَكُ مدينةٌ محْدَثَة البناء كانت دَيْراً بتدَيَّرة الرهبان ، ثم كثروا فكَبَّروا بناءَه وكَثَّروا أبناءَه ، وأوى إليهم أناس من مجاوريهم من النصارى فقامت لهم به أسواق ودارت لهم به معايشُ ، وأوَتْ إليه الفِرِنج فأدارت أسوارَه فصار مدينةً مشهورة ، ثم بَنَوْا حِصْنَه فكانت قلْعةً مذكورة ، فاستولى عليها الفِرنْج حتى

---

(١) تعرف أيضاً بَحْبرون راجع ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٤١٨ ، ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٢٣٩ - ٢٤٢ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٠٢ - ١٠٣ ، وانظر زيارة المؤلف لها سنة ٧٤٥ فى المسالك ١ : ١٧٠ - ١٧٣ وذكرها الحميرى : الروض ١٨٦ تحت جيرون وعلّق على ذلك القلقشندى بأن ما ذكره الحميرى يدل على إبدال الحاء بجيم والباء الموحدة بمثناه تحت (صبح ٤ : ١٠٢) ، بينما اعتبره محقق الروض من أوهام الحميرى .

(٢) انظر أعلاه ص ١٣٨ هـ٢ .

(٣) العمرى : مسالك الأبصار ١ : ١٦٨ .

(٤) العمرى : مسالك الأبصار ١ : ١٦٩ حيث يذكر زيارته له .

(٥) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٢٦٢ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ٣ : ٦٩ - ٧٩ ، الحميرى : الروض ٢٠٢ - ٢٠٣ و ٤٩٣ ، العمرى : التعريف ١٨٣ - ١٨٤ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٥٥ - ١٥٦ ، ولمحمد أحمد بخيت : مملكة الكرك فى العهد المملوكى (رسالة ماجستير بالجامعة الأمريكية فى بيروت ١٩٦٥) .

فُتِحَ فى زمان السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبى المُظَفَّر يُوسُف بن أيُّوب ، رحمه الله تعالى [١] .

وهو فى مكانٍ صَعْبِ المُرْتَقَى لا تلين عَقَاربُ صخوره للرقىِّ ، قد زَاحَم الشعرى العبور بمَنَاكِبِه ، وعَلاَ فى السماء فألقى الهلال ثقل راكبه ، وقَعَد من البر المَقْفِر على نَشْزٍ عالٍ لا يبلغه النسر إلَّا محلِّقاً ، ولا يغدو مصباح الصباح إلَّا على شُرُفَاتها معلقاً . فلهذا اتَّخَذَته الملوك لمَالِهَا حِرْزاً ولمالها كَنْزاً . ولم يَزَل لأولاد السلاطين فى الأمور ملجأ ومن الدهر منجا [٢] .

وماؤها من مَطَر السماء ، وله وادٍ تتفجَّر عيونه بالماء ، وهو [٤٠٠] بلدٌ خصبٍ وإقْبال ومنْبَتُ زرعٍ ومسرحُ مال ، وفيه يقول القاضى الفاضل : « وكان الكَرَكُ شجىً فى الحناجر وقَذَىً فى المحاجر ، ورصد الطرقات المسلوكة وصبر فى السُّبُل المشكوكة ، قد أخَذَ من الأمال بمخنقها ، وقَعد بأرصاد العزائم وطرقها ، وصار ديناً للدَهر فى ذلك الفجر ، وعُذْراً لتارك فريضة الله من الحج ، وجلس من هام الإسلام مكان عمامته وجَثَم على أنفاس الحجاز فلم يدع نفَساً يصعد من تهامته فواديه من مائل المعاقل بمجمعها ، وظلّه من نجوم الأسنة بمطلعها ، وهو والشَّوْبَك سر الله الآخر كبيت الواصف للأسدين :

ما مَرَّ يومٌ إلَّا وعندهما لحمُ رجالٍ أو يولَغَان دَمَا

وكفى إشارة أنه مكان الغزاة ومقرها ، ومُستَوْدَع الفريضة ومستقرها ، مجاورته لتَبُوك وغزاتها آخر الغَزَوات النبوية ، وإلى طريقه انتهت الخُطَا الحميدة المحمدية ، والعمل على آخر الأعمال الشرعية ، والوقوف عنده إشارةٌ لا تَخْفَى على الأفْهَام اللوذعية . وتَحِفُّ بهذه القلعة مدينة قد عَقَل الجبل حبوتها ، وأزْلق الغراب أن يطأ ذروتها ، وعَصَم سوار الوادى الملوك معصمها ، وحَمَت غرَّة الوادى المطلّ أدهمها ، فمنكبها حاطم والله يحطِّمه ، وفمها من نَدَى الغَمَام راضعٌ ومهد المنجنيق يعظمه ، وهصروه هصرة فإذا البلد قائمٌ على عروشه بل طريحٌ على نعوشه ، قد

---

[١] ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٦٩ - ٧٠ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٥٥ - ١٥٦ .

[٢] القلقشندى : صبح ٤ : ١٥٦ .

محيت سلّة دنانيرِه من الدور فما يتعامل بالسكن فيه أهل الغرور ، وصار كل مذْبَح فى الكنيسة مربطا ، وكل مصعد من قلّه مهبطا ، وكل مسقط رأس بالحقيقة لرأس مُسْقِطاً » .

وفيه يقول أيضاً : « ومما فتحه الله على سُلْطَاننا بلاد الكَرَك ، وما أدراك ما هو ، قلعةٌ كانت على الإسلام أيَّة مَضَرَّة ، بل كانت لكعبة الإسلام زادها الله شرفاً أيَّةُ ضرَّه . وإن نِعَم الله لأكثر من أن يُقْصَر لها حديثاً ، وأنَّ الله قد أغْشَى ليل الشِّرْك [٤٥٦] نهار الإسلام بطلبه حثيثا ، وما أشُكُّ فى أن أهل الحَرَم الشريف مع الرُّمَاة رماة بسهام الأسحار ومجاهدون ، وبالمجاورة ما خرجوا ولا بعدا عن البيكاد ، وكُلاً وَعَدَ الله الحُسْنَى » .

والشَّوْبَكُ

المنسوبُ إليه الكَرَك مدينةٌ صغيرة [١] أكثر فى البرِّ دخولاً منها وانحرافاً إلى التغريب فى القِبْلة عنها . ذات أكواب من جَدَاول الأنهار موضوعة ، وسُرُرٍ من مقاعد الأبْرَاج مرفوعة وفاكهةٍ ، كما قال الله تعالى فى الجَنَّة غير مقطوعة ولا ممنوعة [٢] .

قلت : والشَّوْبَكُ فُتِحَ وقت فتوح الكَرَك بعد أن دام الحِصَار سنتين على الكَرَك ، وأقْطَعَهما الملك الناصر لأخيه الملك العادل ولم يزالا فى يده حتى أعطاهما لولده الملك المعظَّم عيسى ، فصَرَف إليهما العناية حتى ترك الكَرَك مدينة تعنى بنفسها وزادها تحصيناً وتحسيناً ، وجَلَب إلى الشوبك غرائب الأشجار حتى تركها تُضَاهى دِمَشْق فى روائها وتَدَفُّق مائها ، وتزيد بطيب هوائها [٣] .

---

[١] ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٣٣٢ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ٣ : ٨٠ - ٨١ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٥٦ - ١٥٧ ، Honingmann, E., EI², art. « al - Shawbak », IV, p. 352-53 .

[٢] يقصد الآية : (وفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ ولا مَمْنُوعَةٍ) [الآية ٣٢ - ٣٣ سورة الواقعة] .

[٣] ابن شداد : الأعلاق ٣ : ٨٠ ، القلقشندى : صبح ٤ : ١٥٧ والثلاثة ينقلون من مصدر واحد .

قلت : وذكر ابن جرير كُورَة الجبال فقال : وقد أُحدِثَت بها مدينة تسمَّى الكَرَك . وقال البَلاَذُرى [١] فى كتاب « فتوح البلدان » : مدينةُ هذه الكورة العَرَنْدَل [٢] .

وأمَّا أعمال الكَرَك فهى أربعة :

« زُغَر » وهى مدينةٌ قديمة حارَّة متَّصلة بالبادية وبها نبْلٌ جيِّد [٣] .

و « مُعَان » وكانت مدينةٌ قديمة خربت هى وعملها [٤] .

و « مُؤْتَة » وهى باقيةٌ ووقعتها معروفة ، وبها قبرُ جعفر بن أبى طالب ، عليه السلام [٥] .

و « الشَّوْبَك » وهو مُحْدَثٌ كما ذكرنا .

وغَــزَّة

وهى مدينةٌ [٦] بين مصر ودِمَشْق بها دُفِن هاشمُ بن عبد مَنَاف ، وبها وُلِدَ الشَّافعىُّ ، رحمه الله .

وهى مبنيةٌ بالحَجَر والكِلْس موثقة البناء على نَشْزٍ عالٍ على نحو ميل عن البحر الشامى . ذات هواءٍ صحيح ، وماءٍ مُصَرِّفٍ هَاضِمٍ لا يُسْتَلَذّ ، وشُرب أهلها من الآبار ، ولها مجمع للمَطَر يدوم به ماءُ الشتاء لكنه يُستقَلّ . [٤٥٧] ولها فواكه كثيرة أجلّها العِنَب والتِّين [٧] . وبها مارستان بناهُ هذا السلطان ، أثابه الله ، أحْوَج ما كانت المارة إليه فى مكانه . وبها من المَدَارِسُ والتُّرَب ما ازدانت به .

---

(١) قارن البلاذرى : فتوح البدان ١٣٣ .

(٢) فى الأصول بالعين المعجمة تصحيف ، وفى معجم البلدان ٣ : ٦٧٥ بالعين المهملة ، وكذلك ضبطها الدكتور سامى الدهان فى الأعلاق الخطيرة ٦٧ .

(٣) القلقشندى : صبح ٤ : ١٥٧ وفيه أنها سميت بزُغَر بنت لوط عليه السلام .

(٤) المصدر نفسه ٤ : ١٥٧ .

(٥) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ٣ : ٦٨ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٧٩٩ ، الحميرى : الروض المعطار ٤٢٨ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ٣ : ٢٦٤ - ٢٦٦ ، القلقشندى : صبح ٤ : ٩٨ - ٩٩ وانظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٦٠ - ٦٢ .

(٧) القلقشندى : صبح ٤ : ٩٨ .

Et Ghazza

وهى نيابةٌ جليلة ، وبها طائفةٌ من العَسْكَر والعرب والتُّرْكُمَان ، وهى آخِذة من البرِّ والبحر بجانبيها متَّصلة بتِيهِ بنى إسرائيل ، فى قبليها موضع زَرْعٍ وماشية ، وموضع مجْمع حاضرة وبادية ، وقراية أهلها عُشْرَان بعضهم عدوٌّ لبعض ، لولا مَهَابة الدولة لما خَمَدَت فيها نار ولا ألَمَّ فيها بالجفون غرار ، لا يطمئن فيها ساكن ولا يستقر ظاهر ولا باطن (١) .

وممَّا استجدَّ مضافاً إلى هذه المملكة فهى البلاد الجهانية ، ومحلُّ النيابة بها مدنية « إيَّاس » وهى الآن عامرة آهلة وكذلك « كاوره » و « اسفندكار » ونصف « المصِّيصَة » لأن الذى استقرَّ للمسلمين هو كل ما هو إلى هذه الجهة الشامية من جهان ونصف اذنه منه ونصفها الآخر قاطع جهان من جهة الأرمن فهو لهم . وأمَّا ما خرَّبه المسلمون وبقى عمله لهم فهو الهارونية وحُمَيْص وتل حَمْدُون والنقيّر ، وكل ذلك من دون جَهَان إلى الشام . وكذلك مما استجد قلعة جَعْبَر وهى شرقى الفرات ، وقلعة دَرَنْده وهى قاطع بهسنى إلى الروم .

فهذه جملة هذه المملكة

فائدةٌ جليلةٌ تتعلَّقُ بِذِكْرِ غزَّة

قالوا : يجوز أن يكون اسمها مأخوذاً من الغز ، والغز الشَّدَق وهما غزان ، سمِّيت بذلك لأنها فى فم الشام مما يلى شقه البحرى . أو يكون مأخوذاً من قول العرب : أغزت البقرة فهى مغز إذا عسر حملها ، سمِّيت بذلك لعُسْر السَّيْر إليها على الناس والدَّوَاب للرمل المتاخم لها . وتعرف فى القديم بغزة هاشم ، سمِّيت بهاشم ابن عبد مَنَاف (٢) ، جد رسول الله ﷺ ، وإليها كانت رحلة قُرَيْش – وهى إحدى الرحلتين المذكورة فى القرآن رحلة الشتاء والصيف ، وهى الصيفية منهما – وكان عليها حِصْنٌ منيع قد بقيت منه بقية إلى الآن [٤٥٨] هَدَمته قَيْسٌ لما جاء إليها بعض قبائل اليمن . وفيها يقول أبو عامر السُّلَمِى فى قصيدته المسمَّاة بالذاهية ، وهى ثلاث مائة بيت ، يهجوا بها اليمن ويذكر مَثَالبهم من القرآن والأخبار ويذكر مَنَاقِب قريش :

---

(١) المصدر نفسه ٤ : ٩٩ .

(٢) راجع ، النويرى : نهاية الأرب ١٦ : ٣٣ – ٣٨ ، الزركلى : الأعلام (ط . رابعة) ٨ : ٦٦ وفيه أن لصدر الدين شرف الدين كتاب « هاشم وأمية فى الجاهلية » طبع .

ونحن المُوقِدُون على حرورى   ونحنُ لحِصْنِ غَزَّة هادِمُونَا

وفى غَزَّة قبرُ هاشم بن عبد مَنَاف ، وكانوا أربعة إخوة : هاشمٌ هذا وقبره بغَزَّة ، ثم مات بعده أخوه عبد شَمْس وقبره بمكَّة بالحَجُون ، ثم مات بعدهما أخوهما نَوْفَل بطريق العراق بمَوْضِع يقال له سلمان وقبره هناك ، ثم مات بعده أخوه المُطَّلِب بأرض اليمن فى مَوْضِع يقال له رَدْمَان وقبره هناك . فهؤلاء بنو عبد مَنَاف الأربعة .

تَتِمَّة فى ذكر سبب سفرهم الموجب لموت من مات منهم غريباً

اتَّفقوا على أنه كان لعبد مناف خمسة بنين وهم سادَةُ قُرَيْش كلّها : هَاشِم والمُطَّلِب ونَوْفَل وعبدُ شمس وأبو عمرو ، (١ وكان يقال لهاشم والمطلب البدران ، ولنوفل ولعبد شمس الأزهران ١) ، وأبو عمرو مات صبياً فلم يكن له خبرٌ مع إخوته . وكانت العربُ وقُرَيْش كلُّها تسمِّى بنى عبد مناف هؤلاء الأربعة « قُدَّاح النَّضَار » لشرفهم وجمالهم وبَهائهم . وكانت قريش كثيرةُ التجارة ، إلَّا أنهم كانوا لا يخرجون من مكة والحجاز ، وكانت الأعاجم تأتيهم بالبضائع فيشترون منهم ويبيعون لهم ، فأقاموا على ذلك زماناً طويلاً حتى ركب هاشم بن عبد مَنَاف فخرج إلى الشام فنزل بقيصر ، ملك الروم ، واسم هاشم يومئذ عمرو [٢] المعلى ، فكان يذْبَح كل يوم شاة ، ويصنع جفنة ثَرِيد ويجعل اللحم عليها أوصالاً ويدعوا من حوله فيأكلون معه . وكان هاشم من أحْسَن الناس وَجْهاً وأكرمُهُم أخلاقاً ، فقيل لقيصر : ها هنا رجلٌ من قريش يُهَشِّم الخبز ويصب عليه المَرَق [٤٥٩] ويجعل عليه اللحم ، وإنما كانت العَجَم تجعل المَرَق فى صِحَاف واللحم فى المَرَق ويأْتَدِمون بذلك ، ولم يكونوا رأوا الثَّريد فسمى هاشم « بهشيم الثريد » . وفيه يقول شاعرهم بمكة :

عمْرو العلى هَشَّم الثَّرِيدَ لقَوْمِه   ورجَالُ مكة مُسْنِتون عِجَافُ

وهو أول من فعله من العرب والعجم . فدعاه قيصر ، فلما رآه وكلَّمه أعجبه إعجاباً عظيماً ، فقال له هاشم : أيها الملك إن لى قوماً هم تجَّار العرب ، فإن رأيت أن تكتب لى كتاباً تؤمِّنهم فيه على أنفسهم وما معهم من المال والبضائع وغير ذلك ، فإنهم يَقْدُمون عليك بما تستظرفه من أدم الحجاز وثمره وغير ذلك مما يصير إليهم ولا يبلغك من طرف البلاد . فأمر أن يُكْتَب له كتاب جامعٌ للعرب ، وأخذه هاشم وسار فصار كلَّما جاء حيَّاً من أحياء العرب على طريق الشام أَخَذَ من أشرافهم إيلافاً – والإيلافُ أن يأمنوا عندهم وفى أرضهم على أنفسهم وأموالهم – وأخذ هاشمٌ الإيلاف من جميع القبائل ممن بينه وبين الشام حتى قدم مكة

(١ - ١) ساقطة من ت .   (٢) ت : عمر .

فأتاهم بشيء لم يأتهم بمثله أحدٌ قط ، فسرُّوا بذلك سروراً عظيماً وخرجوا بتجارة عظيمة ، وخَرَج هاشمٌ معهم يحوطهم ويؤمِّنهم ويَجْمَع بينهم وبين رؤساء العرب فى جيمع طريقهم حتى وَرَدَ بهم الشام فأحَلَّهم غزَّة . ومات هاشم فى ذلك السفر فدُفِن بغَزَّة .

ثم خَرَج أخوه المُطَّلِب إلى اليمن ففَعَل كفِعْل هاشم بالشام وأخذ من ملوك اليمن عهداً لمن يجيء ويسافر إليهم من قُرَيْش . ثم أقبل يأخذُ الإيلاف ممن يمر به من العرب حتى أتى مكة ، كما فعل هاشم ، وكان المُطَّلب أكبر ولد عبد مَنَاف وكان يُسَمَّى « الفَيْض » لكرمه . وهلك المطلب برَدْمَان من أرض اليمن فى سَفْرة سَافَرَها .

وخَرَجَ عبد شمس بن عبد مَنَاف إلى ملك الحَبَشَة فأخذ منه كتاباً وعَهْداً لمن يجيء من قُرَيْش ورَجَع يأخذ [٤٦٠] الإيلاف من كلِّ مَنْ مَرَّ به من العرب من بلاد الحبشة إلى أن أتى مكة - كما فَعَل هاشم والمطلب - فمات بمكة وقبره بالحَجُون ، وكان أكبر من هاشم .

وخَرَجَ نوفل بن عبد مناف - وكان أصغر إخوته - إلى العراق فأَخَذَ عَهْداً من كِسْرَى ، ثم عاد يأخذ الإيلاف إلى أن أتى مكة . ثم رجع تاجراً إلى العراق ، فمات بسلمان فى طريق العراق .

تنبيه : البيت المقدم ذكره اختلف فيه ، وأصَحُّ الروايات أنه لابن الزِّبَعْرَى [١] - والزِّبَعْرَى فى اللغة القصير الأذن الكثير شعر الأذنين والرأس وفيه قِصَر وغِلَظ - وهو من قصيدة له فى هاشم وإخوته على إقواء فى البيت الآخر منها وهى :

يا أيُّها الرَّجُلُ المحَوِّلُ رحْلَهُ ... هَلاَّ مَرَرْت بآل عبد مَنَاف
هبلتك أمك لو مررت بدارهم ... لجموك من جوع ومن اقراف
المطعمون إذا الرياح تناوحت ... والظاعنون لرحلة الإيلاف
والآخذون العهد من ألفافها ... والناهشون لمقدم الأصناف
عمرو العلى هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة منستون عجاف

امالى ابن المرتضى ٢ : ٢٦٨

[١] ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ٢٣٥ - ٢٤٣ .

[الرَّمْلَة]

قلت : وهذه خاتمة فى ذكر الرَّمْلَة [(١)] ، جرَّ الكلامُ إليها قربها من غزَّة . يقال إن الذى أحْدَثَها سليمان بن عبد الملك بن مَرْوان ، وإن مدينة فِلَسْطِين كانت قبلها له ، وإن سليمان ولِيَها من قِبَل أبيه وهو صبى ، وكان معه من قِبَل أبيه من يدَبِّره ويشير عليه ، والاسم فى الإمارة لسليمان . وكان إلى جانب كنيسة لُدّ بستانٌ حَسَن العمارة مليح الموضع كثير الفواكه ، وكان سليمان كثير ما يستحسنه ويجلس فيه ويستطيبه ، فقال يوماً للشيخ الذى يرجع إلى رأيه – وكان يسمَّى رجاء بن حيُوه – : أحب أن تشترى لى هذا البستان حتى أبنى فيه من الأبنية ما يصلح لمثلنا . وكان البستان للقسيس الذى يتولَّى أمر الكنيسة ، فأحضره رجاء وقال [٤٦١] له ذلك ، فقال : سَمْعاً وطاعة احضرنى القاضى والشهود حتى أشهد على نفسى بذلك وأفرغ منه الساعة ، فأحضرهم وحَضَر القسيس فقال لهم جميعاً : ألستم تعلمون أن هذا البستان لى وفى ملكى ويدى لا مانع لى ولا مُعَارض لى فيه ؟ فقال له القاضى والشهود : نَعَم ، يريدون بذلك تصحيح المِلْك ليصِحّ البيع . فقال لهم : اشهدوا الآن أنّى قد حَبَسْته على الكنيسة حبْساً بتا نعايلا [كذا] لا رَجْعة لى فيه ولا مثنوية فيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فسَقَط فى أيديهم وتمَّ مكره وعَظُم ذلك على مَنْ حَضَر ، وهمَّ سليمان بقتله فمنعه من ذلك رجاء ورَفَق به وشَاغَلَه وقال له : سِرْ بنا نتفرّج ونُبْرِم أمراً يكون فيه هلاك الكنيسة وغيرها ، فركب وأمر سليمان أن لا يتبعهما أحد . فلما فَصَلا من لُدّ رأيا بيتاً من الشَّعْر مضروباً على رَبْوَة من الأرض – هى الآن موضع المُصَلَّى – وكان الحرُّ قد اشتدَّ فقال له رجاء : اعدل بنا إلى هذا البيت لننظر مَنْ به ونريح فيه إلى أن يَبْرُد النهار ، فقربا من البيت وسَلَّما على مَنْ فيه ، وهم لا يريان أحد ، فبَرَزَت لهما امراءة ذات بُرْقُع ردَّت عليهما السلام بأحسنِ ردٍّ ولفظ ، وسألتهما النزول عندها بلسان فَصِيح وعَزْم صحيح ،

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٨١٧ – ٨٢٠ ، الخطيرة ٣ : ١٨١ – ١٨٤ ، القلقشندى : صبح ٤ : الحميرى : الروض المعطار ٢٦٨ ، ابن شداد : الأعلاق ٩٩ – ١٠٠ .

فنزلا وسألتهما أن يتخفَّفا ويستريحا عندها وأعجبهما فِعْلها ، ونَسَى سليمان أمر البستان إعجاباً بكرمها وعقلها وسألاها عن اسمها فقالت : رَمْلَة وعرَّفتهما أن لها بعلاً فى ماشية اسمه لُدّ وعَرَضَت عليهما الغداء واللبن وقالت : عندى اللَّبَن الحلو واللَّبَن الحَامِض والخبز الحار البارد ، لأن إيثارى يخالف إيثار بعلى فى الطعام وأنَّ أعُدُّ له ما يؤثر وأعد لنفسى ما أشتهيه ، وقدَّمت لهما من كل شيء من ذلك وثردت لهما وقد ذُهِلاَ من حُسْنِها وجَمَالِها وأَدَبِها وحُسْن فِعْلِها فى جميع ما تحاوله ، وأَقْسَمَت عليهما ليأكلان وقالت : لو جاز لى أن آكل معكما لَفَعَلْت والطعام يدعوا الكرام [٤٦٢] إلى نفسه ، فأكلا ونظرا إلى ما حول البيت من الشجر والضِّياع وغير ذلك ، فاستحسنا الموضع وإشرافه على ما حوله من العمارة فقال رجاء لسليمان : لو أَمَرْت ببناء دير هاهنا للنَصَارى ومسجد للمسلمين ، وأمرت فى النداء بالناس : مَنْ أحب أن يكون فى حمىً من المسلمين والنصارى فليبن داراً إلى جنب مسجده وديره لصارت مدينة ولتعطَّلت الكنيسة بالدير ، وهذا الموضع أحسن من موضع لُدّ وأعلا ففعل ذلك .

وتبادر الناس من كل أَوْب من المسلمين والنصارى يخطُّون المنازل والقصور على قَدْر هِمَمِهم ونِعَمِهم . وكان سليمان خط مسجداً صغيراً وداراً للإمارة لطيفة ، فقال له رجاء : غير هذا فإنها ستكون مدينة عظيمة فخُطّ جامعاً كبيراً وداراً واسعةً ، وهو هذا الجامع وهذه الدار المعروفة بدار الإمارة .

ثم إن سليمان أراد هَدْم الكنيسة وأَخْذ رُخَامها وعُمُدها للجامع فراجعه رجاء عند ذلك وبَعَثَ إلى عبد الملك يخبره بما فعل القسيس من غَدْره ومَكْره ، وما فَعلاه من بناء المدينة والجامع . فكتب عبد الملك إلى ملك الروم – وكان الإسلام فى ذلك الوقت ظاهراً على الروم – فأَنْفَذ ملك الروم إلى عبد الملك من دلَّه على مَوْضع أخرج منه عمدا لم يرْ مثلها فى الاعتدال والحُسْن ، وأخرج معها رخاماً منشوراً وغير منشور ما كفى الجامع وفضل عنه ، يقال إنه كان فى ضَيْعَة من الداروم – داروم غزَّة – يقال لها عموداً . وكان أكثر ما نال النصارى من ذلك أن

ملك الروم ألزمهم نَقْل العُمُد والرخام من عمودا إلى الجامع . وسمِّيت المدينة الرَّمْلة – باسم المرأة المقدم ذكرها – وأحسن سليمان إليها وإلى بَعْلِها [١] .

---

[١] القلقشندى : صبح ٤ : ٩٩ .
وإلى هنا انتهت نسخة باريس ونسخة دار الكتب المصرية ونسخة المكتبة التيمورية وهى الأصول التى قابلت عليها الباب السادس بالإضافة إلى نسخة أحمد الثالث ونسخة مكتبة السيد محمد المنوفى .

الباب السابع
فى مملكة اليمن

وفيه فصلان [١] . الفَصْلُ الأوَّل : فيما بيد أولاد رَسُول . [٤٦٣] الفَصْلُ الثانى فيما بيد الأشْرَاف .

واليَمَنُ إقليمٌ متَّسع ، وله ذكرٌ قديم . ذكر البَكْرى أن عَرْضَه ستَّ عشرةَ مرحلة ، وطولَه عشرون مرحلة [٢] ، المرحلة ستة فَرَاسِخ . وهو كرسى مُلْك التَّبَابِعَة من حِمْير ، وبه كانت سبأ ، وفيه كانت بَلْقيس وعَرْشُها المذكور فى القرآن الكريم [٣] . وحدودُه من القِبْلَة الموضع المعروف بطَلْحة الملك [٤] ، ومن الغرب حَاوَحَكَم ، ومن الشرق حَضْرَمَوت ، ومن الجنوب عَدَن .

وهو يشتمل على عدَّة بِلاَدٍ وقِلاَعٍ وحُصُونٍ حصينة . ولكن مُدُنَه يفصل البرُّ ما بين بعضها عن بعض [٥] .

وبلادُها مختلفة : نُجُودٌ وتَهَائِم . فالنجودُ باردة الهواء طَيِّبة المَسْكَن [٦] . والتَهَائِم حارة شديدة الحرّ [٧] .

---

[١] نَشَرتُ هذا الباب فى القاهرة ، دار الاعتصام سنة ١٩٧٤ . وألْقَيْت عنه كلمة فى مؤتمر المستشرقين التاسع والعشرين الذى عقد فى باريس (١٦ – ٢٢ يولية ١٩٧٣) نُشِرَت فى أعمال المؤتمر راجع ، Actes du XXIX Congrès International des Orientalistes, Etudes Arabes et Islamiques, I - Histoire et Civilisation, Vol. 3 (Paris - L'Asiathèque 1975), pp. 177-181 .

[٢] القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٦ .

[٣] الآية (إنِّى وَجَدْتُ امْرَاءَةً تمْلُكُهم وأوتِيتَ من كُلِّ شَيْءٍ ولها عَرْشٌ عَظِيم) ، الآية ٢٣ سورة النمل .

[٤] طَلْحَة المَلِك . اسم واد باليمن هو الحد ما بين عمل مكة وعمل اليمن . (الهمدانى : صفة جزيرة العرب ٤٢١) .

[٥] القلقشندى : صبح ٥ : ٨ .

[٦] النجود . ما ارتفع من الأرض .
وعند القلقشندى : صبح ٥ : ٣٧ ، قال فى « مسالك الأبصار » : وهى شديدة الحر .

[٧] التهائم . ما انخفض من الأرض .
وعند القلقشندى : صبح ٥ : ٨ ، قال فى « مسالك الأبصار » : وهى باردة الهواء طيبة المسكن .
وواضحٌ أن القلقشندى خَلَط فى النقل عن العمرى بين صفة النجود وصفة التهائم .

وقاعِدَة الملك بها : « تَعِز » [١] و « زَبِيد » [٢] . وتَعِز من النجود مبنية على جَبَلٍ شاهق ، وزَبِيد من التهائم مبنية فى وطاءة .

واليمنُ مفرَّق المُلْك ، بعضه بيد الشُّرَفاء المطيعين لإمام الزَّيْدِيَّة لا يطيعون إلَّا لأئمتهم القائمين منهم إمامٌ بعد إمام . وقَاعِدَة مملكته « صَنْعَاء » [٣] . وبعضُه بيد أَكْراد عُصَاة على ملوك اليمن . وبعضُه بأيدى عرب لا تطيع . وهذا الكلام عليها جُملياً فلنتكلم عنها تفصيلاً .

---

[١] تَعِزّ . بلدة مشهورة باليمن فى الجهة الجنوبية الغربية من صنعاء على مسافة ثمانية أيام منها ، وهى مقابلة للجَنَد من جهة الغرب على بضع ساعات ، وواقعة فى سفح جبل صَبَر . (فؤادسيد : طبقات فقهاء اليمن لابن سمرة ٣٠٩) .

وزارها ابن بطوُّطة فى عهد الملك المجاهد الرسولى وقال عنها : « حضرة مُلْك اليمن ، من أحسن مدنها وأعظمها ، وأهلها ذوو تجبُّر وتكبُّر وفَظَاظَة » .

(ابن بطوطة : الرحلة ١ : ١٩٢ ، القلقشندى : صبح ٥ : ٨ - ٩ ، (Grohmann, A., EI, art. « Ta‘iz » IV .pp. 655-657

[٢] زَبيد . كأمير وادٍ مشهور من أودية اليمن يصُبّ فى البحر الأحمر . وإليه تنسب المدينة التى أسَّسَها محمد بن زياد ، مؤسس الدولة الزيادية سنة ٢٠٤ هـ . (فؤادسيد : المصدر السابق ٣١٧ ، القلقشندى : صبح ٥ : ٩ - ١٠ ، طاهر مظفَّر العميد : « بناء مدينة زبيد فى اليمن » ، مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد ١٣ (١٩٧٠) ٣٤٠ - ٣٦٠ ، Chelhod, J., « Introduction à l’Histoire Sociale et Urbaine de Zabid », Arabica 25 (1978), pp. 48-88; Strothmann, S., EI., art. « Zabid », IV, . pp. 1249

[٣] عن صنعاء انظر فيما يلى ص ١٦٥ .

الفصل الأول
فيما بيد أولاد رسول

فأما [١] معظم اليمن فمَعَ تَعِزّ وزَبِيد ، وصاحبُها هو المشار إليه إذا قيل : صَاحِبُ اليمن .

وأخبرنى بجُمْلة ما أُذْكر من أحوالها : أبو جعفر أحمد بن محمد المَقْدِسِى عُرِف بابن غَانِم [٢] ، وكان من كتَّاب الإنْشَاء بمصر ودمشق ، ثم دَخَل اليمن وخَدَم بها صاحبها إذ ذاك الملك المُؤيَّد داود بن عمر [٣] رحمه الله ، فى كِتَابَة الإنشاء واختصّ به . وأبو محمد عبد البَّاق

---

[١] لمعلومات أكثر عن تاريخ الدولة الرسولية فى اليمن راجع ، محمد بن حاتم اليامى : السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك من الغز باليمن (تحقيق . ج . ركس سميث GMS بيروت ١٩٧٤) ٢٠١ – ٥٦٨ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية (نشره محمد بسيونى عسل GMS القاهرة ، مطبعة الهلال ١٩١١) ، القلقشندى : صبح الأعشى ٧ : ٣٣٩ – ٣٧٠ ، ابن الديبع : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون (تحقيق محمد بن على الأكوع ، القاهرة ١٩٧٦) ، المقريزى : السلوك ١ : ٣٦٨ هـ ٣ ، محمد عبد العال أحمد : بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما (الإسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠) .
Smith, G.R., « The Ayyubids and early Rasulids, the transfer of power in 7^{th} / 13^{th} century Yemen », IC (1969), pp. 175-188; Van Berchem, M. Max, « Notes d'archéologie arabe (Monuments et Inscriptions Rassoulides) », JA, 2 série, t. III (1904), pp. 8-90; Iritton, A.S., EI, art. « Rasulides », III, p. 1206-1208 ، وأيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى ٣٥٩ – ٣٦١ و ٤٨٥ – ٤٨٦ .

[٢] شهاب الدين أبو جعفر أحمد بن محمد بن سَلْمَان ابن حَمَائل بن على بن معَلَّى بن طريف بن دُحَيَّة بن جعفر ابن أبى طالب ، الشهير بابن غَانِم الجَعْفَرى . ولد بمكة سنة ٦٥١ هـ وقيل فى سنة ٦٥٠ هـ ، وكانت وفاته بدمشق فى شهر رمضان سنة ٧٣٧ هـ . كان قد دخل اليمن وأحسن إليه الملك المؤيد داود وقرَّره فى كتابة السر عنده .
(راجع فى ترجمته ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٨ : ١٩ – ٢٤ ، ابن شاكر : فوات الوفيات ١ : ١٢٧ – ١٣٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ١ : ٢٨٢ – ٢٨٥ ، أبا المحاسن : المنهل الصافى ٢ : ١١٤ والدليل الشافى ١ : ٧٧ – ٧٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٦ : ١١٤) .

[٣] الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود بن عمر بن يوسف الرسولى تولى ملك اليمن سنة ٦٩٦ هـ وتوفى سنة ٧٢١ هـ .
(راجع فى ترجمته ، أبا الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٤ : ٩٣ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ١٠١ – ١٣٢ ، ابن شاكر : فوات الوفيات ١ : ٤٢٨ – ٤٢٩ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ١٠ : ٣٣ ، ذيول العبر=

ابن عبد المجيد اليمنى الكاتب [١] ، وجملة ما أذْكره عنهما . ولأُمَيِّزَ الآن قول كل واحدٍ منهما على التخصيص وهو :

أن صاحبَ اليمن يُصَيِّف بتَعِز ، ويُشَتِّى بزَبِيد . و « تَعِزُ » بلدٌ كثير الماء باردُ الهواء ، كثيرُ الفاكهة من العنب [٤٦٤] والرُّمَّان والسَّفَرْجَل والتُّفَّاح والخَوْخ والتُّوت والمَوْز والبَطِّيخ الأخضر والأصفر ، ويوجد به كثيرٌ من أنواع الفاكهة وإنْ كان قليل المقدار . فأما المَوْز واللَّيْمون والأُتْرُجُّ وما يناسبه فكثير إلى غاية [٢] . ويوجد بها كثيرٌ من الرَّياحين والزُّهور خلا البَنَفْسِج واللينوفر . وربَّما احتاج ساكنُها إلى لبس الفَّراء فى بعض أحيانها .

وأما « زَبِيدُ » فإنها شديدةُ الحرّ لا يَبْرُد ماؤها ولا هواؤها ، وهى أَوْسَعُ رُقْعة وأكثر بناءً ، ولها نهرٌ جار بظاهرها . وأما مَسَاكِن المُلْك [٣] فيهما فنهاية فى العَظَمة وفَرْش الرخام والسقوف المدهونة [٤] .

وأخِصَّاء الملك بها الخِصْيَان ، هم خاصَّته المقرَّبون ، وهو متوَفِّرٌ فى غالب وقته على لذَّاته والمُتْعة فى قصوره بجواريه وقيانه . وله أَرْبَابُ دولة ووظائف [٥] ، ينحو فى أموره مَنْحَى صاحب مصر ، يتسمَّع أخباره ويحاول اقتفاء آثاره فى أحواله ، وأوضاع دولته ، غير أنه لا يصل إلى هذه الغاية ، ولا تَخْفِقُ عليه تلك الرَّاية ، لقصور مَدَدِ بلاده وقِلَّة عَدَد أجناده [٦] .

أخبرنى أقضى القضاة أبو الربيع سليمان بن محمد بن قاضى القضاة الصدر سليمان الحَنَفى ، وكان قد توجَّه إلى اليمن وخَدَم فى ديوان الجيش به : أنَّ مجموع [٧] جُنْد اليمن ما يبلُغ

= ١٢٠ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ١ : ٢٩٩ – ٤٤٢ ، المقريزى : السلوك ٢ : ٧ و ٢٣٤ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٢ : ١٩٠ ، أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٨ : ١٠٩ و ٢١٧ و ٢٢٦ و ٩ : ٢٥٣ – ٢٥٤ والمنهل الصافى ٢ : ٨٦ ظ والدليل الشافى ١ : ٢٩٧ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ٢ : ٧٣ – ٧٧) .

[١] أبو محمد عبد الباقى بن عبد المجيد اليمنى المخزومى ، أحد أعلام كتاب اليمن فى القرنين السابع والثامن للهجرة . (انظر المقدمة) .

[٢] القلقشندى : صبح ٥ : ١٦ .

[٣] فى صبح : مساكن السلطان .

[٤] القلقشندى : صبح ٥ : ١٠ .

[٥] فى صبح : وله أرباب وظائف للوقوف بأموره .

[٦] القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٣٥ .

[٧] فى صبح الأعشى : جميع .

أَلْفَىْ فارس ، وينضاف إليهم من العرب الداخلين [١] فى طاعته مثلهم . وأرانى جَرِيدَتَه الموضوعة لذلك فوقَفْت على بعضها وضاق وقْتِى عن الاستيعاب ، وهى تَشْهَدُ بما قال [٢] .

وصاحبُ هذه المملكة أبداً يرْغَبُ فى الغرباء ويُحْسن تلَقِّيهم غاية الإحسان ، ويستخدمهم فيما يناسب كلّاً منهم ، ويتفقدَّهم فى كل وقت بما يأْخُذُ به قلوبَهم ويوَطِّنُهم عنده [٣] .

وغالبُ جنده من الغرباء [٤] ، وإذا دَعَت حاجةُ أحدٍ من جنده وغلمانه وأهل خِدمته أجمعين إلى شيءٍ وإن قلَّ ، كتب إليه قصَّة يسأله حاجته فيها ، فيوقِّع عليها بخطِّه بإجابته إلى ما سأله أو إلى بعض ما سأله [٤٦٥] على ما يرام [٥] .

وهو قليلُ التصَدِّى لإقامة رسوم المَواكب والخِدمة والاجتماع بولاة الأمور ببابه ، فإذا احتاج أحدٌ منهم إلى مراجعته فى أمْرٍ ، كتب إليه قِصَّة يستأمره فيها ، فيكتب عليها بخطِّه ما يَرَاه ، وكذلك إذا رُفِعَت إليه قِصَصُ المَظَالِم هو الذى يكتب عليها بخَطِّه بما فيه إنصاف الشاكى [٦] .

ورأيت علامة والد هذا السلطان القائم بها الآن على توقيع وهو على المُصْطَلَح المصرى ما مثاله [٧] :

الشَّاكِرُ لله على نعمائه

داود

ولصاحبِ هذه المملكة البساتين والمتنزَّهات الحسنة ، يتعَهَّدها فى الأحيان ، ويقيم بها للتنَزُّه بها . وهذا الملك لا ينزل فى أسفاره إلَّا فى قُصُور مبْنِيَّة له فى منازلَ معروفة من بلاده ، فحيث نزل فى منزلة وَجَد بها قصراً مبنياً ينزل به [٨] .

---

(١) فى صبح : المدافعين .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ٥ : ٣٤ .

(٤) المصدر نفسه ٥ : ٣٦ .

(٥) القلقشندى : صبح ٥ : ٣٦ .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٣٥ . وفيه : إنصاف المظلوم .

(٧) القلقشندى : صبح ٥ : ٣٥ .

(٨) القلقشندى : صبح ٥ : ٣٦ .

وباليمن الخَيْل العِرَاب الفائقة ، والبِغَال نوعان : سُرُوجِيَّة للركوب ، وحَبَشِيَّة للأحمال ، وبها الجمال والحمير وأنواع الدَّواب من البَقَر والغَنَم والطَّيْر من الإوَزّ والدجَاج والحَمَام وغير ذلك [١] .

وهى بلادٌ رخيه كثيرةُ الحبوب ، وأقلُّ حبوبها القمح والشعير ، وأكثرها الأُرُزّ والذُّرَة والسِّمْسِم [٢] . وبها العَسَل الكثير وأنواع المُقْل ، ووقودها السلبط وهو السَّيْرج ولا يوجد بها الزيت ولا الزيتون إلَّا إن جُلِب من الشام .

واليمن جميعُه كثير الأمطار ، ولا تَنْشأ به السُّحُب ، ويمطُرُ المطرُ من وقت الزوال إلى أُخْرَيَات النهار ، هذا وقت إمطارها فى الغالب [وأكثر مطره فى أُخْرَيات الربيع إلى وَسَط الصيف ، وهو إلى الحرّ أمْيَلُ] [٣] . وبها الأنهارُ الجاريةُ ، والمُرُوج الفِيحُ ، والأشجار المتكاثفة فى بعض أماكنها . ولها ارْتفَاعٌ صالحٌ من الأموال ، وغالب أموالها من موجات التجَّار الواصلين من الهند ومصر والحَبَشة ، مع ما لهَا من دَخْل البلاد [٤] .

وأما الإمْرَة بها فقد تُطْلَق على مَنْ ليس بأمير . وأما الإمْرَة الحقيقية التى تُرْفع بها الأعلام [وتضرب لها] [٥] الكُوسَات فإنها لَمْن قَلَّ ، وربَّما أنه لا يتعدَّى عدَّةُ الأمراء بها عشرةَ نفر [٦] .

وباليمن أربابُ وظائف [٤٦٦] من النائب ، والوزير ، والحَاجِب ، وكاتب السِّر ، وكاتب الجيش ، وديوان المال . وبها وظائف الشَّاد والولاية ، على ما قدَّمنا ذكره من أنه يتشبَّه بالأحوال المصرية [٧] .

---

(١) القلقشندى : صبح ٥ : ١٦ .
(٢) القلقشندى : صبح ٥ : ١٦ .
(٣) القلقشندى : صبح ٥ : ٦ - ٧ والزيادة منه نقلاً عن المسالك .
(٤) القلقشندى : صبح ٥ : ٧ .
(٥) زيادة اقتضاها السياق .
والكوسات . صنوجات من نحاس ، تشبه التُرس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ، ومعها طبول وشبابة . ويعرف الذى يضرب بهذه الصنوج النحاس بالكوسى . (القلقشندى : صبح ٤ : ٩ و ١٣) .
(٦) القلقشندى : صبح ٥ : ٣٤ .
(٧) القلقشندى : صبح ٥ : ٣٤ .

وباليمن « عَدَن » [١] وهى من أعظم المَرَاسى بها ، وتكاد تكون ثالثةَ تَعِزَّ وزَبِيدَ فى الذكر ولها قلعة السَّمَدان المشهورة بالمنعة العظيمة وبها قلعة [٢] . وهى خزانة مال ملوك هذا الإقليم [٣] .

* * *

وصاحبُ اليمن يُهادى صاحب مصر ويُداريه لمكان إمكان التسلُّط عليه من البحر والبرِّ الحجازىّ . وقد كان مَلِكُها الآن المُجَاهد على بن داود [٤] ، بعد موت أبيه المؤيَّد ، نَجَم عليه من أهله من جَاذَبَه رداء الملك ونَازَعَه فى سلطانه ، وأعان الناجم عليه كثيرٌ من مماليك أبيه وعَسْكر اليمن وأهله ، فأرْسَل إلى صاحب مصر السلطان الملك الناصر أبى المعالى محمد بن قَلاَوُن وصِيَّة كتبها الملك المؤيد ، صاحب اليمن ، قبل موته تتضمَّن أنه أوْصَى إلى السلطان الملك الناصر ، صاحب مصر ، على ولده المجاهد على ، وبَعَث يترامى عليه ومكَّن له فى اليمن وبَسَط يدَه فيه [٥] ، ثم عاد العَسْكر المصرى . وإن لم يكن هذا موضع هذا ولكنَّا ذكرناه تنبيهاً على تمَكُّن صاحب مصر من اليمن إذا قَصَدَه .

---

(١) عَدَن . راجع عنها ، ياقوت : معجم البلدان ، الحميرى : الروض المعطار ٤٠٨ ، فؤاد سيد : طبقات فقهاء اليمن لابن سمرة ٣٢١ ، ابن بطوطة : الرحلة ١ : ١٩٤ — ١٩٥ ، القلقشندى : صبح ٥ : ١٠ — ١٢ ، Lofgren, O., EI., art. « ‘Adan » I, pp.185-187 .

(٢) فى هامش نسخة ك : أظن يقال لها الدُّمْلُوة . والدملوه حصن فى شمال عدن يقع فى بلاد الحجرية شرقى الجند . (فؤاد سيد : المصدر السابق ٣١٤ ، القلقشندى : صبح ٥ : ١٣) .

(٣) العبارة مضطربة فى الأصول . وفى صبح الأعشى ٥ : ١٠ — ١١ : « قال فى « مسالك الأبصار » : وهى أعظم المَرَاسى باليَمَن ، وتكاد تكون ثالثة تِعزّ وزبيد فى الذِّكر ، وبها قلعة حصينة مبنية ، وهى خزانة مال ملوك اليمن » .

وعندما ذكر « حصن الدُّمْلُوَة » قال : « وهو خزانة صاحب اليمن ، ويضرب بامتناعه وحصانته المثل » . (صبح الأعشى ٥ : ١٣) .

(٤) الملك المجاهد على بن المؤيد داود ، ولى اليمن بعد وفاة أبيه فى سنة ٧٢١ هـ وتوفى سنة ٧٦٤ هـ .

(راجع فى ترجمته ، أبا الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٤ : ٩٣ — ٩٦ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ١٣٣ — ١٤٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٤ : ٢٣٧ و ٢٤٠ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ٢ : ١ — ١٢٦ ، الفاسى : العقد الثمين ٦ : ١٥٨ — ١٧٤ ، المقريزى : الذهب المسبوك ١١٤ — ١١٨ ، السلوك ٢ : ٢٣٤ و ٢٥٤ و ٨٦٨ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٣ : ١١٨ ، أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ٧٨ و ٨٤ — ٨٧ و ١٠ : ٢٢٦ — ٢٣٠ و ١١ : ٩١ و المنهل الصافى ٢ : ٣٩٩ ظ و الدليل الشافى ١ : ٤٥٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ؟ : ٦٧ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ٢ : ١٣٩ — ١٥١) .

(٥) القلقشندى : صبح ٥ : ٣٧ .

* * *

ثم نعود إلى ما كنَّا بصَدَده فنقول : إن صاحبَ اليمن لا يزالُ من الشريف الإمام الزَّيدى ، صاحبِ صَنْعَاء ، على مباينة تارةً يكون بينهما عهدٌ ، وتارةً يُنْبَذ العهد بينهما [١] ، لأن الإمام الزيدى له قوة فى مكانه ومَنَعَة من أعوانه . ولو استقلَّ مجموعُ اليمن لَمِلكٍ واحد كبُرَ محلُّه وعَظُم قدره فى الممالك الجليلة .

ولا تزال ملوك اليمن تستَجْلب من مصر والشام طوائفَ من أرباب الصناعات لقِلَّة وجودهم باليمن [٢] .

وليس باليمن « أسْواقٌ » دائمة ، إنما بها يومٌ من الجمعة [٣] تُجْلَبُ فيه الأجلاب ، [٤٦٧] ويُخْرِج أربابُ الصناعات والبضائع بضائعهم على اختلافها ، وتقامُ فى ذلك اليوم الأسواق ويُبَاع ويُشْترى ، فمن أعْوَزه شىء فى وسط الجمعة لا يكاد يجده ، إلاَّ المآكل [٤] ، فإنها دائمة كغيرها من البلاد . والمعمولات من المآكل فى أسواقها للبيع قليلة ، بل مَنْ أراد شيئاً عمله لنفسه .

* * *

فأما « زِىُّ مَلِكِهم » [٥] وسائر الجُنْد بها فأقْبِيَةٌ إسلامية [٦] ، ضَيِّقَة الأكمام ، مزَنَّدة على اليد ، ومَنَاطِق [٧] ، وعلى رؤسهم تَخَافيف لانس ، وفى أرجلهم الدِلاَكْسَات – وهى أخفافٌ من القماش الحرير الأطْلَس والعَتَّابى وغير ذلك [٨] .

---

(١) العمرى : التعريف ١٣ ، القلقشندى : صبح ٥ : ٣٧ .

(٢) القلقشندى : صبح ٥ : ٣٦ .

(٣) فى صبح نقلاً عن المسالك : إنما يُقَام لها سوق يوم الجمعة .

(٤) المصدر نفسه ٥ : ٧ .

(٥) فى صبح : زىُّ السلطان .

(٦) انظر أعلاه ص ٣٤ .

(٧) فى صبح : وفى أوساطهم مناطق مشدودة .

(٨) القلقشندى : صبح ٥ : ٣٤ .

ولقد وَقَعت وَحْشَةٌ بين هذا المُجَاهد وبين بعض أمرائه وهو : عليٌّ بن عمر بن يوسف الشِّهَابى ، فجاء إلى مصر وأقام بها وهو بهذا الزّىّ ، خلا الدلاكس ، فإنه قَلَعَهُ ولَبَس الخُفَّ المعتاد [بالديار المصرية] [١] ، وهو يحضر الموكب السلطانى بمصر على هذا الزىِّ إلى الآن [٢] .

* * *

وحدَّثنى الحكيم الفاضل صلاح الدين أبو عبد الله محمد بن البُرْهان [٣] ، وكان الملك المؤيد صاحب سلطانها الآن قد طَلَبَه من مصر واستدعاه وأعْذَب ماءَه ومرعَاه وأقام لديه حيناً من الدهر بين جنَّات ونهر متنقلاً معه فى ممالكه متوملا على شرفات مالكه ، قال : ولقد أَقَمْتُ مدةً بعَدَن وهى مدينةٌ مجلوبٌ إليه كلُّ شيء حتى الماء ، يحتاج المقيم بها إلى ماء يتبرَّدُ به فى اليوم مرَّات إبَّان قوة الحرّ [٤] .

وإليها مَجْمَع الرِّفَاق ومَوْضع سفر الآفاق يحيط بها من الصِّين والهِنْد والسِّنْد والعراق وعُمَان والبحرين ومصر والزَّنْج والحَبَشَة ، ولا يخلو أسبوع بها من عدَّة تجَّار وسُفُن وواردين وبضائع شتَّى ومتاجر [منوَّعة] [٥] ، والمقيمُ بها فى مكاسِبَ وافرة ، وتجائرَ مُرْبحَة [٦] ، لا يبالى بما يغرمه بالنسبة إلى الفائدة ، ولا يفكِّر فى سوْ المقام لكثرة الأموال النامية [٧] .

[٤٦٨] قال : ولحَطِّ المراكب عليها وإقلاعها مواسمُ مشهورة ، وإذا أراد ناخُوذَةُ [٨] مركب

---

(١) زيادة من صبح الأعشى .

(٢) القلقشندى : صبح ٥ : ٣٤ .

(٣) صلاح الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بابن البرهان الجرائحى المتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٣ هـ . (راجع فى ترجمته ، العمرى : مسالك الأبصار (خ . دار الكتب رقم ٢٥٦٨ تاريخ) ٥ : ٢٦٣ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٢ : ٢٣ ، المقريزى : السلوك ٢ : ٦٨٣ ، ابن حجر : الدرر الكامنة .. ، السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٥٤٥ ، أحمد عيسى : معجم الأطباء ٣٥٩ - ٣٦٣) .

(٤) القلقشندى : صبح ٥ : ١١ - ١٢ .

(٥) زيادة من صبح الأعشى .

(٦) القلقشندى : صبح ٥ : ١١ .

(٧) المصدر نفسه ٥ : ١٢ .

(٨) ناخذة جـ . نواخذة . فارسى معرب بمعنى مُلَّاك سفن البحر أو وكلاؤهم (Dozy, R., op. cit. II, 656) .

فيها السفر إلى جهة أقام عَلَمَه برَنْكٍ [١] خاصٌّ له ، فعَلِم التجَّار وتسامع الناس وبقى كذلك أيَّاماً ، ويقع الاهتمام بالرحيل ويُسْرِع التجَّار فى نقل أمتعتهم ، وحولهم العبيد بالقماش السرِيّ والأسحلة النافعة ، وتُنْصَب على شاطىء البحر الأسواق ، ويخرج أهل عَدَن للفرجة عليهم [٢] .

قال الحكيم بن البرهان : وأما « ظَفَار » [٣] فهى لأولاد الملك الوَاثِق ، ابن عم صاحب اليمن [٤] ، وهم وإن أُطْلِق عليهم اسم الملك نوَّابٌ له [٥] .

وظَفَار أَقْصَد إلى الهند من عدن ، وهى على جَوْنٍ خارجٍ من البحر ، تُنْقَل البضائع فى زوارقَ صغار فيه تقطع ذلك الجون ، ثم توسَق ذلك فى السفاين [٦] .

قال الحكيم صلاح الدين محمد بن البرهان : واسم اليمن أكبر ، لا تُعَدُّ فى بلاد الخِصْب بلاده [٧] . وغالبُ دخله مما يؤخذ من التجَّار والجلاَّبة براً وبحراً .

---

(١) الرنك جـ رُنُوك . هى الشارة أو الشعار أو العلامة التى يتخذها الشخص لنفسه وينفرد بها دون غيره . وهى تطلق عادة للدلالة على الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان المملوكى له . (راجع ، أحمد عبد الرازق : « الرنوك على عصر سلاطين المماليك » ، المجلة التاريخية المصرية ٢١ (١٩٧٤ ، ٦٧ - ١١٦) .

(٢) القلقشندى : صبح ٥ : ١١ .

وزار ابن بطوطة مدينة عدن فى هذه الفترة ووصفها بقوله : « وهى مرسى أهل الهند تأتى إليها المراكب العظيمة ، وتجَّار الهند ساكنون بها وتجّار مصر أيضاً . وأهل عدن ما بين تجار وحمَّالين وصيَّادين للسمك . وللتجار منهم أموال عريضة وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه ، لا يشاركه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال ، ولهم فى ذلك تفاخر ومباهاة » . (ابن بطوطة : الرحلة ١ : ١٩٥) .

(٣) ظَفَار . آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندى . وهى فى صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة بها . وسوقها خارج المدينة بَربَض يعرف بالحَرجْاء ، قال ابن بطوطة : وهى من أقذر الأسواق وأشدها نَتْنا وأكثرها ذبابا ، لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك . وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين ، وهو بها فى النهاية من السمن . (ابن بطوطة : الرحلة ١ : ١٩٥ والقلقشندى : صبح ٥ : ١٢ - ١٣) .

(٤) ذكر ابن بطوطة : الرحلة ١ : ٢٠٨ أن سلطان ظفار فى سلطنة المجاهد على هو الملك المغيث ابن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن .

(٥) القلقشندى : صبح ٥ : ١٢ .

(٦) المصدر نفسه ٥ : ١٢ - ١٣ .

(٧) المصدر نفسه ٥ : ٧ .

* * *

ومملكَةُ بنى رَسُول السواحل وما جَاوَرها ، ولهذا كانت مملكتهم أكثر مالاً من مملكة الشرفاء بصنعاء وما والاها [١] على ما يأتى ذكره فى مكانه .

قال : وشِعَارُ هذا السلطان وَرْدَةً حمراء فى أرضٍ بيضاء . قلت : ورأيت أنا السَّنْجَق اليمنى ، وقد رُفع فى جبل عَرَفَات سنة ثمانٍ وثلاثين وسبع مائة ، وهو أبيضٌ وفيه وردات حُمْر كثيرة [٢] .

قال : وإنما تجتمع لهم الأموال لقلَّة الكُلَف فى الخَرْج والمصاريف التى تذْهَب فى سِعَة النفقات والتكاليف ، ولأن الهندَ يُمدُّهم بمراكبه ، ويواصلهم ببضائعه [٣] .

وسألته عمَّا بها من الفواكه ، فذكر غالبا ما يوجَدُ بمصر ، غير أنه بالَغ فى وصف السَّفَرْجَل بها . وقال : إن القمح يوجد ولكنه يغلو ، واللحوم رخيصة [٤] . ويُعْمل بها السكر والصابون ولكنهما ليسا كما بمصر والشام .

قال : ولأهل اليمن سياداتٌ [٤٦٩] بينهم محفوظة ، وسعاداتٌ عندهم ملحوظة ، ولأكابرها حَظٌ من رَفَاهِيَة العيش والتنَعُّم والتفنُّن فى المآكل ، يُطْبَخ فى بيت الرجل منهم عدَّةُ ألوان ، ويُعمل فيها بالسكر والقلوب ، وتُطَيَّب أوانيها بالعِطْر والبَخور ، وتكون له الحاشيةُ والغاشيةُ والحبوش ، وفى بيته العَدَد الصالحُ من الإماء ، وعلى بابه جملةٌ من العبيد والخَدَم والخِصْيَان من الهند والحُبُوش . ولهم الدِّيارات الجليلةُ ، والمبانى الأنيقة ، إلَّا الرخام ودهانَ الذهب واللاَّزَوَرْد فإن هذا من خواص السلطان لا يشاركه فيها مشارك من الرعايا ولا من الأعيان ، وإنما فَرْشُ دورهم بالخَافِقِىّ وما يجرى مجراه [٥] .

---

(١) القلقشندى : صبح ٥ : ٣٥ .
(٢) المصدر نفسه ٥ : ٣٤ .
(٣) المصدر نفسه ٥ : ٣٦ .
(٤) المصدر نفسه ٥ : ١٧ .
(٥) القلقشندى : صبح ٥ : ٧ .

[بستان الثَّعْبَات]

قال : ولسلطانهم بستانٌ يعرف بالثَّعْبَات [١] يطلع إليه ويقيم فيه أيَّاماً للنُزْهَة به ، فيه قُبَّة ملوكية ومَقْعَد سلطانى فُرُشهما وأُزُرهما رخامٌ ملوَّن . وبها عُمُد قليلة المِثْل ، يجرى فيها الماء من تبعات تملأ العينَ حُسْناً ، والأذن طَرَباً بصفاء صفيرها وطيب خَرِيرها وترى شبابيكُهما على أشجارٍ قد نُقِلَت إليه من كل مكان تجمع بين فواكه الشام والهند . ولا يقف ناظرٌ على بستانٍ أحسنَ منه جمعاً ، ولا أجمع حسناً ولا أتم صورة ولا معنى [٢] ، يهزّ معاطف روحه الصبا كأنه فى اليمن من بقايا سبأ .

[كِتَابَةُ الإِنْشَاء]

قال ابن البرهان : وأما كُتَّاب الإنشاء عنده ، فإنه لا يجمعهم رئيسٌ يرأس عليهم يقرأ ما يرد على السلطان ويُجَاوب عنه ، ويتلَقَّى المراسِم ويُنَفِّذها . وإنما السلطان إذا دَعَت حاجته إلى كتابة كُتُب ، بعث إلى كل منهم ما يكتبه . فإذا كتب الكاتب ما رُسِمَ له به بعَثَه على يد أحد الخِصْيَان وقدَّمه إلى السلطان فعَلَّم عليه ونَفَّذه [٣] .

* * *

قال ابن البرهان : وملوك اليمن أوقاتُهم مقصورةٌ على لذَّاتهم ، والخلوة مع حَظَايَاهم وخاصَّتِهم من النُّدَماء والمُطْرِبين ، ولا يكاد السلطان يُرَى ، بل [٤٧٠] ولا يسمع أحدٌ من أهل اليمن له على الحقيقة خبراً [٤] ، مع شدَّة ضبطهم لبلادهم ومن فيها ، واحترازهم على طرقها براً وبحراً من كل جهة ، فلا يخفى داخلٌ يدخل إليها ولا خارجٌ منها .

---

(١) عن هذه المدينة القريبة من تعز راجع ، Smith, G.R., « The Yemenite Settlement of Thà'bàt, Historical, Numismatic and Epigraphic notes ». Arabian Studies I (1974), pp. 119-134 .

(٢) القلقشندى : صبح ٥ : ٩ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ٥ : ٣٥ .

وللتُّجَّار عندهم وضعٌ جليل ، لأن غالب متحَصِّلات اليمن منهم وبسببهم ، كما قدَّمنا ذكره [١] .

* * *

قلت : ولقد كان الملك المُظَفَّر [٢] ، ثم ولده الملك المؤيَّد – رحمهما الله تعالى – مقصودين من آفاق الأرض ، قَلَّ أن يبقى مُجيدٌ فى صَنْعَة من الصنائع إلاَّ ويصنع شيئاً على اسمه ، ويُجيد فيه بحسب الطاقة ، ثم يجَهِّزه إليه أو يقصده به ويقدِّمه إليه من يده ، فيُقْبِل عليه ويَقْبَل منه ، ويُحْسِن نُزُله ، ويُسْنِى جائزته ، ثم إن أقام فى بابه ، أقام مُكْرَماً محْتَرَماً ، أو عاد مْحبوّاً مَحْبوراً . ولهما وَلَعٌ بحب الغرباء وكرمٌ متَّسع فى الحياة يُجْزِلون من نِعَمِهم العَطَايَا ويُثْقِلون بكرمهم المَطَايا . ولقد قصدهما كثيرٌ من الناس وحصل لهم البر والإيناس [٣] ، ثم يُنَوَّع لهم من الكرامة ما أسناهم أن ينفذوا بسلطان ، وأسْلاَهم عن الأوطان ، فَحَمدوا بالنجاح أمالاً ، ووردوا أخفافاً وصدروا ثِقَالا .

وكان من عادتهما ، رحمهما الله ، أن لا يسمحا بعَوْد غريب ، ولا يَصْفَحا عن هذا عن بعيد ولا قريب قَصْداً لعمارة اليمن بإنارة أفاقه بكل شىء حَسَنٍ [٤ ، إلاَّ مَنْ قدَّم لديهما القول بأنه أتاهما راحلاً لا مقيماً وزائراً لا مستديماً ، فإنهما كان لا يكلِّفانه مقاماً لديهما ولا دواماً فى النزول عليهما ، بل يجزلان رفادته ويجملان إعادته [٥] .

---

(١) المصدر نفسه ٥ : ٣٥ .

(٢) الملك المُظَفَّر يوسف بن عمر بن على الرسولى ، تولى ملك اليمن من سنة ٦٤٧ هـ إلى وفاته فى سنة ٦٩٤ هـ .

(راجع فى ترجمته ، ابن حاتم : السمط الغالى الثمن ٢٤١ – ٥٦٧ ، أبا الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٤ : ٣٤ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ٨٨ – ١٠٠ ، الذهبى : العبر فى خبر من غبر ٥ : ٣٨٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ : ٣١٤ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ١ : ٥٠ و ٨٥ و ٨٨ – ٢٨٤ ، الفاسى : العقد الثمين ١ : ٤٦٣ – ٤٦٤ و ٧ : ٤٨٨ – ٤٨٩ ، المقريزى : الذهب المسبوك ٨٤ – ٨٥ والسلوك ١ : ٨١٠ ، أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٨ : ٧١ و ٧٣ والمنهل الصافى ٣ : ٤٦٠ ظ والدليل الشافى ٢ : ٨٠٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ٢ : ٢١ ، الجزيرى : درر الفرائد المنظمة ٢٨٠ و ٦٧٠ – ٦٧٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٥ : ٤٢٧) .

(٣) القلقشندى : صبح ٥ : ٣٦ .

(٤ – ٤) كل هذه الفقرة ساقطة من النسخة ك .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٣٦ – ٣٧ .

وأما مَنْ جاء إليهما بنيَّة مقيم وأقام لديهما على أنه لا يريم ، فإنهما يرفعان مجده ويوسِّعان رِفْدَه ويجريان عليه الأدوار وإليه السِّحاب المداد ، ويخلِّيان له داراً ويخليان مملوءا له بصفوف الحدم حدادا [١] ، فإذا أراد الارتحال عن دارهما مكَّنَاه من العَوْد كما جاءهما وخرج عنهما على أسوا حال ، مسلوباً بما استفاد [٤٧١] عندهما من نِعْمَة ومال ، عِقاباً له على مفارقته لأبوابهما ، لا بُخْلاً بما جادت به بوادر سحابهما [٢] .

وحكى لى غير واحد ممن قَصَدَهما على أنه يقيم ثم فارقهما على هذا الحال الذميم من حالاته لكل أعجوبة ما وجد ، ثم فارقه من نعمهما الموهونة المسلوبة [٤] .

* * *

قلت : ولقد كان يبعثان إلى مصر والشام والعراق من يتلَقَّط لهما مَحَاسِنَ الوجود وأَحَاسِنَ الموجود ، فلا يُبْقى طُرْفةً من الطُّرَف إلَّا اشتريت لهما ، ولا من مجيد فى شىء من الأشياء إلاَّ استميل إليهما ، ورُغِّب فى الكثير حتى يقصد حضرتهما ويقيم عندهما ، وقلَّ من يعود عنهما .

قلت : وصاحبُ اليمن لا عَدُوَّ له لأنه محجوبٌ ببحرٍ زاخر وبَرٍّ منقطِع من كل جهة ، والمسالمة بينه وبينهم ، فهو لهذا قريرُ العَيْن ، خالى البال ، لا يُهِمُّه إلاَّ صَيْد ، ولا يهَيِّجه إلَّا بَلْبال [٣] .

---

[١] هذه العبارة غير واضحة فى الأصول .

[٢] المصدر نفسه ٥ : ٣٦ وذكر الخبر بصيغة الجمع .

[٣] القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٣٧ .

الفصل الثانى
فيما بيد الأشراف

قد تقدَّم القول على من قام باليمن من أهل هذا البيت الشريف [١] وهم إلى الآن وأمرهم على ما كان . وأوَّل قائم منهم الإمام يحيى « الهَادِى » بن الحُسَيْن الزَّاهد بن أبى محمد القاسم الرَّسِّى بن إبراهيم طَبَاطَبَا بن إسماعيل الدِّيباج بن إبراهيم الغَمْر بن الحسن المُثَنَّى بن السيد أبى محمد الحسن بن أمير المؤمنين أبى الحسن علىّ بن أبى طالب سلام الله عليهم ورحمته وبركاته [٢] . قام بهذه الدَّعْوة فى اليمن وأعْلَن مناديه بالإمامة ورَفَع بيته وشيَّد له الدعامة ، واستجاب الخَلْق لندائه ، وصَلَّوْا بصلاته وأَمَّنوا على دُعَائه ، وقامَ منهم مقاماً محموداً ، وأثَّر فيهم من الصلاح أثراً مشهوداً .

وفى ذلك يقول [٣] :

بنى حَسَنٍ إنّى نَهَضْتُ بثأركم	وثَأْرِ كتابِ الله والحَقِّ والسُّنَنْ
وصَيَّرتُ نفسى للحوادثِ عُرْضَةً	وغِبْتُ عنْ الإخوانِ والأَهْلِ والوَطَنْ

---

(١) عن تاريخ الدولة الزيدية فى اليمن راجع ، محمد عبد الله ماضى : « دولة اليمن الزيدية ، نشأتها – تطورها – علاقاتها » ، المجلة التاريخية المصرية ٣ (١٩٥٠) ١٥ – ٣٥ ، Van Arendonk, C., « Les débuts de l'Imamat Zaidite au Yémen» traduction française par Jacques Ryckmans (Leyde 1960); Madelung, W., « Der Imam al - Qasim ibn Ibrahim und die Glaubenslehre der Zaiditen, Berlin 1965 ; Strothmann, R., EI., art. « al-Zaidia » IV, p. 1264 ،أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن ٣٦٥ – ٣٦٧ و ٤٨٦ وتاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى ١٨٥ – ٢١٩ .

(٢) راجع فى ترجمته ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ٤٤ ، الناطق بالحق : الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة (مخ . برلين ٩٦٦٥) ورقة ٢٩ و – ٣٤ ظ ، يحيى بن الحسين : أبناء الزمن فى أخبار اليمن (تحقيق محد عبد الله ماضى ، ليبتسج ١٩٣٦) ٧ – ١٥٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٤٧ و ٧ : ٣٣٢ – ٣٣٣ ، محمد زبارة : أئمة اليمن (تعز ١٩٥٢) ١ : ٥ – ٥٢ ، أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن ٤٠٤ ، ولعلى بن محمد العلوى كتاب « سيرة الهادى إلى الحق » نشره سهيل زكَّار (بيروت – دار الفكر ١٩٧٢) .

(٣) القلقشندى : صبح ٥ : ٤٧ .

[٤٧٢] وأكثر ما أطاعت له فى اليمن النجود وانقادت إلى حكمه ودانت له ولإمامته واجتهدت على استمرار أمْرِه واستدامته .

وقام بعد الهَادِى ولَدُه « المُرْتَضَى » [1] وتمَّت له البَيْعَة ، ثم اضطرب أمره ، واضطُرَّ إلى تجريد السَّيْف ، وقاتله الناس ، وفى ذلك يقول [2] :

كَدر الوِرْد علينا الصَّدَر فِعْلُ مَنْ بدَّل حَقّاً وكَفَرْ
أيُّها الأُمَّةُ عُودِى للهُدَى ودَعى عَنْكِ أحاديث البَشَرْ
عَدِمَتْنى البيضُ والسُّمْرُ معاً وتبَدَّلت رُقاداً بسَهَرْ
لأجُرَّن على أعدائنـــا نارَ حَرْبٍ بِضَرام وشَرَرْ

وكان رحمه الله خطيباً شاعراً ذا مقال يستنفر ناظماً وناثراً . قال صاحب « التبيين فى أنساب الطالبيين » [3] : وهم الآن الأئمة باليمن .

قلت : وحدَّثنى الشيخ شهاب الدين أبو جعفر أحمد بن غانم ، أنه فى عَوْده من اليمن – فاراً من صاحب اليمن [4] – نَزَل بحِمَاهم وترح إلى كنف نَعْماهم فألحقه إمامهم القائم بظِلِّه الظليل وأتحفه بفضله الجزيل ، وأرشفه على ظمأ زُلاَلا ، وأنصفه من الأيام مِنَّة وإفضالا ، ووَصَلَه بمال وأوصله إلى أحسن مآل . قال : وهو فى مَنَعة منيعة ، وذِرْوة رفيعة ، « دار ملكه صنعاء » ، ولرعاياه من حِيَاطَة الله به استرعاء . قال : وهو بنفسه يؤمُّهم ويخْطُب ، ويركب فى نحو ثلاثة آلاف فارس ، وأمَّا عسكره من الرجالة فخَلْق جَمّ ، وأَمَمٌ تموجُ كاليَمّ [5] .

وحدَّثنى الشيخ تاج الدين أبو محمد عبد الباق بن عبد المجيد اليمنى ، عن ما هو عليه هذا الإمام فى يومه من الأمر المُطَاع حتى لا يخرج أحدٌ منهم له عن نصٍّ ، ولا يشاركه فيما يتميَّز

---

(١) راجع فى ترجمته ، أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق ٤٠٤ وما ذكر من مصادر .

(٢) القلقشندى : صبح ٥ : ٤٨ ، محمد زبارة : أئمة اليمن ١ : ٥٣ .

(٣) لم أجد ذكراً لهذا الكتاب فيما بين يدى من مصادر .

(٤) أى السلطان الرسولى .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٥٣ .

به [١] ويختصّ ، مع القوَّة فى مباينةٍ لصاحب اليمن لا يخافه ولا يرجوه ، والاهمال له فلا يستجيب له ولا يدعوه ، مع أنه لا يزال صاحبُ اليمن ، يرْعَى جانبُه وتُعْقَد بينهما العقود ، وتُكْتَب الهُدَن ، وتُوثَّق المواثيق ، وتُشْتَرط الشروط [٢] .

قلت : [٤٧٣] وقد أتى آت إلى الأبواب السلطانية الشريفة ، زَعَم أنه مُرْسَلٌ من حَضْرة هذا الإمام ، وحدَّثنى كثيراً من تفاصيل أحوالهم من التشَدُّد فى الدين ، وإقامة الحق والعمل والالتزام بموجبه . وأن الأئمة فى هذا البيت أهل علم يتوارثه إمامٌ عن إمام وقائمٌ بعد قائم [٣] . هذه جملة من أحوالهم ذكرناها .

وأما « صَنْعَاء » [٤] فدار ملكهم . فقد تقدَّم فى هذا الكتاب من أحوالها ما يغنى عن إعادته هنا . وهى قاعدةُ مُلْك اليمن فى قديم الزمان ، وأوقاتها كلها على مناسبة الاعتدال ، لذيذة الهواء كثيرة الفواكه يَقَع بها الأمطار [٥] ، والبرد يكاد يجمد الجَمْر ، وهى تشبَّه فى اليمن ببَعْلَبَكّ فى الشام تمامها الحَسَن وحُسْنها التَّمام [٦] .

وسألت الفاضل تاج الدين عبد الباق اليمانى عمَّا يعْلَمه من أحوال الأئمة بهذه المملكة ، فكتب إلىَّ أنه ما يعْلم تفاصيل أحوالهم إذْ هم كالبادية .

قال : وأئمة الزيديين كثيرون [٧] ، والمشهور منهم : المؤيَّد بالله ، والمنصور بالله ، والمهدى

---

[١] المصدر نفسه ٥ : ٥٣ .

[٢] المصدر نفسه ٥ : ٥٣ وذكر أن مصدره ابن غانم وليس ابن عبد المجيد !

[٣] القلقشندى : صبح ٥ : ٥٢ .

[٤] صنعاء . من أقدم مدن الجزيرة العربية راجع فى تحديد موضعها والسبب الذى سميت من أجله صنعاء وتاريخها وعمارتها أحمد بن عبد الله الرازى : تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق حسين عبد الله العمرى وعبد الجبار زكَّار (بيروت – صنعاء ١٩٧٤) وانظر الكتاب الذى أشرف عليه سرجنت ، Serjeant, R.B. & Lewcock, R. (ed.), « San'a'. Arabian Islamic City », London 1980 ، ومجلة « الأكليل » اليمنية ٢ – ٣ (السنة الثانية ١٩٨٣) عدد خاص عن صنعاء .

[٥] ذكر ابن بطوطة أن المطر ينزل بصنعاء أيام القيظ ، ويكون أكثر نزوله بعد الظهر ، فالمسافرون لا يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر ، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة ، والمدينة مفروشة – أى مبلَّطة – كلها ، فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها . (ابن بطوطة : الرحلة ١ : ١٩٤) .

[٦] القلقشندى : صبح ٥ : ٣٩ .

[٧] راجع قائمة بأسماء أئمة اليمن وتاريخ توليهم الإمامة ومصادر ترجمتهم عند ، أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى ٤٠٤ – ٤١٦ .

بالله ، والمؤيَّد يحيى بن حمزة . قال : ويحيى بن حمزة هو الذى كان آخراً على عهد الملك المؤيَّد داود بن يوسف صاحب اليمن [١] ، وكاتب الهُدْنة تكون بينهما [٢] .

قال : وابتداء دولة الزيديين كانت فى أواخر دولة بنى العبَّاس ، قال : وأظنّها من المستضىء [٣] . قال : ولهؤلاء دعوة بالجيلان ، وهى كيلان ، ولهم دعاة هناك يجْبُون لهم الزكاوات من تلك البلاد ومن يجيب داعيهم فيها .

قال : وهم من أولاد زَيْد بن الحسن بن المُثَنَّى ، قال : وشيعتهم كثيرة وأئمتهم لا يُحجَبُون ولا يحتجبون ، ولا يَرَوْن التفخيم والتعظيم ، الإمام كواحد من شيعته : فى مأْكَله ومَشْربه وملْبَسه ، وقيامه وقعوده ، وركوبه ونزوله ، وعامة أموره ، يَجْلِس ويُجَالِس ، ويَعُود المرضى ، ويُصَلِّى بالناس على الجنائز ، ويُشَيِّع الموتى ، ويحضُرُ دَفْن بعضهم [٤] .

قال : وشيعته لهم فى إمامهم حُسْن اعتقادهم وهم يستَشْفُون بدعائه ، ويُمِرُّون يدَه على مرضاهم ، ويستَسْقُون المطر إذا أجْدَبوا [٤٧٤] به . قال : وهم يبالغون فى ذلك مبالغهم العظيمة [٥] .

سألته فهل لهذه الدعوة حقيقة ؟ قال : هذه أقوالهم التى تبْلُغنا عنهم وتَصِل إلينا من نحوهم وما أجزم .

قلت : ولا يكْبر لإمامٍ هذه سيرته - فى التواضُع لله ، وحُسْن المعاملة لخَلْقه ، وهو من ذلك الأصْل الطاهر والعُنْصُر الطَّيِّب - أن يُجَاب دعاؤُه ويُتَقبَّل منه [٦] .

---

(١) عند العمرى : التعريف ١٣ « والإمامة فيهم فى بنى المطهر واسم الإمام القائم فى وقتنا حمزة .

وهو المؤيد بالله يحيى بن حمزة بن على الحسنى تولى الإمامة سنة ٧٢٩ هـ وتوفى سنة ٧٤٩ هـ .. (راجع فى ترجمته ، أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق ٤٠٨ وما ذكر من مصادر) .

(٢) القلقشندى : صبح ٥ : ٥٠ و ٧ : ٣٣٣ .

(٣) فالخليفة العباسى المستضئ بالله الحسن بن المستنجد بالله يوسف بويع بعد أبيه فى سنة ٥٦٦ هـ وتوفى سنة ٥٧٥ هـ . وهذا التاريخ يوافق قيام الدولة الزيدية الثانية فى اليمن التى بدأت بالمتوكل على الله أحمد بن سليمان (راجع ، أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ٢١٠ وما بعدها ومصادر تاريخ اليمن ٤٠٦) .

(٤) العمرى : التعريف ١٣ ، القلقشندى : صبح ٥ : ٥٢ .

(٥) القلقشندى : صبح ٧ : ٣٣٤ .

(٦) المصدر نفسه ٥ : ٥٢ و ٧ : ٣٣٤ .

* * *

وحدَّثنى الحكيم الفاضل صلاح الدين محمد بن البرهان : أن اليمن تنقسم إلى قسمين : سَواحِلَ وجبالٍ . فالسواحلُ بها لبنى رَسُول ، والجبالُ كلُّها أو غالبها للأشْرَاف ، وهى أقلُّ دخْلاً من السواحل لمَدَر البحر لتلك واتصالِ سبيلها منه ، وانقطاع المَدَد عن هذه البلاد لانقطاع سبيلها من كل جهة (١) .

وحدَّثنى أبو جعفر بن غانم ، أن بلاد الشُّرَفاء هؤلاء متَّصلةٌ ببلاد السَّرَاة ، إلى الطَّائف ، إلى مكة المعظَّمة (٢) ، وأنها طريقه التى سَلَكها فى عَوْده من اليمن .

قال : وهى جبالٌ شامخة عليَّة ، ذاتُ عيون دافِقَة ومياهٍ جارية ، على قرىً متصلة ، الواحدة إلى جانب الأخرى ، وليست لواحدة تعلُّق بالأخرى ، لكل واحدة أهلٌ يرجع أمرُهم إلى كبيرهم ، لا يضمُّهم مُلْك مَلِك ولا يجمعهم حُكْمُ سلطان ، ولا تخلو قرية منها من أشجار وعُرُوش ذوات فواكِهَ أكثرُها العنب واللوز ، ولها ، زروع أكثرها الشَّعير ، ولأهلها ماشية أعْوزَتْها الزرائبُ وضاقت بها الحظائر (٣) .

قال : وأهلُها أهلُ سَلاَمة وخير وتمسُّكٍ بالشريعة ووقوفٍ معها ، يعَضُّون على دينهم بالنَّواجذ ويَقْرُون كلَّ من يمرّ بهم ، ويضَيِّفُونه مدَّةَ مقامه حتى يفارقهم . قال : وإذا ذَبَحوا لضيفهم شاةً ، قدَّموا له جميعَ [لحمها و] (٤) رأسها وأكارِعَها وكَرِشَها وكبدَها وقَلْبَها ، يأكل ما يأكل ويحمل ما يحمل (٥) .

قال : وأهلُ هذه البلاد لا يفارق أحدٌ منهم قريته مسافراً إلى الأخرى إلَّا برفيق يسترفِقُه منها ليخفُرَه ، وإلَّا فلا يأمن أولئك لعداوة بينهم وتفرُّق ذات بيْن (٦) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٣٨ .
(٢) المصدر نفسه ٥ : ٣٨ .
(٣) المصدر نفسه ٥ : ٣٨ .
(٤) زيادة من صبح الأعشى .
(٥) القلقشندى : صبح ٥ : ٣٨ .
(٦) المصدر نفسه ٥ : ٣٨ .

* * *

ثم نعود إلى تتمَّة الكلام فى مملكة الأشراف [٤٧٥] فنقول ، وبالله التوفيق : إنها تشتمل على عِدَّة حصون منيعة وبلاد مخْصِبَة مرتعة ، وقبائل عرب وحلفاء وأكْراد فى طاعة هؤلاء الشرفاء . ولأمراء مكة ميلٌ كلِّى إليهم لقرابتهم بهم ، لتَمَذْهُبهم بمَذْهَبِهم (١) .

والإمام فى هذه البلاد يعْتَقِد فى نفسه ويعْتَقِدُ أتباعُه فيه أنه إمامٌ معصومٌ مفْتَرَضُ الطاعة ، تنعقد به عندهم الجمعةُ والجماعة، ويَرَوْن أنَّ جميع ملوكَ الأرض وسلاطينَ الأقطار تلزمهم طاعتُه ومتابعتُه حتى خلفاء بنى العبَّاس ، وأنَّ جميع مَنْ مات منهم مات عاصياً بترك متابَعَته ومبَايَعَته . وهم يزعُمون ويُزْعَمُ لهم أن سيكون لهم دولة يدال بها بين الأُمَم ، وتملك بها منتهى الهمم لا تهجع لها سيوف ولا تخضع صفوف . وفى رأيهم أن الإمام الحُجَّة المنتظر فى آخر الزمان منهم (٢) .

* * *

وزِىُّ هذا الإمام وأتباعِه زِىُّ العرب فى لباسهم والعِمَامة والحَنَك (٣) .

ويقال فى الأذان عندهم « حَىَّ على خَيْر العَمَل » (٤) ، ولا يظهر أحد منهم عندهم بسَبّ ، ولا ببُغْض على ما هو رأى الزيدية .

حدَّثنى مَنْ أقام بينهم مدَّة صالحة : أنهم أهل نَجْدَةٍ وبأْسٍ ، وشجاعةٍ ورأْى ، غير أن عدَدَهم قليل ، وسلاحَهم ليس بكثير : لضِيقِ أيديهم ، وقِلَّة دخل بلادهم (٥) .

قال : ولقد فارقتهم ، فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وهم لا يشُكُّون أنه قد آن أوانُ ظهورهم ، وحان حينُ مُلْكهم ، ولهم رعايا تختلف إلى البلاد ، وتجتمع بمَنْ هو على رأيهم ، يترَبَّصُون ضَعْفَ الدول فى أقطار الأرض (٦) .

---

(١) العمرى : التعريف ١٣ ، القلقشندى : صبح ٥ : ٥٢ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٥٢ .
(٣) المصدر نفسه ٥ : ٥٣ و ٧ : ٣٣٤ .
(٤) المصدر نفسه ٥ : ٥٢ و ٧ : ٣٣٤ .
(٥) المصدر نفسه ٥ : ٥٣ .
(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٥٢ .

* * *

وحدَّثنى شيخنا قاضى القضاة شيخ الإسلام كمال الدين أبو المعالى محمد بن على الأنْصَارى ابن الزَّمْلَكَانى [١] ، رحمه الله ، عند عودته من قضاء حَلَب عن رجلٍ كان بها وأنه مات وترك صندوقين كبيرين مختومين ، فظُنَّ أن فيهما مالاً ، ففُتِحا فلم يوجد فيهما سوى كتب من أئمة هذه الجهة ونسخ أجوبة عنها ، منها ما هو إليه ومنه ، ومنها ما كان إلى قدماء أبائه وأسْلاَفه ومنهم . فسألته كيف كانت وما الذى كان مضمونها ؟

فقال : أما كيف ؟ فعلى [٤٧٦] نحو طريقة السَّلَف : من فلان أمير المؤمنين . وأما الوقت إلى فلان أو لفلان ، أما بعد فإنى أحْمَدُ إليك الله الذى لا إله إلَّا هو ، وأعْلِمك بكذا وكذا . وكذلك نسخ الأجوبة وتبدأ باسم الإمام على عادة السَّلَف لا نَقْص فيها ولا زيادة سوى قوله : وإمَامُ الوقت . وأما مضمونها فمختلف ومداره على استعلام الأخبار عامة ، وأحوال الشيعة خاصة ، والسؤال عن أُناس منهم ، وأنه قد وَرَدَ كتابُ فلان وأعيدَ جوابُ فلان عن أناس ما يُعْرَف مَنْ هم بكنايات موضوعة ، وفى بعضها حديث الخُمْس وذكر وصوله أو التقاضى به .

قال : ووَجَدْت فى بعضها فى هذا المعنى ما هذه عبارته وهى : « لا تؤخِّروا قدر من هنا من إخوانكم من المؤمنين فى هذه البلاد الشاسعة ، وهو حقٌّ لله فيه تزكية أموالكم ومَدَد إخوانكم من الضُّعَفَاء واتَّقُوا الله و ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عليكم مِّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُم بأَمْوَٰلٍ وَبنِين ويجعل لَّكُم جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُم أَنْهَـٰراً ﴾ [الآية ١٠ - ١٢ سورة نوح] .

---

[١] قاضى قضاة حلب توفى بمصر سنة ٧٢٧ هـ . (راجع فى ترجمته ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٤ : ١٣١ - ١٣٢ ، ذيول العبر ١٥٤ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٤ : ٢١٤ - ٢٢١ ، ابن شاكر : فوات الوفيات ٤ : ٧ - ١١ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٩ : ١٩٠ - ٢٠٦ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ٤ : ١٩٢ - ١٩٤ ، أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ٢٧٠ والمنهل الصافى - خ ٣ : ٢٢٣ - ٢٦٤ والدليل الشافى ٢ : ٦٦٠ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٤٥٨ - ٤٥٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٦ : ٧٨ - ٧٩ .

فسألته عمَّا صَنَعُوا بهذه الكتب ؟

قال : عرَّفت الأمير أَرْغُون [١] ، نائب السلطان بها ، فقال : اغتسلوها ، فغُسِلَت [٢] .

هذا ما انتهى إلينا من أخبارهم

---

[١] الأمير أَرْغُون بن عبد الله الدَّوَادَار ، نائب السلطنة بحلب توفى سنة ٧٣١ هـ .
(راجع فى ترجمته ، ذيل العبر ١٦٧ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٨ : ٣٥٨ - ٣٦٠ ، الفاسى : العقد الثمين ٣ : ٢٨٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ١ : ٣٧٤ ، أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ٢٨٨ والمنهل الصافى ٢ : ٣٠٦ - ٣٠٨ و الدليل الشافى ١ : ١٠٦) .

[٢] القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٥٣ .

ثبت المصادر والمراجع وبيان طبعاتها

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن محمد) المتوفى سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م .

« الكامل فى التاريخ » ، ١ - ١٣ ، بيروت - دار صادر ١٩٦٥ - ١٩٦٧ .

أحمد عيسى ، المتوفى سنة ١٩٦٥ هـ / ١٩٤٦ .

« معجم الأطباء من سنة ٦٥٠ هـ إلى يومنا هذا » ، جامعة فؤاد الأول - كلية الطب ١٩٤٢ .

الأُدْفُوى (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب) المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م .

« الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد » ، تحقيق سعد محمد حسن ، القاهرة - الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ .

الاصْطَخْرى (أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد الفارسى الكرخى) المتوفى فى النصف من القرن الرابع الهجرى .

« المسالك والممالك » ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، القاهرة - دار القلم ١٩٦١ .

ابن إيَّاس (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى) المتوفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م .

« بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، ١ - ٥ ، تحقيق محمد مصطفى ، النشرات الإسلامية ٥ - القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٧٥ .

ابن أَيْبَك الدوادارى (أبو بكر عبد الله بن أيبك) المتوفى بعد سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م .

« كنز الدرر وجامع الغرر » الجزء التاسع المسمى « الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر » تحقيق هانس روبرت رويمر ، القاهرة - المعهد الألمانى للآثار ١٩٦٠ .

أيمن فؤاد سيد

« تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى » ، القاهرة ١٩٧٤ .

« مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى » ، مط . المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٧٤ .

بَامَخْرَمة (أبو محمد عبد الله الطيِّب) المتوفى سنة ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م .

« تاريخ ثغر عدن » ، ١ - ٣ حقَّقه أوسكر لوفجرين ، ليدن ١٩٣٦ .

(*) ليس هذا ثبتاً بكل المصادر والمراجع المستخدمة فى كتابة المقدمة والتحقيق ، وإنما أذكر فقط المصادر والمراجع التى استخدمت دائماً فى الكتاب . أما تلك التى استخدمت مرّة واحدة أو ذكرت لزيادة توضيح مسألة فقد ذكرت كل المعلومات البيليوجرافية الخاصة بها فى موضعها .

ابن بَطُّوطَة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنْجى) المتوفى سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م .
« تحفة النظَّار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » المعروف بـ « رحلة ابن بطوطة » ، ١ – ٢ ، القاهرة ١٩٣٩ .

ابن بَعْرَة (منصور الذهبى الكاملى) كان معاصراً للسلطان الكامل الأيوبى .
« كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية » ، تحقيق عبد الرحمٰن فهمى ، القاهرة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٥ .

البَكْرى (أبو عُبَيْد عبد الله بن عبد العزيز) المتوفى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م .
« جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك » ، بحث وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، الكويت ١٩٨٠ .

البَلاَذُرى (أحمد بن يحيى بن جابر) المتوفى سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م .
« فتوح البلدان » ، ١ – ٣ نشره صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ .

التُجيبى (القاسم بن يوسف السَّبْتى) المتوفى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م .
« مستفاد الرحلة والاغتراب » ، تحقيق وإعداد عبد الحفيظ منصور ، تونس – الدار العربية للكتاب ١٩٧٥ .

التِّيفَاشى (شهاب الدين أحمد بن يوسف) المتوفى سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م .
« أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار »، حققه وعلَّق عليه وشرحه محمد يوسف حسن ومحمود بسيونى خفاجى ، القاهرة – مركز تحقيق التراث ١٩٧٧ .

ابن جُبَيْر (أبو الحسين محمد بن أحمد الأندلسى) المتوفى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م .
« رحلة ابن جبير » ، بيروت – دار صادر ١٩٦٤ .

الجَزيرى (عبد القادر بن محمد الأنصارى الحنبلى) المتوفى نحو سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠ م .
« دُرَر الفوائد المُنَظَّمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المكرّمة » ، القاهرة – المطبعة السلفية ١٩٦٥ .

ابن حاتم (بدر الدين محمد بن حاتم اليامى الهمدانى) المتوفى بعد سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م .
« السِّمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك من الغُزّ باليمن » ، تحقيق ج . ركس سمث ، لندن – بيروت ، ١/١ GMS XXX ١٩٧٤ .

ابن حَجَر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على العَسْقَلانى) المتوفى سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م .
« أنباء الغمر فى أبناء العمر » ، ١ – ٣ ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٩ – ١٩٧٢ .

« الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة » ، ١ – ٥ ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، القاهرة – دار الكتب الحديثة ١٩٦٦ .

حسن الباشا .

« الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية » ، ١ – ٣ ، القاهرة – دار النهضة العربية ١٩٦٥ – ١٩٦٦ .

حسن حسنى باشا عبد الوهاب المتوفى سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

« ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية » ، ١ – ٢ ، تونس ١٩٦٦ .

الحِمْيَرى (محمد بن عبد المنعم) المتوفى فى أوائل القرن الثامن الهجرى .

« الروض المِعْطَار فى خبر الأقطار » ، حقَّقه إحسان عباس ، بيروت – مكتبة لبنان ١٩٧٥ .

ابن حَوْقَل (أبو القاسم محمد بن حوقل) المتوفى بعد سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ .

« صورة الأرض » ، تحقيق كريمرز ، ليدن ١٩٦٧ .

الخَالِدى (بهاء الدين محمد العُمَرى) المتوفى بعد سنة ٨٣٦ هـ / ١٤٣٢ م .

« المَقْصَد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا » ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس Paris BN Or. 1573 .

الخَزْرجى (موفق الدين أبو الحسن على بن أبى بكر) المتوفى سنة ٨١٢ هـ / ١٤١٠ م .

« العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية » ، ١ – ٢ ، نشر محمد بسيونى عسل ، القاهرة ١٩١١ .

ابن خَلِّكَان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) المتوفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م .

« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، ١ – ٨ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت – دار الثقافة ١٩٦٩ – ١٩٧٢ .

ابن الدَّيْبَع (وجيه الدين عبد الرحمن بن على الشيبانى) المتوفى سنة ٩٤٤ هـ / ١٥٣٣ م .

« قُرَّة العيون فى أخبار اليمن الميمون » ، ١ – ٢ ، نشره محمد بن على الأكوع ، القاهرة ١٩٧٧ .

الذَّهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن قايْماز) المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م .

« العِبَر فى خبر من غبر » ، ١ – ٥ ، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد ، الكويت – سلسلة التراث العربى ١٩٦٠ – ١٩٦٦ .

« من ذيول العبر » تحقيق محمد رشاد عبد المطلب ، الكويت – سلسلة التراث العربى ١٩٧٠ .

الزِّرِكْلى (خير الدين بن محمود بن محمد) المتوفى سنة ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

« الأعـلام » ، ١ – ٨ ، بيروت – دار العلم للملايين ١٩٧٩ .

سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى) المتوفى سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م .

« مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » ، المجلد الثامن ، الهند – حيدر آباد ١٣٣٧ – ١٣٣٩ هـ .

السُّبْكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على) المتوفى سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م .

« طبقات الشافعية الكبرى » ، ١ – ١٠ ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحى ، القاهرة – عيسى البابى الحلبى ١٩٦٣ – ١٩٧٦ .
« معيد النِعَم ومبيد النِقَم » حقَّقه محمد على النجار وأبو زيد شلبى ومحمد أبو العيون ، القاهرة – مكتبة الخانجى ١٩٤٨ .
السَّخَاوى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن) المتوفى سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م .
« التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة » ، ١ – ٤ ، القاهرة ١٩٥٩ – ١٩٦٢ .
« الضوْ اللامع لأهل القرن التاسع » ، ١ – ١٢ ، القاهرة – مكتبة القُدْسى ١٣٥٣ – ١٣٥٥ هـ .
سعاد ماهر .
« مساجد مصر وأولياؤها الصالحون » ، ١ – ٤ ، القاهرة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧١ – ١٩٨٠ .
ابن سعيد (على بن سعيد المغربى) المتوفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م .
« المُغْرب فى حُلَى المَغْرب » ، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ، عنى بنشره وتحقيقه زكى محمد حسن وشوقى ضيف وسيدة كاشف ، القاهرة – مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ .
ابن سَمُرَة (عمر بن على بن سَمُرَة الجَعْدى) المتوفى بعد سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م .
« طبقات فقهاء اليمن » ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة – مط . السنة المحمدية ١٩٥٧ .
السُّيوطى (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد) المتوفى سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م .
« حُسْن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » ، ١ – ٢ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة – مط . عيسى البابى الحلبى ١٩٦٧ .
ابن شاكر (صلاح الدين ، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمٰن الكتبى) المتوفى سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م .
« فوات الوفيات » ، ١ – ٥ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت – دار صادر ١٩٧٤ .
ابن شَدَّاد (عز الدين أبو عبد الله محمد بن على بن إبراهيم الحلبى) المتوفى سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م .
« الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة » ، ١ – ٣ ، تحقيق دومنيك سورديل وسامى الدهان ، دمشق – المعهد الفرنسى للدراسات العربية ١٩٥٣ – ١٩٦٣ .
الشَّوْكانى (محمد بن على بن محمد بن عبد الله) المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م .
« البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » ، ١ – ٢ ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .
الشَّيْزرى (عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشافعى) المتوفى نحو سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م .
« نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ، تحقيق ومراجعة السيد الباز العرينى ، القاهرة – لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦ .

الصَّفَدى (صلاح الدين خليل بن أيبك) المتوفى سنة ٣٦٤ هـ / ١٣٦٣ م .

« الوافى بالوفيات » ، ١ - ١٢ و ١٤ - ١٧ ، تحقيق مجموعة من العلماء ، استامبول - بيروت - النشرات الإسلامية ، ١٩٤٩ - ١٩٨٣ .

صلاح الدين المنجد .

« مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحّالين المسلمين » ، بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٦٧ .

«وصف دمشق فى مسالك الأبصار للعمرى » ، مجلة معهد المخطوطات العربية ٣ (١٩٥٧) ١١٣ - ١٢٦ .

طَرْخَان ، إبراهيم على .

« النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى » ، القاهرة - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨ .

الظَّاهرى (غرس الدين خليل بن شاهين) المتوفى سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م .

« زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » ، اعتنى بتصحيحه بول رافيس ، باريس ١٨٩٤ م .

ابن عبد الحَكَم (أبو القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله القرشى) المتوفى سنة ٢٥٧ هـ / ٧٨١ م .

« فتوح مصر وأخبارها » ، نشره تشارلز تورى ، ليدن ١٩٢٠ .

عبد اللطيف البغدادى (موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد) المتوفى سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م .

« الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » ، القاهرة - مطبعة المجلة الجديدة ١٩٣١ .

ابن عبد المجيد (تاج الدين عبد الباق بن عبد المجيد) المتوفى سنة ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م .

« بهجة الزمن فى تاريخ اليمن » ، نشره مصطفى حجازى ، القاهرة ١٩٦٥ .

ابن العَديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة العقيلى) المتوفى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢ م .

« زبدة الحلب من تاريخ حلب » ، ١ - ٣ ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق - المعهد العلمى الفرنسى للدراسات العربية ١٩٥٣ - ١٩٦٨ .

ابن عَسَاكِر (الحافظ أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعى) المتوفى سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م .

« تاريخ مدينة دمشق » ، المجلدة الثانية - خطط دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق - المجمع العلمى العربى ١٩٥٤ .

على بك بهجت المتوفى سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

« حفريات الفُسْطَاط » ، ترجمة محمود عكُّوش ، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٢٧ .

ابن العِمَاد (عبد الحى بن أحمد بن محمد الحَنْبلى) المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م .

« شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ، ١ - ٨ ، نشره حسام الدين القدسى ، القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥١ هـ .

العِمَاد الأَصْفَهانى (أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبو الفرج محمد الكاتب) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م .

« خريدة القصر وجريدة العصر » ، قسم شعراء الشام ١ - ٣ ، تحقيق شكرى فيصل ، دمشق - المجمع العلمى العربى ١٩٥٥ - ١٩٦٨ .

العُمَرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله) المتوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م .

« التعريف بالمصطلح الشريف » ، القاهرة ١٣١٢ هـ .

« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ، ج ١ تحقيق أحمد زكى باشا ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٢٤ .

مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ تاريخ .

الغَزُولى (على بن عبد الله البهائى الدمشقى) المتوفى سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م .

« مطالع البدور فى منازل السرور » ، ١ - ٢ ، مصر ١٢٩٩ - ١٣٠٠ هـ .

الفاسى (تقى الدين محمد بن أحمد المكى) المتوفى سنة ٨٣٢ هـ / ١٤٢٩ م .

« العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين » ، ١ - ٨ ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٩ - ١٩٦٨ .

أبو الفِدَا (المؤيد إسماعيل بن على ، صاحب حماة) المتوفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م .

« المختصر فى أخبار البشر » ، ١ - ٤ ، مصر ١٣٢٥ هـ .

ابن فَرْحون (برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد اليعمرى) المتوفى سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م .

« الديباج المذهب فى تراجم أعيان المذهب » ، ١ - ٢ ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، القاهرة - دار التراث ١٩٧٩ .

ابن فُضْلان (أحمد بن فضلان بن العباس) المتوفى بعد سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م .

« رسالة ابن فضلان » ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق - المجمع العلمى العربى ١٩٥٩ .

قاسم عبده قاسم .

« أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى - دراسة وثائقية » ، القاهرة - دار المعارف ١٩٧٧ .

القلقشندى (أحمد بن على بن أحمد الفزارى) المتوفى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م .

« صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ، ١ - ١٤ ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩١٢ - ١٩٣٨ .

ابن كثير (الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر الدمشقى) المتوفى سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م .

« البداية والنهاية » ، ١ - ١٤ ، مصر ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ .

كراتشكوفسكى ، اغناطيوس جوليانوفتش المتوفى سنة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .

« تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، ١ - ٢ ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣ - ١٩٦٥ .

اللَّكْنوى (محمد عبد الحى) المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦ م .

« الفوائد البهية فى تراجم الحنفية » ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .

ماجد ، عبد المنعم

« نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر » ، ١ - ٢ ، القاهرة - مكتبة الأنجلو ١٩٦٧ و ١٩٧٩ .

أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) المتوفى سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م .

« الدليل الشافى على المنهل الصافى » ، ١ - ٢ ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، مكة - مركز البحث العلمى ١٩٨٣ .

« المَنْهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » ، ١ - ٢ ، تحقيق أحمد يوسف نجاتى ومحمد محمد أمين ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٥٥ و ١٩٨٤ . Wiet, G., Les biographies du Manhal Safi, Le Caire, MIE 1931

« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، ١ - ١٦ ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٢٩ - ١٩٧٢ .

محمد رمزى (محمد بن عثمان رمزى) المتوفى سنة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ .

« القاموس الجغرافى للبلاد المصرية » ، ١ - ٥ ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٥٣ - ١٩٦٨ .

محمد زَبَارة (محمد بن محمد بن يحيى بن عبد الله الصنعانى) المتوفى نحو سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

« أئمة اليمن » ، الجزء الأول ، تعز ١٩٥٢ .

محمد كرد على المتوفى سنة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .

« خِطَط الشام » ، ١ - ٦ ، دمشق ١٣٤٣ - ١٣٤٧ هـ .

محمد محمد أمين .

« الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ٢٥٠ - ١٥١٧ م - دراسة تاريخية وثائقية » ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

« منشور بمنح إقطاع من عصر السلطان الغورى » ، مجلة حوليات إسلامية An. Isl ١٩ (١٩٨٣) ١ - ٢٣ .

محمود نديم

« الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى » ، القاهرة ١٩٨٣ .

المَسْعُودى (أبو الحسن على بن الحسين) المتوفى سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م .

« مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، ١ - ٧ ، تحقيق شار بلّا ، بيروت - الجامعة اللبنانية ١٩٧٠ - ١٩٧٩ .
المَقْدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد البَشّارى) المتوفى نحو سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م .
« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، نشره دى خويه ، ليدن ١٩٠٦ .
المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م .
الخطط = « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، ١ - ٢ ، بولاق ١٢٧٠ هـ .
« الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك » ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ .
« السلوك لمعرفة دول الملوك » ١ - ٤ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٣ .
« المقفى الكبير » ، مخطوطة باريس رقم ٢١٤٤ .
ابن ممّاتى (أبو المكارم أسعد بن مهذب الخطير أبى سعيد بن مينا) المتوفى سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م .
« قوانين الدواوين » ، حققه عزيز سوريال عطية ، القاهرة - الجمعية الملكية الزراعية ١٩٤٣ .
ناصر خسرو
« سفرنامة » ، ترجمة يحيى الخشاب ، بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٧٢ .
الناطق بالحق (أبو طالب يحيى بن الحسين البطحانى) المتوفى سنة ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م .
« الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة » ، مخطوطة برلين رقم ٩٦٦٥ .
ابن النديم (محمد بن إسحاق) المتوفى نحو سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م .
« الفهرست » ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٩٧١ .
النُوَيْرى (شهاب الدين أبو عبد الله أحمد بن عبد الوهاب » المتوفى سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م .
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، ١ - ٢٤ ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٢٣ - ١٩٨٤ .
الهَمْدَانى (لسان اليمن الحسن بن أحمد) المتوفى سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م .
« صِفَة جزيرة العرب » ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت - دار اليمامة ١٩٧٤ .
ابن وَاصِل (جمال الدين أبو عبد الله محمد سالم بن نصر الله) المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م .
« مفرِّج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ، ١ - ٣ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠ ، ٤ - ٥ ، تحقيق حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ - ١٩٧٧ .
الوَطْوَاط (جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبى) المتوفى سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م .
« من مباهج الفكر ومناهج العبر - صفحات من جغرافية مصر » ، نشرها عبد العال عبد المنعم الشامى ، الكويت ١٩٨١ .

ياقوت الحَمَوى (ياقوت بن عبد الله الرومى) المتوفى سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م .
« معجم الأدباء » ، ١ - ٢٠ ، نشره أحمد فريد رفاعى ، القاهرة ١٩٣٦ .
« معجم البلدان » ، ١ - ٦ ، نشره وستنفلد ، ليبتسج ١٨٦٦ - ١٨٧٠ .
يحيى بن الحسين (بن المنصور بالله القاسم بن محمد) المتوفى نحو سنة ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م .
« أنباء الزمن فى أخبار اليمن » ، القسم الأول من سنة ٢٨٠ إلى ٣٢٢ هـ ، حقَّقه محمد عبد الله ماضى (برلين - ليبتسج ١٩٣٦) .

° ° °

Ayalon, D., « Studies in the structure of the mamluk Army », BSOAS 15 (1953), pp. 203-238; 448-476; 16 (1954), pp. 57-90.

———, « The System of payment in mamluk military Society », JESHO I (1945), pp. 37-65, 257-296 .

Blachère, R., « Quelques reflexions sur les formes de l'Encyclopédisme en Egypte et en Syrie du VIII/XIV siècle à la fin du IX/XV siècle », BEO XXIII (1970), pp. 7-19.

Brockelmann, G., Geschichte der arabischen Litteratur, Bd. I-II, Leiden 1943-49; Suppl. I-III, Leiden 1937-42 .

Cahen, Cl., « Le régime des impôts dans le Fayyum Ayyubide », Arabica III (1956), pp. 8-30.

Casanova, P., Histoire et description de la Citadelle du Caire, MMAF VI (1891-92) .

Dozy, R., Dictionnaire detaillé de noms des vêtements chez les Arabes, Amsterdam 1845 .

———, Suppléments aux Dictionnaires arabes, 1-2, Leiden 1821 .

Gaudefroy-Demombynes, L'Afrique moins l'Egypte, I-Masalik al-abasr fi mamalik al-amsar par Ibn Fadl Allah al-Omari, BGA, Paris 1927 .

———, La Syrie à l'époque des Mamelouks, Paris 1923 .

Litte, D., An Introduction to the Mamluk Historiography, Wiesbaden 1970 .

Mayer, L.A., Mamluk Costume, Genève 1952 .

Quatremère, M., Histoire des Sultans mamluks d'Egypte, (trad. par), 1-3, Paris 1837-42 .

Rabie, H., The Financial System of Egypt A.H. 564-741/A.D. 1169-1341, London 1972 .

Serjeant, R.B., Islamic Textiles, Beirut - Librairie du Liban 1972 .

Sezgin, F., Geschichte des arabischen Schrifftums, t. II, Leiden 1978 .

فهارس الكتاب

١ – الأعلام

٢ – الأمـاكن والمواضع والبلدان

٣ – الوظائف والمصطلحات وأسماء الدواوين

٤ - الأزيـاء والملابس والأقمشة

٥ – الطوائف والجماعات

٦ – أسماء الكتب

MASĀLIK AL-ABṢĀR FĪ MAMĀLIK AL-AMṢĀR

d'IBN FAḌL ALLĀH AL-ᶜUMARĪ

Šihāb al-Dīn Aḥmad b. Yaḥyā b. Faḍl Allāh

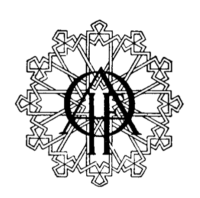
m. 749/1349

L'ÉGYPTE, LA SYRIE, LE ḤIĞĀZ ET LE YÉMEN

édité et présenté

par

AYMAN FU'ĀD SAYYID



INSTITUT FRANÇAIS D'ARCHÉOLOGIE ORIENTALE DU CAIRE

MASĀLIK AL-ABṢĀR

FĪ MAMĀLIK AL-AMṢĀR

d'IBN FAḌL ALLĀH AL-ʿUMARĪ

TEXTES ARABES ET ÉTUDES ISLAMIQUES, TOME XXIII, 1985

AVANT-PROPOS

L'ouvrage, dont nous présentons ici l'édition partielle — *Masālik al-Abṣār fī Mamālik al-Amṣār* d'Ibn Faḍl Allāh al-ʿUmarī, Šihāb al-Dīn Aḥmad b. Yaḥyā (m. 749/1349) — mérite d'être considéré comme un important document pour l'histoire administrative de l'Etat Mamelouk.

L'importance et la valeur des renseignements que contient ce volumineux ouvrage n'ont pas échappé aux orientalistes qui se consacrent à l'étude du monde arabe médiéval, grâce au volume conservé à la B.N. de Paris.

Malgré cette richesse, aucune des organisations scientifiques ne s'est préoccupée de son édition, même après qu'Horowitz donna une analyse du manuscrit Aya Sofia d'Istanbul, manuscrit où manque le premier volume. Aḥmad Zakī Pacha rassembla lors d'un séjour à Istanbul un texte complet de cet ouvrage et en rapporta en Egypte la reproduction photographique. Il mit en chantier un projet d'édition complète, mais il ne put réaliser que la publication du premier tome, au Caire en 1924. Quelques spécialistes ont publié, chacun dans le domaine qui l'intéressait, des fragments dispersés mais étendus.

Il m'est apparu que les chapitres consacrés à l'Egypte, la Syrie, le Ḥiǧāz et le Yémen, sixième et septième chapitres de la deuxième partie, sont d'une haute importance. On trouverait difficilement un traité qui, dans un nombre de pages assez limité, renferme une grande quantité de détails curieux et importants : d'une part sur les institutions et les cérémonials de l'Etat Mamelouk en Egypte et en Syrie, d'autre part, sur les régimes et les coutumes qui existaient au Yémen à l'époque Rasulide. Il faut, toutefois, faire observer que la description du Ḥiǧāz manque dans tous les manuscrits de *Masālik*, et qu'on y trouve seulement quelques détails sur les deux villes saintes (la Mecque et Médine).

Certes, la majeure partie de la description d'al-ʿUmarī, dont nous présentons ici l'édition, était recopiée par trois des historiens du IXᵉ/XVᵉ siècle : Al-Qalqašandī, al-Maqrīzī et al-Suyūṭī; cependant l'étude sérieuse et approfondie de cette époque exige de connaître les priorités des sources, surtout lorsqu'il s'agit des questions des institutions et des cérémonials qui subirent beaucoup de changements et d'évolutions même à travers l'histoire d'un seul Etat.

C'est ainsi que la description d'al-Qalqašandī, al-Maqrīzī et al-Suyūṭī, quoiqu'ils aient vécu plus d'un siècle après al-ʿUmarī, n'ajoute rien d'important aux données de ce dernier, et, par conséquent, cette description ne correspondait donc pas à la réalité de leur temps, parce qu'ils nous donnent une description de ces institutions et de ces cérémonials surtout à l'époque du sultan al-Nāṣir Muḥammad b. Qalāwūn, à qui al-ʿUmarī a dédié cet ouvrage. Le lecteur peut bien observer, en suivant mes annotations, jusqu'à quel point le sixième chapitre a été utile au célèbre historien al-Maqrīzī qui a copié mot à mot sa description de la Citadelle du Caire, et celle des robes d'honneur (*al-ḫilaʿ*) au temps des Mamelouks, sans daigner le citer une seule fois; au contraire d'al-Qalqašandī et d'al-Suyūṭī, dont les emprunts sont à la fois exacts et honnêtes, car ils citent bien leurs sources.

* * *

L'OUVRAGE L'ouvrage d'al-ʿUmarī est classé parmi les œuvres d'« *al-Masālik wal-Mamālik* » (la configuration de la terre), genre de composition très proche de la géographie descriptive, qui florissait aux III-IV^{e}/IX-X^{e} siècles.

Trois siècles plus tard, avec le transfert du califat ʿabbāside au Caire en 659/1260, Le Caire — promu au rang de capitale d'Empire depuis plus de deux siècles — reçut finalement l'héritage glorieux et accablant de Baġdād. Une nouvelle forme d'Encyclopédisme remplaça l'ancienne forme des Encyclopédies telles qu'*al-Aġānī* d'abul-Farağ al-Aṣfahānī, *al-Ḥayawān* d'al-Ğāḥiẓ et plus tard *al-Ansāb* d'al-Samʿānī et *Muʿğam al-Buldān* de Yāqūt al-Hamawī. Cette nouvelle forme s'est distinguée de la précédente par des traits significatifs qui reflètent le début de l'époque de la décadence culturelle et intellectuelle du monde musulman. Ces nouvelles Encyclopédies devaient servir, surtout, de référence pour les rédacteurs des diverses administrations.

Les plus intéressants de ces ouvrages encyclopédiques sont au nombre de quatre : *Manāhiğ al-Fikar wa Mabāhiğ al-ʿIbar* d'Ibn al-Waṭwāṭ al-Kutubī (m. 718/1318), *Nihāyat al-ʿArab fī Funūn al-Adab* d'al-Nuwayrī (m. 732/1332), *Ṣubḥ al-Aʿšā fī Ṣināʿat al-Inšāʾ* d'al-Qalqašandī (m. 821/1418), et *Masālik al-Abṣār* d'al-ʿUmarī, présentement édité.

C'est au temps du troisième sultanat d'al-Nāṣir Muḥammad b. Qalāwūn (709-741/1309-1341) qu'al-ʿUmari commença à composer son Encyclopédie, à la fois géographique, littéraire et historique. Al-ʿUmarī, en effet, descend d'une famille de fonctionnaires qui a joui pour plus d'un siècle d'une haute autorité et d'une indéniable compétence dans l'administration des sultans mamelouks. Lui-même a fait carrière dans cette administration et a occupé pendant un certain temps le poste de chef du secrétariat de la chancellerie mamelouke.

Grâce à la table des matières dressée par al-ʿUmarī lui-même, grâce aux descriptions des manuscrits déjà données par De Slane, Horowitz et Aḥmad Zakī Pacha, et grâce aussi à une étude que j'ai faite du manuscrit Aḥmad III, nous pouvons déduire que l'ouvrage se présente en deux grandes parties (*qism*) : l'une est une cosmographie avec description de la terre; l'autre est consacrée à l'Homme en tant qu'être vivant en société et se livrant de ce fait, à la culture de l'esprit. Chaque partie se subdivise en genres (*anwāʿ*), mot qui doit être ici l'équivalent de livre; à leur tour les livres comprennent plusieurs chapitres ou *abwāb* qui comportent des divisions répondant à la notion de sous-chapitres ou *fuṣūl*.

Al-ʿUmarī composa son ouvrage pour répondre aux besoins intellectuels d'un double public : celui de scribes, et celui des lettrés. Il n'était pas, d'après nos connaissances, un voyageur; mais, comme il assumait des charges et de hautes responsabilités, il a eu l'occasion d'accéder aux archives de l'Etat, soit en Egypte soit en Syrie, et disposa ainsi d'une information de qualité. C'est pour cette raison que, en dehors de l'Egypte et de la Syrie, il ne connaît du monde que ce qu'il en a lu ou entendu dire.

En tenant compte de l'importance du chapitre concernant l'Egypte et la Syrie, cette encyclopédie présente un grand intérêt, en particulier à cause des renseignements qu'elle fournit à propos des pays qui entretenaient des relations diplomatiques, permanentes ou discontinues, avec l'Etat mamelouk.

La valeur des renseignements que nous donne al-ʿUmarī à propos du Yémen s'explique par ce qu'il fait une description de ce pays en s'appuyant sur les témoignages dignes de foi qui s'étaient établis pendant un certain temps au Yémen, notamment à l'époque du règne d'al-Malik al-Mu'ayyad Dāwūd et son fils al-Malik al-Muǧāhid ʿAlī les rasulides (696-764/1297-1363). Ces personnes étaient en contact direct avec les milieux officiels du fait de leurs fonctions ou

à cause de leurs relations personnelles. De même, al-ʿUmarī rapporta quelques nouvelles concernant l'Etat des Imams Zaydites de *Ṣanʿā'*, que des voyageurs en provenance du Yémen lui racontèrent, mais il ne mentionne pas leurs noms. Il ajouta, aussi, aux paroles de ses informateurs, quelques renseignements complémentaires d'après ce qu'il avait constaté lui-même.

* * *

LES MANUSCRITS DE MASĀLIK

Les manuscrits complets du *Masālik* ne sont pas nombreux; ils ont été énumérés par Horowitz [1], qui a donné une analyse du manuscrit Aya Sofia d'Istanbul [2]. Il suffit, comme le dit Gaudefroy-Demombynes [3], de compléter la notice de Horowitz par celle de Brockelmann [4], — dont il cite le manuscrit d'Aḥmad III découvert par Aḥmad Zakī Pacha —, et par l'addition de la copie de la bibliothèque al-Ṣādiqiyya, et de la bibliothèque Muḥammad al-Mannūnī.

Je me suis servi pour cette édition de cinq manuscrits, dont j'ai considéré deux comme manuscrits de base, celui d'Aḥmad III d'Istanbul nº 2797, et celui de la B.N. de Paris nº 2325. Les trois autres sont celui de Dār al-kutub du Caire nº 8m. *maʿārif ʿāmma,* celui de la bibliothèque Taymūriyya nº 539 *tārīḫ,* et celui de la bibliothèque Muḥammad al-Mannūnī de Rabāṭ nº 486.

La découverte du manuscrit Aḥmad III est due aux efforts de l'éminent savant Aḥmad Zakī Pacha; grâce à lui, Dār al-kutub du Caire conserva depuis plus d'un demi-siècle une photocopie de ce manuscrit [5]. C'est un texte complet rédigé pour al-Malik al-Mu'ayyad Šayḫ al-Maḥmūdī (815-824/1412-1421) dans un beau *Nasḫī.* Les chapitres concernant l'Egypte, la Syrie, le Ḥiǧāz et le Yémen remplissent les folios 374 à 476, à raison de 23 lignes par page.

---

[1] Horowitz, J., *MSOS* X (Berlin 1907), IIe partie, p. 43 sv.

[2] C'est une copie composée de 24 volumes enregistrés sous les nos 3415 à 3439; à ce manuscrit écrit de deux mains différentes manque le premier volume.

[3] Brockelmann, C., *GAL* II, 177-178; *S* II, 175.

[4] Gaudefroy-Demombynes, *L'Afrique moins l'Egypte,* I — Masālik al-abṣār fī mamālik al-amṣār par Ibn Faḍl Allāh al-ʿOmarī, *BGA* II, Paris 1927, pp. I-VI.

[5] Sous le nº 559 *maʿārif ʿāmma,* l'Institut de Manuscrits Arabes au Caire possède une photocopie de ce Ms. portant les nos 13 à 24 *maʿārif ʿāmma.*

Quant au manuscrit de Paris, qui présente un volume de cette volumineuse encyclopédie, il ne renferme que le début du deuxième *naw'* de la première partie, et se termine par le sixième chapitre, c'est-à-dire qu'il ne comprend pas le septième chapitre; qui n'existe d'ailleurs que dans les manuscrits d'Aḥmad III et de Muḥammad al-Mannūnī. L'écriture de ce manuscrit est assez lisible, mais, les points diacritiques sont très souvent omis, et de nombreuses fautes de tout genre existent; j'ai pu corriger ces fautes en confrontant le texte d'une part avec les autres manuscrits, et d'autre part avec les compilations des auteurs postérieurs. Le chapitre concernant l'Egypte, la Syrie et le Ḥiǧāz remplit, dans ce manuscrit, les folios 159 à 232 (fin de manuscrit), à raison de 17 lignes par page.

M. Quatremère a donné une excellente notice de ce manuscrit avec de longs extraits des chapitres relatifs à l'Asie dans le treizième volume des *Notices et Extraits* [1]; et il a fait servir à la riche annotation de son *Histoire des Sultans Mamluks* [2] le chapitre décrivant l'Egypte et la Syrie.

La plupart de ces manuscrits ont été consultés avec fruit par divers savants, notamment par Quatremère, Amari, Van Berchem, Aḥmad Zakī Pacha, Ḥasan Ḥusnī Pacha 'Abd al-Wahhāb et Gaudefroy-Demombynes. Mais jamais l'ouvrage n'a été l'objet d'une édition scientifique complète. Seulement les savants que j'ai mentionnés ont publié des fragments dispersés mais étendus [3].

* * *

MÉTHODE D'ÉTABLISSEMENT DU TEXTE

Nous proposons pour cette édition critique de donner un texte aussi fidèle que possible à l'original de l'auteur. Pour réaliser ce but, nous avons utilisé la méthode déjà adoptée dans nos précédentes éditions, que ce soit pour l'établissement du texte, leur localisation dans l'original, l'identification des

---

[1] Quatremère, M., « Notice de l'ouvrage qui a pour titre Mesalek al-Absar fi Memalek al-Amsars, manuscrit n° (583) 2325 », *Notices et Extraits des manuscrits de la Bibliothèque du Roi et autres Bibliothèques* XIII (1838), pp. 151-384.

[2] Quatremère, M., *Histoire des Sultans Mamluks d'Egypte*, I-III, Paris 1837-1842.

[3] Cf. l'introduction arabe pp. 41-44.

noms des personnes, l'explication des termes techniques ou la confrontation du texte avec les diverses sources parallèles.

Nous avons adjoint aussi au texte six index concernant respectivement : les noms des personnes, les toponymes, les termes techniques, les noms des fonctions, les noms des vêtements et les ouvrages.

* * *

Souhaitons que l'IFAO accorde une attention plus grande encore à l'édition des textes arabes, et se lance dans une politique, suivie de diffusion pour le plus large public possible, des sources inédites de l'histoire de l'Egypte musulmane.

Pour terminer, j'exprime ma reconnaissance à tous les amis qui m'ont encouragé et aidé à réaliser cette édition. Je remercie tout particulièrement le Prof. Jean-Claude Garcin qui a bien voulu souligner auprès de l'IFAO l'importance de la publication de ce texte pour l'histoire de l'Egypte médiévale, Mme Paule Posener-Kriéger, Directeur, et Mme Geneviève Vivent-Bataille, Secrétaire Général de l'IFAO qui ont eu la bienveillance de l'accueillir dans les collections de l'IFAO, ainsi que Mlle Ghislaine Alleaume, membre scientifique de l'IFAO, pour toute son aide, et le personnel de l'Imprimerie de l'IFAO et son directeur, M. R. Gori, qui ont mis tous leurs soins à en réaliser l'impression.

Paris 30 Mars 1985

Ayman Fu'ĀD Sayyid